❀ ❀ ❀

تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

هذه آداب، أدب بها الله عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديثُ معاذ، إذ قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله، لما يرضى رسول الله». وقد رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه. فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما فكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة. وقال العَوْفي عنه: نهى أن يتكلموا بين يدي كلامه. وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء، حتى يقضي الله على لسانه. وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم. وقال سفيان الثوري: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بقول ولا فعل. وقال الحسن البصري: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قال: لا تدعوا قبل الإمام. وقال قتادة: ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون: لو أنزل في كذا كذا، وكذا لو صنع كذا، فكره الله ذلك، وتقدم فيه. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾: هذا أدب ثان أدب الله به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته. وقد روى أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما. وقال البخاري: حدثنا بَسْرَة بن صفوان اللَّخمِي، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبي مُلَيْكَة قال: كاد الخَيِّران أن يهلكا، أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر ـ قال نافع: لا أحفظ اسمه ـ فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي. قال: ما أردت خلافك. فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الآية، قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمعُ رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه: يعني أبا بكر، رضي الله عنه. انفرد به دون مسلم. ثم قال البخاري: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا حَجَّاج، عن ابن جُرَيْج، حدثني ابن أبي مليكة: أن عبد الله بن الزبير أخبره: أنه قَدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أَمِّر القعقاعَ بن مَعْبد. وقال عمر: بل أَمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلي ـ أو: إلا ـ خلافي. فقال عمر: ما أردتُ خلافَك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، حتى انقضت الآية، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [الحجرات: ٥]. وهكذا رواه هاهنا منفرداً به أيضاً. وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا حصين بن عُمَر، عن مُخَارق، عن طارق بن شهاب، عن أبي بكر الصديق قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾، قلت: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخي السِّرار.

حصين بن عمر هذا ـ وإن كان ضعيفاً ـ لكن قد رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف، وأبي هريرة رضي الله عنه بنحو

ذلك، والله أعلم. وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا أزهر بن سعد، أخبرنا ابن عون، أنبأني موسى ابن أنس، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه. فأتاه فوجده في بيته مُنَكِّساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يَرْفَعُ صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله، فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: «اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة» تفرد به البخاري من هذا الوجه. وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾، وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ حبط عملي، أنا من أهل النار، وجلس في أهله حزيناً، ففقده رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ، ما لك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ، وأجهر له بالقول، حبط عملي، أنا من أهلِ النار. فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال: «لا، بل هو من أهل الجنة». قال أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة. فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تُعوِّدون أقرانكم. فقاتلهم حتى قُتل. وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البُناني، عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية، جلس ثابت في بيته، قال: أنا من أهل النار. واحتبس عن النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ لسعد بن معاذ: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ أشتكى؟» فقال: سعد إنه لجاري، وما علمت له بشكوى. قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أُنزِلَت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل، هو من أهل الجنة».

ثم رواه مسلم عن أحمد بن سعيد الدارمي، عن حَبَّان بن هلال، عن سليمان بن المغيرة، به، قال: ولم يذكر سعدَ بن معاذ. وعن قطن بن نُسَير عن جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بنحوه. وقال: ليس فيه ذكر سعد بن معاذ. حدثنا هُرَيم بن عبد الأعلى الأسدي، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي يذكر، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية، واقتص الحديث، ولم يذكر سعد بن معاذ، وزاد: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رَجلٌ من أهل الجنة. فهذه الطرق الثلاث مُعَلّلة لرواية حماد بن سلمة، فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ. والصحيح: أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجوداً؛ لأنه كان قد مات بعد بني قريظة بأيام قلائل سنة خمس، وهذه الآية نزلت في وفد بني تميم، والوفود إنما تواتروا في سنة تسع من الهجرة، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شمَّاس، حدثني عمي إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس، عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ قال: قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي، قال: فمر به عاصم بن عدي من بني العَجلان، فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية، أتخوف أن تكون نزلت فيَّ وأنا صيت، رفيع الصوت. قال: فمضى عاصم بن عدي إلى رسول الله ﷺ قال: وغلبه البكاء، فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبي بن سلول فقال لها: إذا دخلتُ بيت فَرَسي فشدّي عَلَيّ الضبَّة بمسمار، فضربته بمسمار حتى إذا خرج عطفه، وقال: لا أخرج حتى يتوفاني الله، ﷻ، أو يرضى عني رسول الله ﷺ. قال: وأتى عاصم رسولَ الله ﷺ فأخبره خبره، فقال: «اذهب فادعه لي». فجاء عاصم إلى المكان فلم يجده، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفَرَس، فقال له: إن رسول الله ﷺ يدعوك. فقال: اكسر الضبة. قال: فخرجا فأتيا النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ثابت؟». فقال: أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾. فقال: له رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تعيش حَميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟». فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت النبي ﷺ. قال: وأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾. وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك، فقد نهى الله ﷻ، عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صَوت رجلين في مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء، فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: مِن أين أنتما؟ قال: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً. وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته؛ لأنه محترم حياً وفي قبره، صلوات الله وسلامه عليه، دائماً. ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه

ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، كما قال: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. وقوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقي لها بالاً يَهْوِي بها في النار أبعد ما بين السموات والأرض». ثم ندب الله ﷻ، إلى خفض الصوت عنده، وحثَّ على ذلك، وأرشد إليه، ورغَّب فيه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلاً، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. وقد قال الإمام أحمد في كتاب الزهد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد، قال: كُتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها، أفضل أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر، رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

ثم إنه تعالى ذَمّ الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. ثم أرشد إلى الأدب في ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة. ثم قال داعياً لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. ثم ذُكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي، فيما أورده غير واحد، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وُهَيْب، حدثنا موسى بن عقبة، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس؛ أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، فقال: يا محمد، يا محمد ـ وفي رواية: يا رسول الله ـ فلم يجبه. فقال: يا رسول الله، إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال: «ذاك الله، ﷻ». وقال ابن جرير: حدثنا أبو عمار الحسين بن حُرَيْث المروزي، حدثنا الفضل بن موسى، عن الحسين بن واقد، عن أبي إسحاق، عن البراء في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قال: جاء رسول الله فقال: يا محمد، إن حمدي زين، وذمي شين. فقال: «ذاك الله، ﷻ». وهكذا ذكره الحسن البصري، وقتادة مرسلاً. وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عَمْرَة قال: كان بِشْر بن غالب ولَبِيد بن عُطَارِد ـ أو بشر ابن عطارد ولبيد بن غالب ـ وهما عند الحجاج جالسان ـ فقال بشر بن غالب للبيد بن عُطَارد: نزلت في قومك بني تميم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قال: فذكرت ذلك لسعيد بن جبير فقال: أما إنه لو علم بآخر الآية أجابه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات: ١٧]، قالوا: أسلمنا، ولم يقاتلك بنو أسد. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَمرو بن علي الباهلي، حدثنا المعتمر بن سليمان: سمعت داود الطفاوي يحدث عن أبي مسلم البجلي، عن زيد بن أرقم قال: اجتمع أناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكاً نعش بجناحه. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا، فجاؤوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾. قال: فأخذ رسول الله ﷺ بأذني فمدها، فجعل يقول: «لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد». ورواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، عن المعتمر بن سليمان، به.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق لِيُحتاط له، لئلا يحكم بقوله فيكون ـ في نفس الأمر ـ كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال. وقد قررنا هذه المسألة في كتاب العلم من شرح البخاري، ولله الحمد والمنة. وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق. وقد روى ذلك من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق، وهو الحارث بن ضِرَار، والد جُوَيرية بنت الحارث أم المؤمنين، رضي الله عنها، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سابق، حدثنا عيسى بن دينار، حدثني أبي أنه سمع الحارث بن

ضرار الخزاعي يقول: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، ويُرسل إليَّ رسول الله رسولاً لإبّان كذا وكذا ليأتيك ما جمَعتُ من الزكاة. فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سَخْطَةٌ من الله ورسوله، فدعا بسَرَاوات قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وَقَّت لي وقتاً يرسل إليَّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخُلْف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت، فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَق ـ أي: خاف ـ فرجع فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي. فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث. وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفَصَل عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بُعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله. قال: لا، والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بَتَّةً ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟». قال: لا، والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس عليَّ رسول رسول الله ﷺ، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ إلى قوله: ﴿حَكِيمٌ﴾. ورواه ابن أبي حاتم عن المنذر بن شاذان التمار، عن محمد بن سابق به. ورواه الطبراني من حديث محمد بن سابق، به، غير أنه سماه الحارث بن سرار، والصواب: الحارث بن ضرار، كما تقدم.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا جعفر بن عَوْن، عن موسى بن عبيدة، عن ثابت مولى أم سلمة، عن أم سلمة قالت: بعث رسول الله ﷺ رجلاً في صدقات بني المصطلق بعد الوقيعة، فسمع بذلك القوم، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ، قالت: فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت: فرجع إلى رسول الله فقال: إن بني المصطلق قد منعوني صدقاتهم. فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون. قالت: فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ، فصفوا له حين صلى الظهر، فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله، بعثت إلينا رجلاً مصدقاً، فسررنا بذلك، وقرت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق، فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله ومن رسوله، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال فأذن بصلاة العصر، قالت: ونزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾. وروى ابن جرير أيضاً من طريق العَوْفي، عن ابن عباس في هذه الآية قال: كان رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط إلى بني المصطلق ليأخذ منهم الصدقات، وإنهم لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا يتلقون رسول رسول الله ﷺ، وإنه لما حُدِّثَ الوليد أنهم خرجوا يتلقونه، رجع الوليد إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بني المصطلق قد منعوا الصدقة. فغضب رسول الله ﷺ من ذلك غضباً شديداً، فبينا هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا: يا رسول الله، إنا حدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق، وإنا خشينا أن ما رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. وإن النبي ﷺ استغشهم وهَمّ بهم، فأنزل الله عذرهم في الكتاب، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ إلى آخر الآية. وقال مجاهد وقتادة: أرسل رسول الله الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق ليُصدّقهم، فتلقوه بالصدقة، فرجع فقال: إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك ـ زاد قتادة: وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام ـ فبعث رسول الله خالد بن الوليد إليهم، وأمره أن يتثبت ولا يعجل. فانطلق حتى أتاهم ليلاً، فبعث عيونه، فلما جاؤوا أخبروا خالداً أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى الذي يعجبه، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فأنزل الله هذه الآية. قال قتادة: فكان رسول الله ﷺ يقول: «التَّبيُّن من الله، والعَجَلَة من الشيطان». وكذا ذكر غير واحد من السلف، منهم: ابن أبي ليلى، ويزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل ابن حَيَّان، وغيرهم في هذه الآية: أنها نزلت في الوليد بن عقبة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: اعلموا أن بين أظهركم رسولَ الله فعظّموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. ثم بيّن تعالى أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحَرَجكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ٧١]. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ

﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: حببه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم. قال الإمام أحمد: حدثنا بَهز، حدثنا علي بن مَسْعَدة، حدثنا قتادة، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب» قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا». ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أي: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهي: الذنوب الكبار. والعصيان وهي جميع المعاصي. وهذا تدريج لكمال النعمة. وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم. قال الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكي، عن ابن رفاعة الزرقي، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثني على ربي، ﷻ» فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: «اللهم، لك الحمد كله. اللهم، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضل لمن هديت. ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت. ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت. اللهم، ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك. اللهم، إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم، إني أسألك النعيم يوم العَيْلَة، والأمن يوم الخوف. اللهم، إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا. اللهم، حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم، توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. اللهم، قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم، قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق». ورواه النسائي في اليوم والليلة عن زياد بن أيوب، عن مَرْوَان بن معاوية، عن عبد الواحد بن أيمن، عن عُبَيْد بن رِفاعة، عن أبيه، به. وفي الحديث المرفوع: «من سرته حسنته، وساءته سيئته، فهو مؤمن». ثم قال: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾.

يقول تعالى آمراً بالإصلاح بين المسلمين الباغين بعضهم على بعض: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، فسماهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقول الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن، عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». فكان كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة. وقوله: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: حتى ترجع إلى أمر الله وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في الصحيح عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه». وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر قال: سمعت أبي يحدث: أن أنساً قال: قيل للنبي ﷺ، لو أتيت عبد الله بن أبي؟ فانطلق إليه نبي الله ﷺ وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة، فلما انطلق إليه النبي ﷺ قال: «إليك عني، فوالله لقد آذاني ريح حمارك» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله أطيب ريحاً منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. ورواه البخاري في «الصلح» عن مُسَدَّد، ومسلم في «المغازي» عن محمد بن عبد الأعلى، كلاهما عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، به نحوه. وذكر سعيد بن جبير: أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال، فأنزل الله هذه الآية، فأمر بالصلح بينهما. وقال السدي: كان رجل من الأنصار يقال له: «عمران»، كانت له امرأة تدعى أم زيد، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في عُلِّيَّة له لا يدخل عليها أحد من أهلها. وإن المرأة بعثت إلى أهلها، فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها، وإن الرجل قد كان خرج، فاستعان أهل الرجل، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال، فنزلت فيهم هذه الآية. فبعث إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم، وفاؤوا إلى أمر الله. وقوله: ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض، بالقسط، وهو العدل، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا عبد الأعلى، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن

عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن، بما أقسطوا في الدنيا». ورواه النسائي عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، به. وهذا إسناد جيد قوي، رجاله على شرط الصحيح. وحدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما وَلُوا». ورواه مسلم والنسائي، من حديث سفيان بن عيينة، به. وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي: الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه». وفي الصحيح: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». وفي الصحيح أيضاً: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله». والأحاديث في هذا كثيرة، وفي الصحيح: «مثل المؤمنين في تَوادِّهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحُمّى والسّهر». وفي الصحيح أيضاً: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه. وقال أحمد: حدثنا أحمد بن الحجاج، حدثنا عبد الله، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثني أبو حازم قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما في الرأس». تفرد به ولا بأس بإسناده. وقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ يعني: الفئتين المقتتلين، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكِبْر بطر الحق وغَمْص الناس»، ويروى: «وغمط الناس». والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له؛ ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾، فنص على نهي الرجال وعطف بنهي النساء. وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تلمزوا الناس. والهمّاز اللّماز من الرجال مذموم ملعون، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾ [الهمزة: ١]، فالهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم: ١١] أي: يحتقر الناس ويهمزهم طاعناً عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة وهي: اللمز بالمقال؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أي: لا يقتل بعضكم بعضا. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومقاتل بن حيّان: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يطعن بعضكم على بعض. وقوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ أي: لا تتداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها. قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا داود بن أبي هند، عن الشعبي قال: حدثني أبو جَبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِيَ أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا. فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾. رواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل، عن وُهَيب، عن داود، به. وقوله: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بئس الصفة والاسم الفسوق وهو: التنابز بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون، بعدما دخلتم في الإسلام وعقلتموه، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ أي: من هذا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليجتنب كثير منه احتياطاً، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً. وقال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا أبو القاسم بن أبي ضمرة نصر بن محمد بن سليمان الحِمْصي، حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي قيس النَّضري، حدثنا عبد الله بن عمر قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك. والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم من عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن يظن به إلا خير». تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه. وقال مالك، عن أبي الزّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب

الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً». رواه البخاري عن عبد الله بن يوسف، ومسلم عن يحيى بن يحيى، وأبو داود عن العتبي ثلاثتهم، عن مالك، به. وقال سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام». رواه مسلم والترمذي ـ وصححه ـ من حديث سفيان بن عيينة، به. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله القِرْمِطي العدوي، حدثنا بكر بن عبد الوهاب المدني، حدثنا إسماعيل بن قيس الأنصاري، حدثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي الرجال، عن أبيه، عن جده حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتي: الطِّيَرَةُ، والحسد، وسوء الظن». فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فَأمض». وقال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن زيد قال: أتى ابن مسعود، رضي الله عنه، برجل، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً. فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به. سماه ابن أبي حاتم في روايته الوليد بن عقبة بن أبي معيط. وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا لَيْث، عن إبراهيم بن نَشِيط الخَوْلاني، عن كعب بن علقمة، عن أبي الهيثم، عن دُخَين كاتب عقبة قال: قلت لعقبة: إن لنا جيراناً يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاء دخين فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دُخَين فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم. فقال له عقبة: ويحك لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها». ورواه أبو داود والنسائي من حديث الليث بن سعد، به نحوه. وقال سفيان الثوري، عن ثور، عن راشد بن سعد، عن معاوية قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم» أو: «كدت أن تفسدهم». فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ، نفعه الله بها. رواه أبو داود منفرداً به من حديث الثوري، به. وقال أبو داود أيضاً: حدثنا سعيد بن عمرو الحضرمي، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن جُبَيْر بن نُفَيْر، وكثير بن مُرَّة، وعمرو بن الأسود، والمقدام بن معد يكرب، وأبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم، وقوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: على بعضكم بعضاً. والتجسس غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالباً في الخير، كما قال تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام أنه قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً». وقال الأوزاعي: التجسس: البحث عن الشيء. والتحسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم. والتدابر: الصَّرْم. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾: فيه نهي عن الغيبة، وقد فسرها الشارع كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا القَعْنَبي، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته». ورواه الترمذي عن قتيبة، عن الدَّرَاوَرْدِي به. وقال: حسن صحيح. ورواه ابن جرير عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن العلاء. وهكذا قال ابن عمر، ومسروق، وقتادة، وأبو إسحاق، ومعاوية بن قُرَّة. وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني علي بن الأقمر، عن أبي حذيفة، عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا! ـ قال غير مسدد: تعني قصيرة ـ فقال: «لقد قلت كلمة لو مُزِجَتْ بماء البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنساناً، فقال ﷺ: «ما أحب أني حكيت إنساناً، وإن لي كذا وكذا». ورواه الترمذي من حديث يحيى القَطَّان، وعبد الرحمن بن مَهْدِيّ، ووَكِيع، ثلاثتهم عن سفيان الثوري، عن علي بن الأقمر، عن أبي حذيفة سلمة بن صهيبة الأرحبي، عن عائشة، به. وقال: حسن صحيح. وقال ابن جرير: حدثني ابن أبي الشوارب: حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيباني، حدثنا حسان بن المخارق؛ أن امرأة دخلت على عائشة، فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها إلى النبي ﷺ ـ أي: إنها قصيرة ـ فقال النبي ﷺ: «اغتبتيها». والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «ائذنوا له، بئس أخو العشيرة»، وكقوله لفاطمة بنت قيس ـ وقد

خطبها معاوية وأبو الجهم: «أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه». وكذا ما جرى مجرى ذلك. ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد؛ ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؟ أي: كما تكرهون هذا طبعاً، فاكرهوا ذاك شرعاً؛ فإن عقوبته أشد من هذا وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، كما قال، عليه السلام، في العائد في هبته: «كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه»، وقد قال: «ليس لنا مثل السوء». وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه، عليه السلام، قال في خطبة حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا». وقال أبو داود: حدثنا واصل بن عبد الأعلى، حدثنا أسباط بن محمد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، حسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم». ورواه الترمذي عن عبيد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به. وقال: حسن غريب. وحدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن سعيد بن عبد الله بن جريج، عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته». تفرد به أبو داود.

وقد روي من حديث البراء بن عازب، فقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا إبراهيم بن دينار، حدثنا مصعب بن سلام، عن حمزة بن حبيب الزيات، عن أبي إسحاق السَّبيعي، عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها ـ أو قال: في خدورها ـ فقال: «يا معشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته». طريق أخرى عن ابن عمر: قال أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يحيى بن أكثم، حدثنا الفضل بن موسى الشيباني، عن الحسين بن واقد، عن أوفى بن دَلْهَم، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله». قال: ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، وللمؤمن أعظمُ حرمة عند الله منك. قال أبو داود: وحدثنا حَيْوَة بن شُرَيْح، حدثنا بَقِيَّة، عن ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن وقاص بن ربيعة، عن المستورد؛ أنه حدثه: أن النبي ﷺ قال: «من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها في جهنم، ومن كُسي ثوباً برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله في جهنم. ومن قام برجل مقام سمعةٍ ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة». تفرد به أبو داود. وحدثنا ابن مصفى، حدثنا بقية وأبو المغيرة قالا: حدثنا صفوان، حدثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرِج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم». تفرد به أبو داود، وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامي، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا أبو عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد العمي، حدثنا أبو هارون العَبْديّ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله، حَدّثنا ما رأيت ليلة أسرىَ بك؟... قال: «ثم انطلق بي إلى خلق من خلق الله كثير، رجال ونساء مُوَكَّل بهم رجال يعمدون إلى عُرْض جنْب أحدهم فَيَحْذُون منه الحُذْوَة من مثل النعل ثم يضعونه في فيّ أحدهم، فيقال له: «كل كما أكلت»، وهو يجد من أكله الموت ـ يا محمد ـ لو يجد الموت وهو يكره عليه فقلت: يا جبرائيل، من هؤلاء: قال: هؤلاء الهمّازون اللمّازن أصحاب النميمة. فيقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ وهو يكره على أكل لحمه. هكذا أورد هذا الحديث، وقد سقناه بطوله في أول تفسير «سورة سبحان» ولله الحمد. وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا الربيع، عن يزيد بن أنس؛ أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يصوموا يوماً ولا يفطرن أحدٌ حتى آذن له. فصام الناس، فلما أمسوا جعل الرجل يجيء إلى رسول الله ﷺ فيقول: ظللت منذ اليوم صائماً، فائذن لي فأفطر، فيأذن له، ويجيء الرجل فيقول ذلك، فيأذن له، حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله، إن فتاتين من أهلك ظلتا منذ اليوم صائمتين، فائذن لهما فَلْيفطرا فأعرض عنه، ثم أعاد، فقال رسول الله ﷺ: «ما صامتا، وكيف صام من ظل يأكل لحوم الناس؟ اذهب، فمرهما إن كانتا صائمتين أن يستقيئا». ففعلتا، فقاءت كل واحدة منهما عَلَقةً علقةً فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «لو ماتتا وهما فيهما لأكلتهما النار». إسناد ضعيف، ومتن غريب.

وقد رواه الحافظ البيهقي من حديث يزيد بن هارون: حدثنا سليمان التيمي قال: سمعت رجلاً يحدث في مجلس أبي عثمان النَّهْدِي عن عبيد ـ مولى رسول الله ـ أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، وأن رجلاً أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، إن هاهنا امرأتين صامتا، وإنهما كادتا تموتان من العطش ـ أرَاهُ قال: بالهاجرة ـ فأعرض عنه ـ أو: سكت عنه ـ فقال: يا نبي الله، إنهما ـ والله قد ماتتا أو كادتا تموتان. فقال: ادعهما. فجاءتا، قال: فجيء بقدح ـ أو عُسّ ـ فقال لإحداهما: قيئي. فقاءت من قيح ودم وصديد، حتى قاءت نصف القدح. ثم قال للأخرى: قيئي فقاءت قيحاً ودماً وصديداً ولحماً ودماً عبيطاً وغيره حتى ملأت القدح. فقال: إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس. وهكذا قد رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وابن أبي عدي، كلاهما عن سليمان بن طِرْخان التيمي، به مثله أو نحوه. ثم رواه أيضاً من حديث مُسَدَّد، عن يحيى القَطَّان، عن عثمان بن غياث، حدثني رجل أظنه في حلقة أبي عثمان، عن سعد ـ مولى رسول الله ﷺ ـ أنهم أمروا بصيام، فجاء رجل في نصف النهار فقال: يا رسول الله، فلانة وفلانة قد بلغتا الجهد. فأعرض عنه مرتين أو ثلاثا، ثم قال: «ادعهما». فجاء بعُس ـ أو: قَدَح ـ فقال لإحداهما: «قيئي»، فقاءت لَحْماً ودماً عبيطاً وقيحاً، وقال للأخرى مثل ذلك، فقال: «إن هاتين صامتاً عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، أتت إحداهما للأخرى فلم تزالا تأكلان لحوم الناس حتى امتلأت أجوافهما قيحاً». وقال البيهقي: كذا قال «عن سعد»، والأول ـ وهو عبيد ـ أصح. قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عمرو بن الضحاك بن مَخْلَدٍ، حدثنا أبي أبو عاصم، حدثنا ابن جُرَيْج، أخبرني أبو الزبير عن ابن عَمّ لأبي هريرة أن ماعزاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت فأعرض عنه ـ قالها أربعاً ـ فلما كان في الخامسة قال: «زنيت»؟ قال: نعم. قال: «وتدري ما الزنا؟» قال: نعم، أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً. قال: «ما تريد إلى هذا القول؟» قال: أريد أن تطهرني. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب المِيل في المكحلة والرِّشاء في البئر؟» قال: نعم، يا رسول الله. قال: فأمر برجمه فرجم، فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجِمَ رجم الكلب. ثم سار النبي ﷺ حتى مَرّ بجيفة حمار فقال: «أين فلان وفلان؟ أنزلا فكلا من جيفة هذا الحمار» قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يُؤكل هذا؟ قال: «فما نلتما من أخيكما آنفاً أشد أكلا منه، والذي نفسي بيده، إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها» إسناده صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثني أبي، حدثنا واصل ـ مولى ابن عيينة ـ حدثني خالد بن عُرْفُطَة، عن طلحة بن نافع، عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين». **طريق أخرى**: قال عبد بن حُميد في مسنده: حدثنا إبراهيم بن الأشعث، حدثنا الفُضيل بن عياض، عن سليمان، عن أبي سفيان ـ وهو طلحة بن نافع ـ عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فهاجت ريح منتنة، فقال النبي ﷺ: «إن نفراً من المنافقين اغتابوا ناساً من المسلمين، فلذلك بعثت هذه الريح» وربما قال: «فلذلك هاجت هذه الريح».
وقال السدي في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾: زعم أن سلمان الفارسي كان مع رجلين من أصحاب النبي ﷺ في سفر يخدمهما ويخف لهما، وينال من طعامهما، وأن سلمان لما سار الناس ذات يوم وبقي سلمان نائماً، لم يسر معهم، فجعل صاحباه يكلمانه فلم يجداه، فضربا الخِباء فقالا: ما يريد سليمان ـ أو: هذا العبد ـ شيئاً غير هذا: أن يجيء إلى طعام مقدور، وخباء مضروب! فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداماً، فانطلق فأتى رسول الله ﷺ ومعه قَدَح له، فقال: يا رسول الله، بعثني أصحابي لتِؤدِمَهم إن كان عندك؟ قال: «ما يصنع أصحابك بالأدم؟ قد ائتدموا». فرجع سلمان يخبرهما بقول رسول الله ﷺ، فانطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فقالا: لا، والذي بعثك بالحق، ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا. قال: «إنكما قد ائتدمتما بسلمان بقولكما». قال: ونزلت: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، إنه كان نائماً.

وروى الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المختارة» من طريق حَبَّان بن هلال، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: كانت العرب تخدم بعضها بعضاً في الأسفار، وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمهما، فناما فاستيقظا ولم يهيىء لهما طعاماً، فقالا: إن هذا لنؤوم، فأيقظاه، فقالا له: ائت رسول الله فقل له: إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام، ويستأدمانك. فقال: «إنهما قد ائتدما» فجاءا فقالا: يا رسول الله، بأي شيء ائتدمنا؟ فقال: «بلحم أخيكما، والذي نفسي بيده، إني لأرى لحمه بين ثناياكما». فقالا: استغفر لنا يا رسول الله فقال: «مُرَاه فليستغفر لكما». وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا محمد بن مسلم، عن محمد بن إسحاق عن عمه موسى بن يَسار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل من لحم أخيه في الدنيا، قُرِّب له لحمه في الآخرة، فيقال له: كله مَيْتاً كما أكلته حَيًّا. قال: فيأكله ويَكْلَح ويصيح».

غريب جداً. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه في ذلك واخشوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: تواب على من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه، واعتمد عليه. قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يُقلع عن ذلك، ويعزم على ألاّ يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذاً أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون تلك بتلك، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عبد الله بن سليمان؛ أن إسماعيل بن يحيى المعَافِرِيّ أخبره أن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنِيّ أخبره، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «من حمى مؤمناً من منافق يعيبه، بعث الله إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم. ومن رمى مؤمناً بشيء يريد شينه، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال». وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله ـ وهو ابن المبارك ـ به بنحوه.

وقال أبو داود أيضاً: حدثنا إسحاق بن الصباح، حدثنا ابن أبي مريم، أخبرنا الليث: حدثني يحيى بن سليم؛ أنه سمع إسماعيل بن بشير يقول: سمعت جابر بن عبد الله، وأبا طلحة بن سهل الأنصاري يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرىء يخذل امرأ مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في مواطن يحب فيها نصرته. وما من امرىء ينصر امرأ مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في مواطن يحب فيها نصرته». تفرد به أبو داود.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾.

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوب، وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك. وقيل: المراد بالشعوب بطون العَجَم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل. وقد لخصت هذا في مقدمة مفردة جمعتها من كتاب: «الإنباه» لأبي عمر بن عبد البر، ومن كتاب «القصد والأمم، في معرفة أنساب العرب والعجم». فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً، منبهاً على تساويهم في البشرية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أي: ليحصل التعارف بينهم، كلٌ يرجع إلى قبيلته. وقال مجاهد في قوله: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، كما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا، أي: من قبيلة كذا وكذا. وقال سفيان الثوري: كانت حِمْير ينتسبون إلى مُخَاليفها، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها.

وقد قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد الملك ابن عيسى الثقفي، عن يزيد ـ مولى المنبعث ـ عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر». ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ أي: إنما يتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب. وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ: قال البخاري، رحمه الله: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا عبدة، عن عبيد الله، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فَقِهُوا». وقد رواه البخاري في غير موضع من طرق عن عبدة بن سليمان. ورواه النسائي في التفسير من حديث عبيد الله ـ وهو ابن عمر العمري ـ به.

حديث آخر: قال مسلم، رحمه الله: حدثنا عمرو الناقد، حدثنا كَثِير بن هشام، حدثنا جعفر ابن برقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سنان، عن كَثِير بن هشام، به. **حديث آخر**: وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن أبي هلال، عن بكر، عن أبي ذر قال: إن النبي ﷺ قال له: «انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى». تفرد به أحمد. **حديث آخر**: وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو عبيدة عبد الوارث بن إبراهيم العسكري، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو بن جَبَلة، حدثنا عبيد بن حنين الطائي، سمعت محمد بن حبيب بن خِرَاش العَصَرِيّ، يحدث عن أبيه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «المسلمون إخوة، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى».

حديث آخر: قال أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا أحمد بن يحيى الكوفي، حدثنا الحسن بن الحسين، حدثنا قيس ـ يعني ابن الربيع ـ عن شبيب بن غَرْقَدَة، عن المستظل بن حصين، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم بنو آدم. وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجِعْلان». ثم قال: لا نعرفه عن حذيفة إلا من هذا الوجه.

حديث آخر: قال: ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا يحيى بن زكريا القطان، حدثنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القَصْواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخاً في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت. ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال: «يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله. إن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾» ثم قال: «أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم». هكذا رواه عبد بن حميد، عن أبي عاصم الضحاك بن مَخْلَد، عن موسى بن عبيدة، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهِيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح عن عقبة بن عامر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد، كلكم بنو آدم طَفُّ الصاع لم يملؤه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى، وكفى بالرجل أن يكون بَذِيًا بخيلاً فاحشاً». وقد رواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، عن ابن لَهِيعة، به. ولفظه: «الناس لآدم وحواء، طف الصاع لم يملؤه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم». وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه. **حديث آخر**: قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا شريك، عن سِمَاك، عن عبد الله بن عَمِيرة زوج درة ابنة أبي لهب، عن درة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ فقال ﷺ: «خير الناس أقرؤهم، وأتقاهم لله، ﷻ، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم». **حديث آخر**: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو الأسود، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا، ولا أعجبه أحد قط، إلا ذو تقى. تفرد به أحمد رحمه الله. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله. وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة في كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في «كتاب الأحكام»، ولله الحمد والمنة. وقد روى الطبراني عن عبد الرحمن أنه سمع رجلاً من بني هاشم يقول: أنا أولى الناس برسول الله. فقال: غيرك أولى به منك، ولك منه نسبه.

﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾. وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل، عليه السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أعطى رسول الله ﷺ رجالاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تُعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن؟ فقال النبي ﷺ: «أو مسلم» حتى أعادها سعد ثلاثاً، والنبي ﷺ يقول: «أو مسلم» ثم قال النبي ﷺ: «إني لأعطي رجالاً وأدع من هو أحب إليّ منهم فلا أعطيه شيئاً؛ مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم». أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري، به. فقد فرق النبي ﷺ بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام. وقد قررنا ذلك بأدلته في أول شرح كتاب الإيمان من «صحيح البخاري» ولله الحمد والمنة. ودل ذلك على أن ذلك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من

الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك. وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخغي، وقتادة، واختاره ابن جرير. وإنما قلنا هذا لأن البخاري، رحمه الله، ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يُظهرون الإيمان وليسوا كذلك. وقد روى عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وابن زيد أنهم قالوا في قوله: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ أي: استسلمنا خوف القتل والسباء. قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمة. وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ. والصحيح الأول؛ أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا، كما ذكر المنافقون في سورة براءة. وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد. ثم قال: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾ أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئاً، كقوله: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ [الطور: ٢١]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب. وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: إنما المؤمنون الكُمّل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ أي: لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض، ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: في قولهم إذا قالوا: «إنهم مؤمنون»، لا كبعض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رِشْدين، حدثني عمرو بن الحارث، عن أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: إن النبي ﷺ قال: «المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم. ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه لله، ﷻ». وقوله: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ أي: أتخبرونه بما في ضمائركم، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: لا يخفي عليه من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾. ثم قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾، يعني: الأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول، يقول الله رداً عليهم: ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ﴾، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، ولله المنة عليكم فيه، ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في دعواكم ذلك، كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟». كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن محمد بن قيس، عن أبي عون، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العرب، ولم نقاتلك، فقال رسول الله ﷺ: «إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطلق على ألسنتهم». ونزلت هذه الآية: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾. ثم قال: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه، ولا نعلم روى أبو عون محمد بن عبيد الله، عن سعيد بن جبير، غير هذا الحديث. ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

آخر تفسير الحجرات، ولله الحمد والمنة

❀ ❀ ❀

(٤٩) سورة الحجرات مدنية
وآياتها ثماني عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾ .

فى بيان حسن الترتيب وجوه : (أحدها) أن فى السورة المتقدمة لما جرى منهم ميل إلى الامتناع مما أجاز النبى ﷺ من الصلح وترك آية التسمية والرسالة وألزمهم كلمة التقوى كأن رسول الله ﷺ قال لهم على سبيل العموم : لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، ولا تتجاوزوا ما يأمر الله تعالى ورسوله (الثانى) هو أن الله تعالى لما بين محل النبى عليه الصلاة والسلام وعلو درجته بكونه رسوله الذى يظهر دينه وذكره بأنه رحيم بالمؤمنين بقوله (رحيما) قال لا تتركوا من احترامه شيئاً لا بالفعل ولا بالقول ، ولا تغتروا برأفته ، وانظروا إلى رفعة درجته (الثالث) هو أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم : أشداء ، ورحماء فيما بينهم ، راكعين ساجدين نظراً إلى جانب الله تعالى ، وذكر أن لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الثناء فى الكتب المتقدمة بقوله (ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل) فإن الملك العظيم لا يذكر أحداً فى غيبته إلا إذا كان عنده محترماً ووعدهم بالأجر العظيم ، فقال فى هذه السورة لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجتكم وإحباط حسناتكم (ولا تقدموا) وقيل فى سبب نزول الآية وجوه : قيل نزلت فى صوم يوم الشك ، وقيل نزلت فى التضحية قبل صلاة العيد ، وقيل نزلت فى ثلاثة قتلوا اثنين من سليم ظنوهما من بنى عامر ، وقيل نزلت فى جماعة أكثروا من السؤال وكان قد قدم على النبى ﷺ وفود والأصح أنه إرشاد عام يشمل الكل ومنع مطلق يدخل فيه كل إثبات وتقدم واستبداد بالأمر وإقدام على فعل غير ضرورى من غير مشاورة وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (لا تقدموا) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون من التقديم الذى هو متعد ، وعلى هذا ففيه وجهان : (أحدهما) ترك مفعوله برأسه كما فى قوله تعالى

(يحيى ويميت) وقول القائل فلان يعطى ويمنع ولا يريد بهما إعطاء شيء معين ولا منع شيء معين وإنما يريد بهما أن له منعاً وإعطاء كذلك ههنا ، كأنه تعالى يقول لا ينبغى أن يصدر منكم تقديم أصلا (والثانى) أن يكون المفعول الفعل أو الأمر كأنه يقول (لاتقدموا) يعنى فعلا (بين يدى الله ورسوله) أولا تقدموا أمراً (الثانى) أن يكون المراد (لا تقدموا) بمعنى لا تتقدموا ، وعلى هذا فهو مجاز ليس المراد هو نفس التقديم بل المراد لاتجعلوا لأنفسكم تقدماً عندالنبى ﷺ يقال فلان تقدم من بين الناس إذا ارتفع أمره وعلا شأنه ، والسبب فيه أن من ارتفع يكون متقدماً فى الدخول فى الأمور العظام ، وفى الذكر عند ذكر الكرام ، وعلى هذا نقول سواء جعلناه متعدياً أو لازماً لا يتعدى إلى ما يتعدى إليه التقديم فى قولنا قدمت زيداً ، فالمعنى واحد لأن قوله (لاتقدموا) إذا جعلناه متعدياً أو لازماً لا يتعدى إلى ما يتعدى إليه التقديم فى قولنا قدمت زيداً ، فتقديره لا تقدموا أنفسكم فى حضرة النبى ﷺ أى لاتجعلوا لأنفسكم تقدماً ورأياً عنده ، ولانقول بأن المراد لا تقدموا أمراً وفعلا ، وحينئذ تتحد القراءتان فى المعنى ، وهما قراءة من قرأ بفتح التاء والدال وقراءة من قرأ بضم التاء وكسر الدال ، وقوله تعالى (بين يدى الله ورسوله) أى بحضرتهما لأن ما بحضرة الإنسان فهو بين يديه وهو ناظر إليه وهو نصب عينيه وفى قوله (بين يدى الله ورسوله) فوائد:

(أحدها) أن قول القائل فلان بين يدى فلان ، إشارة إلى كون كل واحد منهما حاضراً عند الآخر مع أن لأحدهما علو الشأن والآخر درجة العبيد والغلمان ، لأن من يجلس بجنب الإنسان يكلفه تقليب الحدقة إليه وتحريك الرأس إليه عند الكلام والأمر ، ومن يجلس بين يديه لا يكلفه ذلك ، ولأن اليدين تنبىء عن القدرة يقول القائل هو بين يدى فلان ، أى يقلبه كيف شاء فى أشغاله كما يفعل الإنسان بما يكون موضوعاً بين يديه ، وذلك مما يفيد وجوب الاحتراز من التقدم ، وتقديم النفس لأن من يكون كمتاع يقلبه الإنسان بيديه كيف يكون له عنده التقدم (وثانيها) ذكر الله إشارة إلى وجوب احترام الرسول عليه الصلاة والسلام والانقياد لأوامره ، وذلك لأن احترام الرسول ﷺ قد يترك على بعد المرسل وعدم إطلاعه على ما يفعل برسوله فقال (بين يدى الله) أى أنتم بحضرة من الله تعالى وهو ناظر إليكم ، وفى مثل هذه الحالة يجب احترام رسوله (وثالثها) هو أن هذه العبارة كما تقرر النهى المتقدم تقرر معنى الأمر المتأخر وهو قوله (واتقوا) لأن من يكون بين يدى الغير كالمتاع الموضوع بين يديه يفعل به ما يشاء يكون جديراً بأن يتقيه ، وقوله تعالى (واتقوا الله) يحتمل أن يكون ذلك عطفاً يوجب مغايرة مثل المغايرة التى فى قول القائل لاتنم واشتغل ، أى فائدة ذلك النهى هو ما فى هذا الأمر ، وليس المطلوب به ترك النوم كيف كان ، بل المطلوب بذلك الاشتغال فكذلك لاتقدموا أنفسكم ولا تتقدموا على وجه التقوى ، ويحتمل أن يكون بينهما مغايرة أتم من ذلك ، وهى التى فى قول القائل احترم زيداً واخدمه ، أى ائت بأتم الاحترام ، فكذلك ههنا معناه لاتتقدموا عنده وإذا تركتم التقدم فلا تتكلوا على ذلك فلا تنتفعوا

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

بل مع أنكم قائمون بذلك محترمون له اتقوا الله واخشوه وإلا لم تكونوا أتيتم بواجب الاحترام وقوله تعالى (إن الله سميع عليم) يؤكد ماتقدم لأنهم قالوا آمنا ، لأن الخطاب يفهم بقوله (ياأيها الذين آمنوا) فقد يسمع قولهم ويعلم فعلهم وما فى قلوبهم من التقوى والخيانة ، فلا ينبغى أن يختلف قولكم وفعلكم وضمير قلبكم ، بل ينبغى أن يتم مافى سمعه من قولكم آمنا وسمعنا وأطعنا وما فى علمه من فعلكم الظاهر ، وهو عدم التقدم وما فى قلوبكم من الضمائر وهو التقوى .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون ﴾ .

(لا تقدموا) نهى عن فعل ينبىء عن كونهم جاعلين لأنفسهم عند الله ورسوله بالنسبة إليهما وزناً ومقداراً ومدخلا فى أمر من أو امرهما ونواهيهما ، وقوله (لا ترفعوا) نهى عن قول ينبىء عن ذلك الأمر ، لأن من يرفع صوته عند غيره يجعل لنفسه اعتباراً وعظمة وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ ما الفائدة فى إعادة النداء ، وما هذا النمط من الكلامين على قول القائل (يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله) ، و (لا ترفعوا أصواتكم)؟ نقول فى إعادة النداء فوائد خمسة : منها أن يكون فى ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كما فى قول لقمان لابنه (يابنى لا تشرك بالله ، يابنى إنها إن تك مثقال حبة ، يابنى أقم الصلاة) لأن النداء لتنبيه المنادى ليقبل على استماع الكلام ويجعل باله منه ، فإعادته تفيد ذلك ، ومنها أن لا يتوهم متوهم أن المخاطب ثانياً غير المخاطب أولا ، فان من الجائز أن يقول القائل يازيد افعل كذا وقل كذا يا عمرو ، فاذا أعاده مرة أخرى ، وقال يازيد قل كذا ، يعلم من أول الكلام أنه هو المخاطب ثانياً أيضاً ومنها أن يعلم أن كل واحد من الكلامين مقصود ، وليس الثانى تأكيداً للأول كما تقول يازيد لاتنطق ولا تتكلم إلا بالحق فإنه لا يحسن أن يقال يازيد لا تنطق يازيد لا تتكلم كما يحسن عند اختـــلاف المطلوبين ، وقوله تعالى (لا ترفعوا أصواتكم) يحتمل وجوها : (أحدها) أن يكون المراد حقيقته ، وذلك لأن رفع الصوت دليل قلة الاحتشام وترك الاحترام ، وهذا من مسألة حكمية وهى أن الصوت بالمخارج ومن خشى قلبه ارتجف وتضعف حركته الدافعة فلا يخرج منه الصوت بقوة ، ومن لم يخف ثبت قلبه وقوى ، فرفع الهواء دليل عدم الخشية (ثانيها) أن يكون المراد المنع من كثر الكلام لأن من يكثر الكلام يكون متكلما عن سكوت الغير فيكون فى وقت سكوت الغير لصوته ارتفاع وإن كان خائفاً إذا نظرت إلى حال غيره فلا ينبغى أن يكون لأحد عند النبى ﷺ كلام كثير بالنسبة إلى كلام النبى ﷺ

لأن النبي عليه الصلاة والسلام مبلغ ، فالمتكلم عنده إن أراد الإخبار لا يجوز ، وإن استخبر النبي عليه السلام عما وجب عليه البيان ، فهو لا يسكت عما يسأل وإن لم يسأل ، وربما يكون فى السؤال حقيدة برد جواب لا يسهل على المكلف الإتيان به فيبقى فى ورطة العقاب (ثالثها) أن يكون المراد رفع الكلام بالتعظيم أى لا تجعلوا لكلامكم ارتفاعاً على كلام النبي ﷺ فى الخطاب كما يقول القائل لغيره أمرتك مراراً بكذا عند مايقول له صاحبه مرنى بأمر مثله ، فيكون أحد الكلامين أعلى وأرفع من الآخر ، والأول أصح والكل يدخل فى حكم المراد ، لأن المنع من رفع الصوت لايكون إلا للاحترام وإظهار الاحتشام ، ومن بلغ احترامه إلى حيث تنخفض الأصوات عنده من هيبته وعلو مرتبته لايكثر عنده الكلام ، ولا يرجع المتكلم معه فى الخطاب ، وقوله تعالى (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) فيه فوائد :

﴿ إحداها ﴾ أن بالأول حصل المنع من أن يجعل الإنسان كلامه أوصوته أعلى من كلام النبي ﷺ وصوته ، ولقائل أن يقول فما منعت من المساواة فقال تعالى (ولا تجهروا له) كما تجهرون لأقرانكم ونظرائكم بل اجعلوا كلمته عليا .

﴿ والثانية ﴾ أن هذا أفاد أنه لاينبغى أن يتكلم المؤمن عند النبي عليه السلام كما يتكلم العبد عند سيده ، لأن العبد داخل تحت قوله (كجهر بعضكم لبعض) لأنه للعموم فلاينبغى أن يجهر المؤمن للنبي صلى الله عليه وسلم كما يجهر العبد للسيد وإلا لكان قد جهر له كما يجهر بعضكم لبعض ، لا يقال المفهوم من هذا النمط أن لاتجعلوه كما يتفق بينكم ، بل تميزوه بأن لاتجهروا عنده أبداً وفيما بينكم لاتحافظون على الإحترام ، لأنا نقول ماذكرنا أقرب إلى الحقيقة ، وفيه ما ذكرتم من المعنى وزيادة ، ويؤيد ماذكرنا قوله تعالى (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) والسيد ليس أولى عند عبده من نفسه حتى لوكانا فى مخمصة ووجد العبد مالو لم يأكله لمات لايجب عليه بذله لسيده ، ويجب البذل للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولو علم العبد أن بموته ينجو سيده لايلزمه أن يلقى نفسه فى التهلكة لإنجاء سيده ، ويجب لإنجاء النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد ذكرنا حقيقته عند تفسير الآية ، وأن الحكمة تقتضى ذلك كما أن العضوا الرئيس أولى بالرعاية من غيره ، لأن عند خلل القلب مثلا لا بقى لليدين والرجلين استقامة فلو حفظ الإنسان نفسه وترك النبي عليه الصلاة والسلام لهلك هو أيضاً بخلاف العبد والسيد .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ أن قوله تعالى (لاترفعوا أصواتكم) لما كان من جنس (لا تجهروا) لم يستأنف النداء ، ولما كان هو يخالف التقدم لكون أحدهما فعلا والآخر قولا استأنف . كما فى قول لقمان (يابنى لاتشرك) وقوله (يا بنى أقم الصلاة) لكون الأول من عمل القلب والثانى من عمل الجوارح ، وقوله (يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) من غير استئناف النداء لأن الكل من عمل الجوارح .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ

واعلم أنا إن قلنا المراد من قوله (لاترفعوا أصواتكم) أى لاتكثروا الكلام فقوله (ولا تجهروا) يكون مجازاً عن الإتيان بالكلام عن النبى صلى الله عليه وسلم بقدر مايؤتى به عند غيره ، أى لاتكثروا وقللوا غاية التقليل ، وكذلك إن قلنا المراد بالرفع الخطاب فالمراد بقوله (لاتجهروا) أى لاتخاطبوه كما تخاطبون غيره وقوله تعالى (أن تحبط أعمالكم) فيه وجهان مشهوران : (أحدهما) لئلا تحبط (والثانى) كراهة أن تحبط ، وقد ذكرنا ذلك فى قوله تعالى (يبين الله لكم أن تضلوا) وأمثاله ، ويحتمل ههنا وجهاً آخر وهو أن يقال معناه : واتقوا الله واجتنبوا أن تحبط أعمالكم ، والدليل على هذا أن الإضمار لما لم يكن منه بد فما دل عليه الكلام الذى هو فيه أولى أن يضمر والأمر بالتقوى قد سبق فى قوله تعالى (واتقوا) وأما المعنى فنقول قوله (أن تحبط) إشارة إلى أنكم إن رفعتم أصواتكم وتقدمتكم تتمكن منكم هذه الرذائل وتؤدى إلى الاستحقار ، وإنه يفضى إلى الانفراد والارتداد المحبط وقوله تعالى (وأنتم لاتشعرون) إشارة إلى أن الردة تتمكن من النفس بحيث لايشعر الإنسان ، فإن من ارتكب ذنباً لم يرتكبه فى عمره تراه نادماً غاية الندامة خائفاً غاية الخوف فإذا ارتكبه مراراً يقل الخوف والندامة ويصير عادة من حيث لايعلم أنه لايتمكن ، وهذا كان للتمكن فى المرة الأولى أو الثانية أو الثالثة أو غيرها ، وهذا كما أن من بلغه خبر فإنه لا يقطع بقول المخبر فى المرة الأولى ، فإذا تكرر عليه ذلك وبلغ حد التواتر يحصل له اليقين ويتمكن الاعتقاد ، ولا يدرى متى كان ذلك ، وعند أى خبر حصل هذا اليقين ، فقوله (وأنتم لا تشعرون) تأكيد للمنع أى لاتقولوا بأن المرة الواحدة تعفى ولا توجب رده ، لأن الأمر غير معلوم فاحسموا الباب ، وفيه بيان آخر وهو أن المكلف إذا لم يحترم النبى ﷺ ويجعل نفسه مثله فيما يأتى به بناء على أمره يكون كما يأتى به بناء على أمر نفسه ، لكن ما تأمر به النفس لايوجب الثواب وهو محبط حابط ، كذلك ما يأتى به بغير أمر النبى ﷺ حينئذ حابط محبط والله أعلم .

واعلم أن الله تعالى لما أمر المؤمنين باحترام النبى ﷺ وإكرامه وتقديمه على أنفسهم وعلى كل من خلقه الله تعالى أمر نبيه عليه السلام بالرأفة والرحمة ، وأن يكون ارأف بهم من الوالد ، كما قال (واخفض جناحك للمؤمنين) وقال تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) وقال (ولا تكن كصاحب الحوت) إلى غير ذلك لئلا تكون خدمته خدمة الجبارين الذين يستعبدون الأحرار بالقهر فيكون انقيادهم لوجه الله .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله

قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ

قلوبهم للتقوى ﴾ .

وفيه الحث على ما أرشدهم إليه من وجهين (أحدهما) ظاهر لكل أحد وذلك فى قوله تعالى (امتحن الله قلوبهم للتقوى) وبيانه هو أن من يقدم نفسه ويرفع صوته يريد إكرام نفسه واحترام شخصه ، فقال تعالى ترك هذا الإحترام يحصل به حقيقة الاحترام ، وبالإعراض عن هذا الإكرام يكمل الإكرام ، لأن به تتبين تقواكم ، و (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ومن القبيح أن يدخل الإنسان حماماً فيتخير لنفسه فيه منصباً ويفوت بسببه منصبة عند السلطان ، ويعظم نفسه فى الخلاء والمستراح وبسببه يهون فى الجمع العظيم ، وقوله تعالى (امتحن الله قلوبهم للتقوى) فيه وجوه : (أحدها) امتحنها ليعلم منها التقوى فإن من يعظم واحداً من أبناء جنسه لكونه رسول مرسل يكون تعظيمه للمرسل أعظم وخوفه منه أقوى ، وهذا كما فى قوله تعالى (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) أى تعظيم أوامر الله من تقوى الله فكذلك تعظيم رسول الله من تقواه (الثانى) امتحن أى علم وعرف ، لأن الامتحان تعرف الشىء فيجوز استعماله فى معناه ، وعلى هذا فاللام تتعلق بمحذوف تقديره عرف الله قلوبهم صالحة ، أى كائنة للتقوى ، كما يقول القائل أنت لكذا أى صالح أو كائن (الثالث) امتحن : أى أخلص يقال : للذهب ممتحن ، أى مخلص فى النار وهذه الوجوه كلها مذكورة ويحتمل أن يقال معناه امتحنها للتقوى اللام للتعليل ، وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تعليلا يجرى مجرى بيان السبب المتقدم ، كما يقول القائل : جئتك لإكرامك لى أمس ، أى صار ذلك الإكرام السابق سبب المجىء (وثانيها) أن يكون تعليلا يجرى مجرى بيان غاية المقصود المتوقع الذى يكون لاحقاً لا سابقاً كما يقول القائل جئتك لأداء الواجب ، فإن قلنا بالأول فتحقيقه هو أن الله علم ما فى قلوبهم من تقواه ، وامتحن قلوبهم للتقوى التى كانت فيها ، ولولا أن قلوبهم كانت مملوءة من التقوى لما أمرهم بتعظيم رسوله وتقديم نبيه على أنفسهم ، بل كان يقول لهم آمنوا برسولى ولا تؤذوه ولا تكذبوه ، فإن الكافر أول ما يؤمن يؤمن بالاعتراف بكون النبى ﷺ صادقاً ، وبين من قيل له لا تستهزىء برسول الله ولا تكذبه ولا تؤذه ، وبين من قيل له لا ترفع صوتك عنده ولا تجعل لنفسك وزناً بين يديه ولا تجهر بكلامك الصادق بين يديه ، بون عظيم .

واعلم أن بقدر تقديمك للنبى عليه الصلاة والسلام على نفسك فى الدنيا يكون تقديم النبى عليه الصلاة والسلام إياك فى العقبى ، فإنه لن يدخل أحد الجنة مالم يدخل الله أمته المتقين الجنة ، فان قلنا بالثانى فتحقيقه هو أن الله تعالى امتحن قلوبهم بمعرفته ومعرفة رسوله بالتقوى ، أى ليرزقهم الله التقوى التى هى حق التقاة ، وهى التى لا تخشى مع خشية الله أحداً فتراه آمناً من كل مخيف لا يخاف

لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

فى الدنيا بخساً ، ولا يخاف فى الآخرة نحساً ، والناظر العاقل إذا علم أن بالخوف من السلطان يأمن جور الغلمان ، وبتجنب الأراذل ينجو من بأس السلطان فيجعل خوف السلطان جنة . فكذلك العالم لو أمعن النظر لعلم أن بخشية الله النجاة فى الدارين وبالخوف من غيره الهلاك فيهما فيجعل خشية الله جنته التى يحس بها نفسه فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ .

وقد ذكرنا أن المغفرة إزالة السيئات التى هى فى الدنيا لازمة للنفس والأجر العظيم إشارة إلى الحياة التى هى بعد مفارقة الدنيا عن النفس ، فيزيل الله عنه القبائح البهيمية ويلبسه المحاسن الملكية .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ .

بياناً لحال من كان فى مقابلة من تقدم فان الأول غض صوته والآخر رفعه ، وفيه إشارة إلى أنه ترك لأدب الحضور بين يديه وعرض الحاجة عليه ، وأما قول القائل للملك يا فلان من سوء الأدب ، فإن قلت كل أحد يقول يا الله مع أن الله أكبر ، نقول النداء على قسمين (أحدهما) لتنبيه المنادى (وثانيهما) لإظهار حاجة المنادى (مثال الأول) قول القائل لرفيقه أو غلامه : يا فلان (ومثال الثانى) قول القائل فى الندبة : يا أمير المؤمناه أو يا زيداه ، ولقائل أن يقول : إن كان زيد بالمشرق لا تنبيه فإنه محال ، فكيف يناديه وهو ميت ؟ فنقول قولنا يا الله لإظهار حاجة الأنفس لا لتنبيه المنادى ، وإنما كان فى النداء الأمران جميعاً لأن المنادى لا ينادى إلا لحاجة فى نفسه يعرضها ولا ينادى فى الأكثر إلا معرضاً أو غافلا ، فحصل فى النداء الأمران ونداؤهم كان للتنبيه وهو سوء أدب وأما قول أحدنا للكبير ياسيدى ويامولاى فهو جار مجرى الوصف والإخبار (الثانى) النداء من وراء الحجرات فان من ينادى غيره ولا حائل بينهما لا يكلفه المشى والمجىء بل يجيبه من مكانه ويكلمه ولا يطلب المنادى إلا الالتفات المنادى إليه ومن ينادى غيره من وراء الحائل فكأنه يريد منه حضوره كمن ينادى صاحب البستان من خارج البستان (الثالث) قوله (الحجرات) إشارة إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى خلوته التى لا يحسن فى الأدب إتيان المحتاج إليه فى حاجته فى ذلك الوقت ، بل الأحسن التأخير وإن كان فى ورطة الحاجة ، وقوله تعالى (أكثرهم لا يعقلون) فيه بيان المعايب بقدر ما فى سوء أدبهم من القبائح ، وذلك لأن الكلام من خواص الإنسان ، وهو أعلى مرتبة من غيره ، وليس لمن دونه كلام ، لكن النداء فى المعنى كالتنبيه ، وقد يحصل بصوت ، يضرب شىء على شىء

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ

وفى الحيوانات العجم مايظهر لكل أحد كالنداء ، فإن الشاة تصيح وتطلب ولدها وكذلك غيرها من الحيوانات ، والسخلة كذلك فكأن النداء حصل فى المعنى لغير الآدمى ، فقال الله تعالى فى حقهم (أكثرهم لا يعقلون) يعنى النداء الصادر منهم لما لم يكن مقروناً بحسن الأدب كانوا فيه خارجين عن درجة من يعقل وكان نداؤهم كصياح صدر من بعض الحيوان ، وقوله تعالى (أكثرهم) فيه وجهان (أحدهما) أن العرب تذكر الأكثر وتريد الكل ، وإنما تأتى بالأكثر احترازاً عن الكذب واحتياطاً فى الكلام ، لأن الكذب مما يحبط به عمل الإنسان فى بعض الأشياء فيقول الأكثر وفى اعتقاده الكل ، ثم إن الله تعالى مع إحاطة علمه بالأمور أتى بما يناسب كلامهم ، وفيه إشارة إلى لطيفة وهى أن الله تعالى يقول : أنا مع إحاطة علمى بكل شيء جريت على عادتكم استحساناً لتلك العادة وهى الاحتراز عن الكذب فلا تتركوها ، واجعلوا اختيارى ذلك فى كلامى دليلا قاطعاً على رضائى بذلك (وثانيهما) أن يكون المراد أنهم فى أكثر أحوالهم لا يعقلون ، وتحقيق هذا هو أن الإنسان إذا اعتبر مع وصف ثم اعتبر مع وصف آخر يكون المجموع الأول غير المجموع الثانى ، مثاله الإنسان يكون جاهلا وفقيراً فيصير عالماً وغنياً فيقال فى العرف زيد ليس هو الذى رأيته من قبل بل الآن على أحسن حال ، فيجعله كأنه ليس ذلك إشارة إلى ما ذكرنا . إذا علم هذا فهم ، فى بعض الأحوال إذا اعتبرتهم مع تلك الحالة ، مغايرون لأنفسهم إذا اعتبرتهم مع غيرها فقال تعالى (أكثرهم) إشارة إلى ماذكرناه ، وفيه وجه ثالث وهو أن يقال لعل منهم من رجع عن تلك الأهواء ، ومنهم من استمر على تلك العادة الرديئة فقال أكثرهم إخراجاً لمن ندم منهم عنهم .

قوله تعالى : ﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ﴾ إشارة إلى حسن الأدب الذى على خلاف ما أتوا به من سوء الأدب فإنهم لو صبروا لما احتاجوا إلى النداء ، وإذا كنت تخرج إليهم فلا يصح إتيانهم فى وقت اختلائك بنفسك أو بأهلك أو بربك ، فإن للنفس حقاً وللأهل حقاً ، وقوله تعالى (لكان خيراً لهم) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد أن ذلك هو الحسن والخير كقوله تعالى (خير مستقراً) ، (وثانيهما) أن يكون المراد هو أن بالنداء وعدم الصبر يستفيدون تنجيز الشغل ودفع الحاجة فى الحال وهو مطلوب ، ولكن المحافظة على النبى صلى الله عليه وسلم وتعظيمه خير من ذلك ، لأنها تدفع الحاجة الأصلية التى فى الآخرة وحاجات الدنيافضلية ، والمرفوع الذى يقتضيه كلمة (كان) إما الصبر وتقديره لوأنهم صبروا لكان الصبر خيراً ، أو الخروج من غير نداء وتقديره لوصبروا حتى تخرج إليهم لكان خروجك من غير نداء خيراً لهم ، وذلك مناسب للحكاية ، لأنهم طلبوا خروجه عليه الصلاة والسلام ليأخذوا ذراريهم ، فخرج

وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾

وأعتق نصفهم وأخذوا نصفهم ، ولو صبروا لكان يعتق كلهم والأول أصح .

قوله تعالى : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ تحقيقاً لأمرين (أحدهما) لسوء صنيعهم في التعجيل ، فإن الإنسان إذا أتى بقبيح ولا يعاقبه الملك أو السيد يقال ما أحلم سيده لا لبيان حلمه ، بل لبيان عظيم جناية العبد (وثانيهما) لحسن الصبر يعني بسبب إتيانهم بما هو خير ، يغفر الله لهم سيئاتهم ويجعل هذه الحسنة كفارة لكثير من السيئات ، كما يقال الآبق إذا رجع إلى باب سيده أحسنت في رجوعك وسيدك رحيم ، أي لا يعاقبك على ما تقدم من ذنبك . بسبب ما أتيت به من الحسنة ويمكن أن يقال بأن ذلك حث للنبي صلى الله عليه وسلم على الصفح ، وقوله تعالى (أكثرهم لا يعقلون) كالعذر لهم ، وقد ذكرنا أن الله تعالى ذكر في بعض المواضع الغفران قبل الرحمة ، كما في هذه السورة وذكر الرحمة قبل المغفرة في سورة سبأ في قوله (وهو الرحيم الغفور) حيث قال (غفور رحيم) أي يغفر سيئاته ثم ينظر إليه فيراه عارياً محتاجاً فيرحمه ويلبسه لباس الكرامة وقد يراه مغموراً في السيئات فيغفر سيئاته ، ثم يرحمه بعد المغفرة ، فتارة تقع الإشارة إلى الرحمة التي بعد المغفرة فيقدم المغفرة ، وتارة تقع الرحمة قبل المغفرة فيؤخرها ، ولما كانت الرحمة واسعة توجد قبل المغفرة وبعدها ذكرها قبلها وبعدها .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ .

هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، وهي إما مع الله تعالى أو مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو مع غيرهما من أبناء الجنس ، وهم على صنفين ، لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجاً عنها وهو الفاسق . والداخل في طائفتهم السالك لطريقتهم إما أن يكون حاضراً عندهم أو غائباً عنهم فهذه خمسة أقسام (أحدها) يتعلق بجانب الله و (ثانيها) بجانب الرسول و (ثالثها) بجانب الفساق و (رابعها) بالمؤمن الحاضر و (خامسها) بالمؤمن الغائب فذكرهم الله تعالى في هذه السورة خمس مرات (يا أيها الذين آمنوا) وأرشدهم في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة فقال أولا (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله ، وقال ثانياً (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) لبيان وجوب احترام النبي ﷺ وقال ثالثاً (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ) لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم ، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة

بينكم وبين ذلك عند تفسير قوله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) وقال رابعاً (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم) وقال (ولا تنابزوا) لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين فى حضورهم والازدراء بحالهم ومنصبهم ، وقال خامساً (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم) وقال (ولا تجسسوا) وقال (ولا يغتب بعضكم بعضاً) لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر مالو كان حاضراً لتأذى ، وهو فى غاية الحسن من الترتيب ، فإن قيل : لم لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة الابتداء بالله ورسوله ، ثم بالمؤمن الحاضر ، ثم بالمؤمن الغائب ، ثم بالفاسق ؟ نقول : قدم الله ماهو الأهم على مادونه ، فذكر جانب الله ، ثم ذكر جانب الرسول ، ثم ذكر ما يفضى إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق والاعتماد عليه ، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفاراً للصدور ، وأما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذى المؤمن إلى حد يفضى إلى القتل ، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبأ الفاسق آية الاقتتال ، فقال (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى سبب نزول هذه الآية ، هو أن النبى ﷺ بعث الوليد بن عقبة ، وهو أخو عثمان لأمه إلى بنى المصطلق ولياً ومصدقاً فالتقوه ، فظنهم مقاتلين ، فرجع إلى النبى ﷺ وقال : إنهم امتنعوا ومنعوا ، فهم الرسول ﷺ بالإيقاع بهم ، فنزلت هذه الآية ، وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يفعلوا من ذلك شيئاً ، وهذا جيد إن قالوا بأن الآية نزلت فى ذلك الوقت ، وأما إن قالوا بأنها نزلت لذلك مقتصراً عليه ومتعدياً إلى غيره فلا ، بل نقول هو نزل عاماً لبيان التثبت ، وترك الاعتماد على قول الفاسق ، ويدل على ضعف قول من يقول : إنها نزلت لكذا ، أن الله تعالى لم يقل إنى أنزلتها لكذا ، والنبى صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه أنه بين أن الآية وردت لبيان ذلك فحسب ، غاية مافى الباب أنها نزلت فى ذلك الوقت ، وهو مثل التاريخ لنزول الآية ، ونحن نصدق ذلك ، ويتأكد ماذكرنا أن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد سىء بعيد ، لأنه توهم وظن فأخطأ ، والمخطىء لا يسمى فاسقاً ، وكيف والفاسق فى أكثر المواضع المراد به من خرج عن ربقة الإيمان لقوله تعالى (إن الله لايهدى القوم الفاسقين) وقوله تعالى (ففسق عن أمر ربه) وقوله تعالى (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) إلى غير ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (إن جاءكم فاسق بنبإ) إشارة إلى لطيفة ، وهى أن المؤمن كان موصوفاً بأنه شديد على الكافر غليظ عليه ، فلا يتمكن الفاسق من أن يخبره بنبأ ، فإن تمكن منه يكون نادراً ، فقال (إن جاءكم) بحرف الشرط الذى لايذكر إلا مع التوقع ، إذ لا يحسن أن يقال : إن احمر البسر ، وإن طلعت الشمس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ النكرة فى معرض الشرط تعم إذا كانت فى جانب الثبوت ، كما أنها تعم فى

الإخبار إذا كانت فى جانب النفى ، وتخص فى معرض الشرط إذا كانت فى جانب النفى ، كما تخص فى الإخبار إذا كانت فى جانب الثبوت ، فلنذكر بيانه بالمثال ودليله ، أما بيانه بالمثال فنقول : إذا قال قائل لعبده : إن كامت رجلا فأنت حر ، فيكون كأنه قال : لا أكلم رجلا حتى يعتق بتكلم كل رجل ، وإذا قال : إن لم أكلم اليوم رجلا فأنت حر ، يكون كأنه قال : لا أكلم اليوم رجلا حتى لايعتق العبد بترك كلام كل رجل ، كما لا يظهر الحلف فى كلامه بكلام كل رجل إذا ترك الكلام مع رجل واحد ، وأما الدليل فلأن النظر أولا إلى جانب الإثبات ، ألا ترى أنه من غير حرف لما أن الوضع للاثبات والنفى بحرف ، فقول القائل : زيد قائم ، وضع أولا ولم يحتج إلى أن يقال مع ذلك حرف يدل على ثبوت القيام لزيد ، وفى جانب النفى احتجنا إلى أن نقول : زيد ليس بقائم ، ولو كان الوضع والتركيب أولا للنفى ، لما احتجنا إلى الحرف الزائد اقتصاراً أو اختصاراً ، وإذا كان كذلك فقول القائل : رأيت رجلا ، يكفى فيه ما يصحح القول وهو رؤية واحد ، فإذا قلت : مارأيت رجلا ، وهو وضع لمقابلة قوله : رأيت رجلا ، وركب لتلك المقابلة ، والمتقابلان ينبغى أن لا يصدقا ، فقول القائل : ما رأيت رجلا ، لو كفى فيه انتفاء الرؤية عن غير واحد لصح قولنا : رأيت رجلا ، وما رأيت رجلا ، فلا يكونان متقابلين ، فيلزمنا من الاصطلاح الأول الاصطلاح الثانى ، ولزم منه العموم فى جانب النفى ، إذا علم هذا فنقول : الشرطية وضعت أولا ، ثم ركبت بعد الجزمية بدليل زيادة الحرف وهو فى مقابلة الجزمية ، وكان قول القائل : إذ لم تكن أنت حراً ماكلمت رجلا يرجع إلى معنى النفى ، وكما علم عموم القول فى الفاسق علم عمومه فى النبأ فمعناه : أى فاسق جاءكم بأى نبإ ، فالتثبت فيه واجب .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ متمسك أصحابنا فى أن خبر الواحد حجة ، وشهادة الفاسق لاتقبل ، أما فى المسألة الأولى فقالوا علل الأمر بالتوقف بكونه فاسقاً ، ولو كان خبر الواحد العدل لا يقبل ، لما كان للترتيب على الفاسق فائدة ، وهو من باب التمسك بالمفهوم . وأما فى الثانية فلوجهين : (أحدهما) أمر بالتبين ، فلو قبل قوله لما كان الحاكم مأموراً بالتبين ، فلم يكن قول الفاسق مقبولا ، ثم إن الله تعالى أمر بالتبين فى الخبر والنبأ ، وباب الشهادة أضيق من باب الخبر (والثانى) هو أنه تعالى قال (أن تصيبو قوماً بجهالة) والجهل فوق الخطأ ، لأن المجتهد إذا أخطأ لا يسمى جاهلا ، والذى يبنى الحكم على قول الفاسق : إن لم يصب جهل فلا يكون البناء على قوله جائزاً .

﴿ المسألة الخامسة (أن تصيبوا) ذكرنا فيها وجهين (أحدهما) مذهب الكوفيين ، وهو أن المراد لئلا تصيبوا ، وثانيها مذهب البصريين ، وهو أن المراد كراهة أن تصيبوا ، ويحتمل أن يقال : المراد فتبينوا واتقوا ، وقوله تعالى (أن تصيبوا قوماً) يبين ما ذكرنا أن يقول الفاسق : تظهر الفتن بين أقوام ، ولا كذلك بالألفاظ المؤذية فى الوجه ، والغيبة الصادرة من المؤمنين ، لأن المؤمن يمنعه دينه من الإفحاش والمبالغة فى الإيحاش ، وقوله (بجهالة) فى تقدير حال ، أى أن

تصيبوهم جاهلين وفيـــه لطيفة ، وهى أن الإصابة تستعمل فى السيئة والحسنة ، كما فى قوله تعـالى (ما أصابك من حسنة فمن الله) لـكن الأكثر أنها تستعمل فيما يسوء ، لـكن الظن السوء يذكر معه ، كما فى قوله تعالى (وإن تصبهم سيئة) ثم حقق ذلك بقوله (فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) بياناً لأن الجاهل لابد من أن يكون على فعله نادماً ، وقوله (فتصبحوا) معناه تصيروا ، قال النحاة : أصبح يستعمل على ثلاثة أوجه (أحدها) بمعنى دخول الرجل فى الصباح ، كما يقول القائل : أصبحنا نقضى عليـه (وثانيهـا) بمعنى كان الأمر وقت الصبـاح كذا وكذا ، كما يقول : أصبح اليوم مريضنا خيراً مما كان ، غير أنه تغير ضحوة النهار ، ويريد كونه فى الصبح على حاله ، كأنه يقول : كان المريض وقت الصبح خيراً وتغير ضحوة النهار (وثالثها) بمعنى صار يقول القائل أصبح زيد غنياً ويريد به صار من غير إرادة وقت دون وقت ، والمراد ههنا هو المعنى الثالث وكذلك أمسى وأضحى ، ولـكن لهذا تحقيق وهو أن نقول لابد فى اختـلاف الألفـاظ من اختلاف المعـانى واختـلاف الفوائد ، فنقول الصيرورة قد تـكون من ابتداء أمر وتدوم ، وقد تـكون فى آخر بمعنى آل الأمر إليه ، وقد تـكون متوسطة .

﴿ مثال الأول ﴾ قول القائل صار الطفل فاهماً أى أخذ فيه وهو فى الزيادة .

﴿ مثال الثانى ﴾ قول القائل صار الحق بيناً واجباً أى انتهى حده وأخذ حقه .

﴿ مثال الثالث ﴾ قول القائل صار زيد عالماً وقوياً إذا لم يرد أخذه فيه ولا بلوغه نهايته بل كونه متلبساً به متصفاً به ، إذا علمت هـذا فأصل استعمال أصبح فيما يصير الشيء آخذاً فى وصف ومبتدئاً فى أمر ، وأصل أمسى فيما يصير الشيء بالغاً فى الوصف نهايته ، وأصل أضحى التوسط لا يقال أهل الاستعمال لا يفرقون بين الأمور ويستعملون الألفاظ الثلاثة بمعنى واحد ، نقول إذا تقاربت المعانى جاز الاستعمال ، وجواز الاستعمال لا ينافى الأصل ، وكثير من الألفاظ أصله مضى واستعمل استعمالا شائعاً فيما لا يشاركه ، إذا علم هذا فنقول قوله تعالى (فتصبحوا) أى فتصيروا آخذين فى الندم متلبسين به ثم تستديمونه وكذلك فى قوله تعـالى (فأصبحتم بنعمته إخواناً) أى أخذتم فى الأخوة وأنتم فيها زائدون ومستمرون ، وفى الجملة اختار فى القرآن هذه اللفظة لأن الأمر المقرون به هذه اللفظة ، إما فى الثواب أو فى العقاب وكلاهما فى الزيادة ، ولا نهاية للأمور الإلهية وقوله تعالى (نادمين) الندم هم دائم والنون والدال والميم فى تقاليبها لا تنفك عن معنى الدوام ، كما فى قول القائل : أدمن فى الشرب ومدمن أى أقام ، ومنه المدينة . وقوله تعالى (فتصبحوا على مافعلتم نادمين) فيه فائدتان :

﴿ إحداهما ﴾ تقرير التحذير وتأكيده ، ووجهه هو أنه تعالى لمـا قال (أن تصيبوا قوماً بجهالة) قال بعده وليس ذلك مما لا يلتفت إليه ، ولا يجوز للعاقل أن يقول : هب أنى أصبت قوماً فماذا على ؟ بل عليـكم منه الهم الدائم والحزن المقيم ، ومثل هذا الشيء واجب الاحتراز منه .

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ

﴿ والثانية ﴾ مدح المؤمنين ، أى لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها بل تصبحون نادمين عليها .

قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ .

ولنذكر فى تفسير هذه الآية ما قيل وما يجوز أن يقال ، أما ما قيل فلنختر أحسنه وهو ما اختاره الزمخشرى فإنه بحث فى تفسير هذه الآية بحثاً طويلا ، فقال قوله تعالى (لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) ليس كلاماً مستأنفاً لأدائه إلى تنافر النظم ، إذ لا تبقى مناسبة بين قوله (واعلموا) وبين قوله (لو يطيعكم) ثم وجه التعلق هو أن قوله (لو يطيعكم) فى تقدير حال من الضمير المرفوع فى قوله (فيكم) كان التقدير كائن فيكم ، أو موجود فيكم ، على حال تريدون أن يطيعكم أو يفعل باستصوابكم ، ولا ينبغى أن يكون فى تلك الحال ، لأنه لو فعل ذلك (لعنتم) أو لوقعتم فى شدة أو أولمتم به .

قوله تعالى : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان ﴾ خطاباً مع بعض من المؤمنين غير المخاطبين بقوله (لو يطيعكم) قال الزمخشرى اكتفى بالتغاير فى الصفة واختصر ولم يقل حبب إلى بعضكم الإيمان ، وقال أيضاً بأن قوله تعالى (لو يطيعكم) دون أطاعكم يدل على أنهم كانوا يريدون استمرار تلك الحالة ، ودوام النبى صلى الله عليه وسلم على العمل باستصوابهم ، ولكن يكون ما بعدها على خلاف ما قبلها ، وههنا كذلك وإن لم يكن تحصل المخالفه بتصريح اللفظ لأن اختلاف المخاطبين فى الوصف يدلنا على ذلك لأن المخاطبين أولا بقوله (لو يطيعكم) هم الذين أرادوا أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم يعمل بمرادهم ، والمخاطبين بقوله (حبب إليكم الإيمان) هم الذين أرادوا عملهم بمراد النبى صلى الله عليه وسلم ، هذا ما قاله الزمخشرى واختاره وهو حسن ، والذى يجوز أن يقال وكأنه هو الأقوى أن الله تعالى لما قال (إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا) أى فتثبتوا واكشفوا قال بعده (واعلموا أن فيكم رسول الله) أى الكشف سهل عليكم بالرجوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فإنه فيكم مبين مرشد ، وهذا كما يقول القائل عند اختلاف تلاميذ شيخ فى مسألة : هذا الشيخ قاعد لا يريد بيان قعوده ، وإنما يريد أمرهم بالمراجعة إليه ، وذلك لأن المراد منه أنه

لا يطيعكم فى كثير من الأمر ، وذلك لأن الشيخ فيما ذكرنا من المثال لو كان يعتمد على قول التلاميذ لاتطمئن قلوبهم بالرجوع إليه ، أما إذا كان لايذكر إلا من النقل الصحيح ، ويقرره بالدليل القوى براجعة كل أحد ، فكذلك ههنا قال استرشدوه فإنه يعلم ولا يطيع أحداً فلا يوجد فيه حيف ولا يروج عليه زيف ، والذى يدل على أن المراد من قوله (لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) بيان أنه لا يطيعكم هو أن الجملة الشرطية فى كثير من المواضع ترد لبيان امتناع الشرط لامتناع الجزاء كما فى قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) فانه لبيان أنه ليس فيهما آلهة وأنه ليس من عند غير الله .

قوله تعالى : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ﴾ إشارة إلى جواب سؤال يرد على قوله (فتبينوا) وهو أن يقع لواحد أن يقول إنه لا حاجة إلى المراجعة وعقولنا كافية بها أدركنا الإيمان وتركنا العصيان فكذلك نجتهد فى أمورنا ، فقال ليس إدراك الإيمان بالاجتهاد ، بل الله بين البرهان وزين الإيمان حتى حصل اليقين ، وبعد حصول اليقين لا يجوز التوقف والله إنما أمركم بالتوقف عند تقليد قول الفاسق ، وما أمركم بالعناد بعد ظهور البرهان ، فكأنه تعالى قال توقفوا فيما يكون مشكوكا فيه لكن الإيمان حببه اليكم بالبرهان فلا تتوقفوا فى قبوله ، وعلى قولنا المخاطب بقوله (حبب اليكم) هو المخاطب بقوله (لو يطيعكم) إذا علمت معنى الآية جملة ، فاسمعه مفصلا ولنفصله فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لو قال قائل إذا كان المراد بقوله (واعلموا أن فيكم رسول الله) الرجوع إليه والاعتماد على قوله ، فلم لم يقل بصريح اللفظ (فتبينوا) وراجعوا النبى صلى الله عليه وسلم ؟ وما الفائدة فى العدول إلى هذا المجاز ؟ نقول الفائدة زيادة التأكيد وذلك لأن قول القائل فيما ذكرنا من المثال هذا الشيخ قاعد آكد فى وجوب المراجعة إليه من قوله راجعوا شيخكم ، وذلك لأن القائل يجعل وجوب المراجعه إليه متفقاً عليه ، ويجعل سبب عدم الرجوع عدم علمهم بقعوده ، فكأنه يقول : إنكم لاتشكون فى أن الكاشف هو الشيخ ، وأن الواجب مراجعته فإن كنتم لاتعلمون قعوده فهو قاعد فيجعل حسن المراجعة أظهر من أمر القعود كأنه يقول خفى عليكم قعوده فتركتم مراجعته ، ولا يخفى عليكم حسن مراجعته ، فيجعل حسن المراجعته أظهر من الأمر الحسى ، بخلاف مالو قال راجعوه ، لأنه حينئذ يكون قائلا بأنكم ما علمتم أن مراجعته هو الطريق ، وبين الكلامين بون بعيد ، فكذلك قوله تعالى (واعلموا أن فيكم رسول الله) يعنى لا يخفى عليكم وجوب مراجعته ، فإن كان خفى عليكم كونه فيكم ، فاعلموا أنه فيكم فيجعل حسن المراجعة أظهر من كونه فيهم حيث ترك بيانه وأخذ فى بيان كونه فيهم ، وهذا من المعانى العزيزة التى توجد فى المجازات ولا توجد فى الصريح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان المراد من قوله (لو يطيعكم) بيان كونه غير مطيع لأحد بل هو

متبع للوحى فلم لم يصرح به ؟ نقول بيان نفى الشىء مع بيان دليل النفى أتم من بيانه من غير دليل ، والجملة الشرطية بيان النفى مع بيان دليله فإن قوله (ليس فيهما آلهة) لو قال قائل : لم قلت إنه ليس فيهما آلهة يجب أن يذكر الدليل فقال (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فكذلك ههنا لو قال لا يطيعكم ، وقال قائل لم لا يطيع لوجب أن يقال لو أطاعكم لأطاعكم لأجل مصلحتكم ، لكن لا مصلحة لكم فيه لأنكم تعنتون وتأثمون وهو يشق عليه عنتكم ، كما قال تعالى (عزيز عليه ماعنتم) فإن طاعتكم لا تفيده شيئاً فلا يطيعكم ، فهذا نفى الطاعة بالدليل وبين نفى الشىء بدليل ونفيه بغير دليل فرق عظيم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال فى كثير من الأمر ليعلم أنه قد يوافقهم ويفعل بمقتضى مصلحتهم تحقيقاً لفائدة قوله تعالى (وشاورهم فى الأمر) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إذا كان المراد بقوله تعالى حبب إليكم الإيمان ، فلا تتوقفوا فلم لم يصرح به ؟ قلنا لما بيناه من الإشارة إلى ظهور الأمر يعنى أنتم تعلمون أن اليقين لا يتوقف فيه ، إذ ليس بعده مرتبة حتى يتوقف إلى بلوغ تلك المرتبة لأن من بلغ إلى درجة الظن فانه يتوقف إلى أن يبلغ درجة اليقين ، فلما كان عدم التوقف فى اليقين معلوماً متفقاً عليه لم يقل فلا تتوقفوا بل قال حبب إليكم الإيمان ، أى بينه وزينه بالبرهان اليقينى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ما المعنى فى قوله (حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم) نقول قوله تعالى (حبب إليكم) أى قربه وأدخله فى قلوبكم ثم زينه فيها بحيث لا تفارقونه ولا يخرج من قلوبكم ، وهذا لأن من يحب أشياء فقد يمل شيئاً منها إذا حصل عنده وطال لبثه والإيمان كل يوم يزداد حسناً ، ولكن من كانت عبادته أكثر وتحمله لمشاق التكليف أتم ، تكون العبادة والتكاليف عنده ألذ وأكمل ، ولهذا قال فى الأول (حبب إليكم) وقال ثانياً (وزينه فى قلوبكم) كأنه قربه إليهم ثم أقامه فى قلوبهم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ ما الفرق بين الأمور الثلاثة وهى الكفر والفسوق والعصيان ؟ فنقول هذه أمور ثلاثة فى مقابلة الإيمان الكامل لأن الإيمان الكامل المزين ، هو أن يجمع التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان (أحدها) قوله تعالى (وكره إليكم الكفر) وهو التكذيب فى مقابلة التصديق بالجنان والفسوق هو الكذب (وثانيها) هو ماقبل هذه الآية وهو قوله تعالى (إن جاءكم فاسق بنبإ) سمى من كذب فاسقاً فيكون الكذب فسوقاً (ثالثها) ماذكره بعد هذه الآية ، وهو قوله تعالى (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) فإنه يدل على أن الفسوق أمر قولى لاقترانه بالاسم ، وسنبين تفسيره إن شاء الله تعالى (ورابعها) وجه معقول وهو أن الفسوق هو الخروج عن الطاعة على ماعلم فى قول القائل : فسقت الرطبة إذا خرجت ، وغير ذلك لأن الفسوق هو الخروج زيد فى الاستعمال كونه الخروج عن الطاعة ، لكن الخروج لا يكون

أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

له ظهور بالأمر القلبي ، إذ لا اطلاع على مافى القلوب لأحد إلا لله تعالى ، ولا يظهر بالأفعال لأن الأمر قد يترك إما لنسيان أو سهو ، فلا يعلم حال التارك والمرتكب أنه مخطىء أو متعمد ، وأما الكلام فإنه حصول العلم بما عليه حال المتكلم ، فالدخول فى الإيمان والخروج منه يظهر بالكلام فتخصيص الفسوق بالأمر القولى أقرب ، وأما العصيان فترك الأمر وهو بالفعل أليق ، فإذا علم هذا ففيه ترتيب فى غاية الحسن ، وهو أنه تعالى كره إليكم الكفر وهو الأمر الأعظم كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) .

قوله تعالى : ﴿ والفسوق ﴾ يعنى مايظهر لسانكم أيضاً ، ثم قال ﴿ والعصيان ﴾ وهو دون الكل ولم يترك عليكم الأمر الأدنى وهو العصيان ، وقال بعض الناس الكفر ظاهر والفسوق هو الكبيرة ، والعصيان هو الصغيرة ، وما ذكرناه أقوى .

قوله تعالى : ﴿ أولئك هم الراشدون ﴾ .

خطاباً مع النبي صلى الله عليه وسلم وفيه معنى لطيف : وهو أن الله تعالى فى أول الأمر قال (واعلموا أن فيكم رسول الله) أى هو مرشد لكم لخطاب المؤمنين للتنبيه على شفقته بالمؤمنين ، فقال فى الأول كفى النبي مرشداً لكم ما تسترشدونه فأشفق عليهم وأرشدهم ، وعلى هذا قوله (الراشدون) أى الموافقون الرشد يأخذون مايأتيهم وينتهون عما ينهاهم .

قوله تعالى : ﴿ فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ نصب فضلا لأجل أمور ، إما لكونه مفعولا له ، وفيه وجهان (أحدهما) أن العامل فيه هو الفعل الذى فى قوله (الراشدون) فإن قيل : كيف يجوز أن يكون فضل الله الذى هو فعل الله مفعولا له بالنسبة إلى الرشد الذى هو فعل العبد ؟ نقول لما كان الرشد توفيقاً من الله كان كأنه فعل الله فكأنه تعالى أرشدهم فضلا ، أى يكون متفضلا عليهم منعماً فى حقهم (والوجه الثانى) هو أن العامل فيه هو قوله (حبب إليكم الإيمان وكره إليكم الكفر) فضلا وقوله (أولئك هم الراشدون) جملة اعترضت بين الكلامين أو يكون العامل فعلا مقدراً ، فكأنه قال تعالى جرى ذلك فضلا من الله ، وإما لكونه مصدراً ، وفيه وجهان (أحدهما) أن يكون مصدراً من غير اللفظ ولأن الرشد فضل فكأنه قال أولئك هم الراشدون رشدا (وثانيهما) هو أن يكون مصدراً لفعل مضمر ، كأنه قال حبب إليكم الإيمان وكره إليكم الكفر فأفضل فضلا وأنعم نعمة ، والقول بكونه منصوباً على أنه مفعول مطلق وهو المصدر ، أو مفعول له قول الزمخشرى ، وإما أن يكون فضلا مفعولا به ، والفعل مضمراً دل عليه قوله تعالى (أولئك هم الرشدون) أى يبتغون فضلا من الله ونعمة .

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الفرق بين الفضل والنعمة فى الآية ؟ نقول فضل الله إشارة إلى ما عنده من الخير وهو مستغن عنه ، والنعمة إشارة إلى مايصل إلى العبد وهو محتاج إليه ، لأن الفضل فى الأصل ينبىء عن الزيادة ، وعنده خزائن من الرحمة لا لحاجة إليها ، ويرسل منها على عباده مالا يبقون معه فى ورطة الحاجة بوجه من الوجوه ، والنعمة تنبىء عن الرأفة والرحمة وهو من جانب العبد ، وفيه معنى لطيف وهو تأكيد الإعطاء ، وذلك لأن المحتاج يقول للغنى : أعطنى ما فضل عنك وعندك ، وذلك غير ملتفت إليه وأنابه قيامى وبقائى ، فإذن قوله (فضل من الله) إشارة إلى ماهو من جانب الله الغنى ، والنعمة إشارة إلى ماهو من جانب العبد من اندفاع الحاجة ، وهذا مما يؤكد قولنا فضلا منصوب بفعل مضمر ، وهو الابتغاء والطلب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ختم الآية بقوله (والله عليم حكيم) فيه مناسبات عدة (منها) أنه تعالى لما ذكر نبأ الفاسق ، قال إن يشتبه على المؤمن كذب الفاسق فلا تعتمدوا على ترويجه عليكم الزور ، فإن الله عليم ، ولا تقولوا كما كان عادة المنافق لولا يعذبنا الله بما نقول ، فإن الله حكيم لا يفعل إلا على وفق حكمته (وثانيها) لما قال الله تعالى (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم) بمعنى لا يطيعكم ، بل يتبع الوحى ، قال فإن الله من كونه عليما يعلمه ، ومن كونه حكيما يأمره بما تقتضيه الحكمة فاتبعوه (ثالثها) المناسبة التى بين قوله تعالى (عليم حكيم) وبين قوله (حبب إليكم الإيمان) أى حبب بعلمه الإيمان لأهل الإيمان ، واختار له من يشاء بحكمته (رابعها) وهو الأقرب ، وهو أنه سبحانه وتعالى قال (فضلا من الله ونعمة) ولما كان الفضل هو ما عند الله من الخير المستغنى عنه ، قال تعالى هو عليم بما فى خزائن رحمته من الخير ، وكانت النعمة هو مايدفع به حاجة العبد ، قال هو حكيم ينزل الخير بقدر ما يشاء على وفق الحكمة .

قوله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﴾ .

لما حذر الله المؤمنين من النبأ الصادر من الفاسق ، أشار إلى ما يلزم منه استدراكا لما يفوت ، فقال فإن اتفق أنكم تبنون على قول من يوقع بينكم ، وآل الأمر إلى اقتتال طائفتين من المؤمنين ، فأزيلوا ما أثبته ذلك الفاسق وأصلحوا بينهما (فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى) أى الظالم يجب عليكم دفعه عنه ، ثم إن الظالم إن كان هو الرعية ، فالواجب على الأمير دفعهم ، وإن كان هو الأمير ، فالواجب على المسلمين منعه بالنصيحة فما فوقها ، وشرطه أن لا يثير فتنة مثل التى

فى اقتتال الطائفتين أو أشد منهما ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (وإن) إشارة إلى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين ، فإن قيل فنحن نرى أكثر الاقتتال بين طوائفهم ؟ نقول قوله تعالى (وإن) إشارة إلى أنه ينبغى أن لا يقع إلا نادراً ، غاية مافى الباب أن الإمر على خلاف ما ينبغى ، وكذلك (إن جاءكم فاسق بنبأ) إشارة إلى أن مجىء الفاسق بالنبأ ينبغى أن يقع قليلا ، مع أن مجىء الفاسق بالنبأ كثير ، وقول الفاسق صار عند أولى الأمر أشد قبولا من قول الصادق الصالح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال تعالى (وإن طائفتان) ولم يقل وإن فرقتان تحقيقاً للمعنى الذى ذكرناه وهو التقليل ، لأن الطائفة دون الفرقة ، ولهذا قال تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى (من المؤمنين) ولم يقل منكم ، مع أن الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ) تنبيهاً على قبح ذلك وتبعيداً لهم عنهم ، كما يقول السيد لعبده : إن رأيت أحداً من غلمانى يفعل كذا فامنعه ، فيصير بذلك مانعاً للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن ، كأنه يقول : أنت حاشاك أن تفعل ذلك ، فان فعل غيرك فامنعه ، كذلك ههنا قال (وإن طائفتان من المؤمنين) ولم يقل منكم لما ذكرنا من التنبيه مع أن المعنى واحد .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) ولم يقل : وإن اقتتل طائفتان من المؤمنين ، مع أن كلمة (إن) اتصالها بالفعل أولى ، وذلك ليكون الابتداء بما يمنع من القتال ، فيتأكد معنى النكرة المدلول عليها بكلمة (إن) وذلك لأن كونهما طائفتين مؤمنتين يقتضى أن لا يقع القتال منهما ، فإن قيل فلم لم يقل : ياأيها الذين آمنوا إن فاسق جاءكم ، أو إن أحد من الفساق جاءكم ، ليكون الابتداء بما يمنعهم من الإصغاء إلى كلامه ، وهو كونه فاسقاً ؟ نقول المجىء بالنبأ الكاذب يورث كون الإنسان فاسقاً ، أو يزداد بسببه فسقه ، فالمجىء به سبب الفسق فقدمه . وأما الاقتتال فلا يقع سبباً للايمان أو الزيادة ، فقال (إن جاءكم فاسق) أى سواء كان فاسقاً أو لا أو جاءكم بالنبأ فصار فاسقاً به ، ولو قال : وإن أحد من الفساق جاءكم ، كان لا يتناول إلا مشهور الفسق قبل المجىء إذا جاءهم بالنبأ .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال تعالى (اقتتلوا) ولم يقل : يقتتلوا ، لأن صيغة الاستقبال تنبىء عن الدوام والإستمرار ، فيفهم منه أن طائفتين من المؤمنين إن تمادى الاقتتال بينهما فأصلحوا ، وهذا لأن صيغة المستقبل تنبىء عن ذلك ، يقال فلان يتهجد ويصوم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال (اقتتلوا) ولم يقل اقتتلا ، وقال (فأصلحوا بينهما) ولم يقل بينهم ، ذلك لأن عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة ، وكل أحد برأسه يكون فاعلا فعلا ، فقال (اقتتلوا) وعند العود إلى الصلح تتفق كلمة كل طائفة ، وإلا لم يكن يتحقق الصلح . فقال (بينهما) لكون

الطائفتين حينئذ كنفسين .

ثم قال تعالى (فإن بغت إحداهما) إشارة إلى نادرة أخرى وهى البغى . لأنه غير متوقع ، فإن قيل كيف يصح فى هذا الموضع كلمة (إن) مع أنها تستعمل فى الشرط الذى لا يتوقع وقوعه ، وبغى أحدهما عند الاقتتال لا بد منه ، إذ كل واحد منهما لايكون محسناً ، فقوله (إن) تكون من قبيل قول القائل : إن طلعت الشمس ، نقول فيه معنى لطيف ، وهو أن الله تعالى يقول : الاقتتال بين طائفتين لا يكون إلا نادر الوقوع ، وهو كما تظن كل طائفة أن الأخرى فيها الكفر والفساد ، فالقتال واجب كما سبق فى الليالى المظلمة ، أو يقع لكل واحد أن القتال جائز بالاجتهاد ، وهو خطأ ، فقال تعالى : الاقتتال لايقع إلا كذا ، فإن بان لهما أو لأحدهما الخطأ واستمر عليه فهو نادر ، وعند ذلك يكون قد بغى فقال (فإن بغت إحداهما على الأخرى) يعنى بعد استبانة الأمر ، وحينئذ فقوله (فإن بغت) فى غاية الحسن لأنه يفيد الندرة وقلة الوقوع ، وفيه أيضاً مباحث (الأول) قال (فإن بغت) ولم يقل فإن تبغ لما ذكرنا فى قوله تعالى (اقتتلوا) ولم يقل يقتتلوا (الثانى) قال (حتى تفىء) إشارة إلى أن القتال ليس جزاء للباغى كحد الشرب الذى يقام وإن ترك الشرب ، بل القتال إلى حد الفيئة ، فإن فاءت الفئة الباغية حرم قتالهم (الثالث) هذا القتال لدفع الصائل ، فيندرج فيه وذلك لأنه لما كانت الفيئة من إحداهما ، فان حصلت من الأخرى لا يوجد البغى الذى لأجله حل القتال (الرابع) هذا دليل على أن المؤمن بالكبيرة لا يخرج عن كونه مؤمناً لأن الباغى جعله من إحدى الطائفتين وسماهما مؤمنين (الخامس) قوله تعالى (إلى أمر الله) يحتمل وجوها (أحدها) إلى طاعة الرسول وأولى الأمر لقوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) . (وثانيها) إلى أمر الله ، أى إلى الصلح فإنه مأمور به يدل عليه قوله تعالى (فأصلحوا ذات بينكم) ، (ثالثها) إلى أمر الله بالتقوى ، فان من خاف الله حق الخوف لا يبقى له عداوة إلا مع الشيطان كما قال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) ، (السادس) لو قال قائل قد ذكرتم مايدل على كون الشرط غير متوقع الوقوع وقلتم بأن القتال والبغى من المؤمن نادر ، فإذن تكون الفئة متوقعه فكيف قال (فان فاءت) ؟ نقول قول القائل لعبده : إن مت فأنت حر ، مع أن الموت لابد من وقوعه ، لكن لما كان وقوعه بحيث يكون العبد محلا للعتق بأن يكون باقياً فى ملكه حياً يعيش بعد وفاته غير معلوم فكذلك ههنا لما كان الواقع فيئتهم من تلقاء أنفسهم فلما لم يقع دل على تأكيد الأخذ بينهم فقال تعالى (فان فاءت) بقتالكم إياهم بعد اشتداد الأمر والتحام الحرب فأصلحوا ، وفيه معنى لطيف وهو أنه تعالى أشار إلى أن من لم يخف الله وبغى لايكون رجوعه بقتالكم إلا جبراً (السابع) قال ههنا (فأصلحوا بينهما بالعدل) ولم يذكر العدل فى قوله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا) نقول لأن الإصلاح هناك بإزالة الاقتتال نفسه ، وذلك يكون بالنصيحة أو التهديد والزجر والتعذيب ، والإصلاح ههنا بإزالة آثار القتل

فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

بعد اندفاعه من ضمان المتلفات وهو حكم فقال (بالعدل) فكأنه قال : واحكموا بينهما بعد تركهما القتال بالحق وأصلحوا بالعدل مما يكون بينهما ، لئلا يؤدى إلى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى (الثامن) إذا قال (فأصلحوا بينهما بالعدل) فأية فائدة فى قوله (وأقسطوا) نقول قوله فأصلحوا بينهما بالعدل كان فيه تخصيص بحال دون حال فعمم الأمر بقوله (وأقسطوا) أى فى كل أمر مفض إلى أشرف درجة وأرفع منزلة وهى محبة الله ، والإقساط إزالة القسط وهو الجور والقاسط هو الجائر ، والتركيب دال على كون الأمر غير مرضى من القسط والقاسط فى القلب وهو أيضاً غير مرضى ولا معتد به فكذلك القسط .

قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ تتميما للارشاد وذلك لأنه لما قال (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) كان لظان أن يظن أو لمتوهم أن يتوهم أن ذلك عند اختلاف قوم ، فأما إذا كان الاقتتال بين اثنين فلا تعم المفسدة فلا يؤمر بالإصلاح ، وكذلك الأمر بالإصلاح هناك عند الاقتتال ، وأما إذا كان دون الاقتتال كالتشاتم والتسافه فلا يجب الإصلاح فقال (بين أخويكم) وإن لم تكن الفتنة عامة وإن لم يكن الأمر عظيما كالقتال بل لو كان بين رجلين من المسلمين أدنى اختلاف فاسعوا فى الإصلاح .

وقوله ﴿ واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) قال بعض أهل اللغة الأخوة جمع الأخ من النسب والإخوان جمع الأخ من الصداقة ، فالله تعالى قال (إنما المؤمنون إخوة) تأكيداً للأمر وإشارة إلى أن ما بينهم ما بين الأخوة من النسب والإسلام كالأب ، قال قائلهم :

أبى الإسلام لاأب [لى] سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

﴿ المسألة الثانية ﴾ عند إصلاح الفريقين والطائفتين لم يقل اتقوا ، وقال ههنا اتقوا مع أن ذلك أهم ؟ نقول الفائدة هو أن الاقتتال بين طائفتين يفضى إلى أن تعم المفسدة ويلحق كل مؤمن منها شىء وكل يسعى فى الاصلاح لأمر نفسه فلم يؤكد بالأمر بالتقوى ، وأما عند تخاصم رجلين لايخاف الناس ذلك وربما يزيد بعضهم تأكد الخصام بين الخصوم لغرض فاسد فقال (فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله) أو نقول قوله (فأصلحوا) إشارة إلى الصلح ، وقوله (واتقوا الله)

إشارة إلى مايصونهم عن التشاجر ، لأن من اتقى الله شغله تقواه عن الاشتغال بغيره ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم الناس من لسانه و[يده] » لأن المسلم يكون منقاداً لأمر الله مقبلا على عباد الله فيشغله عيبه عن عيوب الناس ويمنعه أن يرهب الأخ المؤمن ، وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم « المؤمن من يأمن جاره بوائقه » يعني اتق الله فلا تتفرغ لغيره .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما للحصر أي لا أخوة إلا بين المؤمنين ، وأما بين المؤمن والكافر فلا ، لأن الإسلام هو الجامع ولهذا إذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين ولا يكون لأخيه الكافر ، وأما الكافر فكذلك لأن في النسب المعتبر الإب الذي هو أب شرعا ، حتى أن ولدي الزنا من رجل واحد لا يرث أحدهما الآخر ، فكذلك الكفر كالجامع الفاسد فهو كالجامع العاجز لايفيد الأخوة ، ولهذا من مات من الكفر وله أخ مسلم ولا وارث له من النسب لا يجعل ماله للكفار ، ولو كان الدين يجمعهم لكان مال الكافر للكفار ، كما أن مال المسلم للمسلمين عند عدم الوارث ، فان قيل قد ثبت أن الأخوة للاسلام أقوى من الأخوة النسبية ، بدليل أن المسلم يرثه المسلمون ولا يرثه الأخ الكافر من النسب ، فلم لم يقدموا الأخوة الإسلامية على الأخوة النسبية مطلقاً حتى يكون مال المسلم المسلمين لا لأخوته من النسب ؟ نقول هذا سؤال فاسد ، وذلك لأن الأخ المسلم إذاكان أخا من النسب فقد اجتمع فيه أخوتان فصار أقوى والعصوبة لمن له القوة ، ألا ترى أن الأخ من الأبوين يرث ولا يرث الأخ من الأب معه فكذلك الأخ المسلم من النسب له أخوتان فيقدم على سائر المسلمين والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال النحاة (ما) في هذا الموضع كافة تكف إن عن العمل ، ولولا ذلك لقيل : إنما المؤمنين إخوة ، وفي قوله تعالى (فبما رحمة من الله) وقوله (عما قليل) ليست كافة . والسؤال الأقوى هو أن رب من حروف الجر والباء وعن كذلك ، وما في رب كافة وفي عما وبما ليست كافة ، والتحقيق فيه هوأن الكلام بعد ربما وإنما يكون تاماً ، ويمكن جعله مستقلا ولو حذف ربما وإنما لما ضر ، فنقول ربما قام الأمير وربما زيد في الدار ، ولو حذفت ربما وقلت زيد في الدار وقام الأمير لصح ، وكذلك في إنما ولكنما ، وأما عما وبما فليست كذلك ، لأن قوله تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم) لو أذهبت بما وقلت رحمة من الله لنت لهم ، لما كان كلاما فالباء بعد تعلقها بما يحتاج إليها فهي باقية حقيقة ، ولكنما وإنما وربما لما استغنى عنها فكأنها لم يبق حكمها ولا عمل للمعدوم ، فان قيل إن إذا لم تكف بما فا بعده كلام تام ، فوجب أن لا يكون له عمل تقول إن زيداً قائم ولو قلت زيد قائم لكفي وتم ؟ نقول : ليس كذلك لأن ما بعد إن جاز أن يكون نكرة ، تقول إن رجلا جاءني وأخبرني بكذا وأخبرني بعكسه ، وتقول جاءني رجل وأخبرني ، ولا يحسن إنما رجل جاءني كالو لم تكن هناك إنما ، وكذلك القول في ليتما وأينما فإنك لو حذفتهما واقتصرت على مايكون بعدهما لايكون تاماً فلم يكف ، والكلام في لعل قد تقدم مراراً

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ .

وقد بينا أن السورة للارشاد بعد إرشاد فبعد الإرشاد إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ومع النبي صلى الله عليه وسلم ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق ، بين ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ، وقد ذكرنا أن المؤمن إما أن يكون حاضراً وإما أن يكون غائباً ، فإن كان حاضراً فلا ينبغي أن يسخر منه ولا يلتفت إليه بما ينافي التعظيم ، وفي الآية إشارة إلى أمور ثلاثة مرتبة بعضها دون بعض وهي السخرية واللمز والنبز ، فالسخرية هي أن لا ينظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال ولا يلتفت إليه ويسقطه عن درجته ، وحينئذ لا يذكر ما فيه من المعايب ، وهذا كما قال بعض الناس تراهم إذا ذكر عندهم عدوهم يقولون هو دون أن يذكر ، وأقل من أن يلتفت إليه ، ، فقال لا تحقروا إخوانكم ولا تستصغروهم (الثاني) هو اللمز وهو ذكر ما في الرجل من العيب في غيبته وهذا دون الأول ، لأن في الأول لم يلتفت إليه ولم يرض بأن يذكره أحد وإنما جعله مثل المسخرة الذي لا يغضب له ولا عليه (الثالث) هو النبز وهو دون الثاني ، لأن في هذه المرتبة يضيف إليه وصفاً ثابتاً فيه يوجب بغضه وحط منزلته ، وأما النبز فهو مجرد التسمية وإن لم يكن فيه وذلك لأن اللقب الحسن والإسم المستحسن إذا وضع لواحد وعلق عليه لا يكون معناه موجوداً فإن من يسمى سعداً وسعيداً قد لا يكون كذلك ، وكذا من لقب إمام الدين وحسام الدين لا يفهم منه أنه كذلك وإنما هو علامة وزينة ، وكذلك النبز بالمروان ومروان الحمار لم يكن كذلك وإنما كان ذلك سمة ونسبة ، ولا يكون اللفظ مراداً إذا لم يرد به الوصف كما أن الأعلام كذلك ، فإنك إذا قلت لمن سمي بعبد الله أنت عبد الله فلا تعبد غيره ، وتريد به وصفه لا تكون قد أتيت باسم عليه إشارة ، فقال لا تتكبروا فتستحقروا إخوانكم وتستصغروهم بحيث لا تلتفتوا إليهم أصلا وإذا نزلتم عن هذا من النعم إليهم فلا تعيبو[هم] طالبين حط درجتهم والغض عن منزلتهم ، وإذا تركتم النظر في معايبهم ووصفهم بما يعيبهم فلا تسموهم بما يكرهونه ولا تقولوا هذا ليس بعيب يذكر فيه إنما هو اسم يتلفظ به من غير قصد إلى بيان صفة وذكر في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (لا يسخر قوم من قوم) القوم اسم يقع على جمع من الرجال ولا يقع

على النساء ولا على الأطفال لأنه جمع قائم كصوم جمع صائم ، والقائم بالأمور هم الرجال فعلى هذا الأقوام الرجال لا النساء . (فائدة) وهى أن عدم الالتفات والاستحقار إنما يصدر فى أكثر الأمر من الرجال بالنسبة إلى الرجال ، لأن المرأة فى نفسها ضعيفة ، فاذا لم يلتفت الرجال إليها لا يكون لها أمر ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « النساء لحم على وضم إلا ما رددت عنه » وأما المرأة فلا يوجد منها استحقار الرجل وعدم التفاتها إليه لاضطرارها فى دفع حوائجها [إليه] ، وأما الرجال بالنسبه إلى الرجال والنساء بالنسبة إلى النساء فيوجد فيهم هذا النوع من القبح وهذا أشهر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى الدرجة العالية التى هى نهاية المنكر (عسى أن يكونوا خيراً منهم) كسراً له وبغضاً لنكره ، وقال فى المرتبة الثانية (لا تلمزوا أنفسكم) جعلهم كأنفسهم لما نزلوا درجة رفعهم الله درجة وفى الأول جعل المسخور منه خيراً ، وفى الثانى جعل المسخور منه مثلا ، وفى قوله (عسى أن يكونوا خيراً منهم) حكمة وهى أنه وجد منهم النكر الذى هو مفض إلى الإهمال وجعل نفسه خيراً منهم كما فعل إبليس حيث لم يلتفت إلى آدم وقال (أنا خير منه) فصار هو خيراً ، ويمكن أن يقال المراد من قوله (أن يكونوا) يصيروا فإن من استحقر إنساناً لفقره أو وحدته أو ضعفه لا يأمن أن يفتقر هو ويستغنى الفقير ، ويضعف هو ويقوى الضعيف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى (قوم من قوم) ولم يقل نفس من نفس ، وذلك لأن هذا فيه إشارة إلى منع التكبر والمتكبر فى أكثر الأمر يرى جبروته على رءوس الأشهاد ، وإذا اجتمع فى الخلوات مع من لا يلتفت إليه فى الجامع يجعل نفسه متواضعاً ، فذكرهم بلفظ القوم منعاً لهم عما يفعلونه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (ولا تلمزوا أنفسكم) فيه وجهان (أحدهما) أن عيب الأخ عائد إلى الأخ فإذا عاب عائب نفساً فكأنما عاب نفسه (وثانيهما) هو أنه إذا عابه وهو لا يخلو من عيب يحاربه المعيب فيعيبه فيكون هو بعيبه حاملا للغير على عيبه وكأنه هو العائب نفسه وعلى هذا يحمل قوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) أى أنكم إذا قتلتم نفساً قتلتم فتكونوا كأنكم قتلتم أنفسكم ويحتمل وجهاً آخر ثالثاً وهو أن تقول لا تعيبوا أنفسكم أى كل واحد منكم فانكم إن فعلتم فقد عبتم أنفسكم ، أى كل واحد عاب كل واحد فصرتم عائبين من وجه معيبين من وجه ، وهذا الوجه ههنا ظاهر ولا كذلك فى قوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إن قيل قد ذكرتم أن هذا إرشاد للمؤمنين إلى ما يجب أن يفعله المؤمن عند حضوره بعد الإشارة إلى مايفعله فى غيبته ، لكن قوله تعالى (ولا تلمزوا) قيل فيه بأنه العيب خلف الإنسان والهمز هو العيب فى وجه الإنسان ، نقول ليس كذلك بل العكس أولى ، وذلك لأنا إذا نظرنا إلى قلب الحروف دللن على العكس ، لأن لمز قلبه لزم وهمز قلبه هزم ، والأول يدل على القرب ، والثانى على البعد ، فإن قيل اللمز هو الطعن والعيب فى الوجه كان أولى مع أن كل واحد

بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ

قيل بمعنى واحد .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال تعالى (ولا تنابزوا) ولم يقل لا تنبزوا ، وذلك لأن اللماز إذا لمز فالملموز قد لا يجد فيه فى الحال عيباً يلمزه به ، وإنما يبحث ويتبعه ليطلع منه على عيب فيوجد اللمز من جانب ، وأما النبز فلا يعجز كل واحد عن الإتيان به ، فإن من نبز غيره بالحمار وهو ينبزه بالثور وغيره ، فالظاهر أن النبز يفضى فى الحال إلى التنابز ولا كذلك اللمز .

قوله تعالى : ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ .

قيل فيه إن المراد (بئس) أن يقول للمسلم يايهودى بعد الإيمان أى بعد ما آمن فبئس تسميته بالكافر ، ويحتمل وجهاً أحسن من هذا : وهو أن يقال هذا تمام للزجر ، كأنه تعالى قال (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، ولا تلمزوا ، ولا تنابزوا) فإنه إن فعل يفسق بعد ما آمن ، والمؤمن يقبح منه أن يأتى بعد إيمانه بفسوق فيكون قوله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) ويصير التقدير بئس الفسوق بعد الإيمان ، وبئس أن تسموا بالفاسق بسبب هذه الأفعال بعد ما سميتموهم مؤمنين .

قال تعالى ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ وهذا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يقال هذه الأشياء من الصغائر فمن يصر عليه يصير ظالماً فاسقاً وبالمرة الواحدة لا يتصف بالظلم والفسق فقال ومن لم يترك ذلك ويجعله عادة فهو ظالم (وثانيهما) أن يقال قوله تعالى (لا يسخر قوم) (ولا تلمزوا) (ولا تنابزوا) منع لهم عن ذلك فى المستقبل ، وقوله تعالى (ومن لم يتب) أمرهم بالتوبة عما مضى وإظهار الندم عليها مبالغة فى التحذير وتشديداً فى الزجر ، والأصل فى قوله تعالى (ولا تنابزوا) لا تتنابزوا أسقطت إحدى التاءين ، كما أسقط فى الاستفهام إحدى الهمزتين فقال (سواء عليهم أنذرتهم) والحذف ههنا أولى لأن تاء الخطاب وتاء التفاعل حرفان من جنس واحد فى كلمة وهمزة الاستفهام كلمة برأسها وهمزة أنذرتهم أخرى واحتمال حرفين فى كلمتين أسهل من احتماله فى كلمة ، ولهذا وجب الإدغام فى قولنا : مد ، ولم يجب فى قولنا امدد ، و[فى] قولنا : مر ، [دون] قوله : أمر ربنا .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾

واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ .

لأن الظن هو السبب فيما تقدم وعليه تبنى القبائح ، ومنه يظهر العدو المكاشح والقائل إذا أوقف أموره على اليقين فقلما يتيقن فى أحد عيباً فيلمزه به ، فإن الفعل فى الصورة قد يكون قبيحاً وفى نفس الأمر لا يكون كذلك ، لجواز أن يكون فاعله ساهياً أو يكون الرائى مخطئاً ، وقوله (كثيراً) إخراج للظنون التى عليها تبنى الخيرات قال النبى صلى الله عليه وسلم «ظنوا بالمؤمن خيراً» وبالجملة كل أمر لا يكون بناؤه على اليقين ، فالظن فيه غير مجتنب مثاله حكم الحاكم على قول الشهود وبراءة الذمة عند عدم الشهود إلى غير ذلك فقوله (اجتنبوا كثيراً) وقوله تعالى (إن بعض الظن إثم) إشارة إلى الأخذ بالأحوط كما أن الطريق المخوفة لا يتفق كل مرة فيه قاطع طريق ، لكنك لا تسلك لاتفاق ذلك فيه مرة ومرتين إلا إذا تعين فتسلكه مع رفقة كذلك الظن ينبغى بعد اجتهاد تام ووثوق بالغ .

قوله تعالى : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ إتماماً لما سبق لأنه تعالى لما قال (اجتنبوا كثيراً من الظن) فهم منه أن المعتبر اليقين فيقول القائل أنا أكشف فلاناً يعنى أعلمه يقيناً وأطلع على عيبه مشاهدة فأعيب فأكون قد اجتنبت الظن فقال تعالى : ولا تتبعوا الظن ، ولا تجتهدوا فى طلب اليقين فى معايب الناس .

قوله تعالى : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ إشارة إلى وجوب حفظ عرض المؤمن فى غيبته وفيه معان (أحدها) فى قوله تعالى (بعضكم بعضاً) فإنه للعموم فى الحقيقة كقوله (لا تلمزوا أنفسكم) وأما من اغتاب فالمغتاب أولا يعلم عيبه فلا يحمل فعله على أن يغتابه فلم يقل ولا تغتابوا أنفسكم لما أن الغيبة ليست حاملة للعائب على عيبه من اغتابه ، والعيب حامل على العيب (ثانيها) لو قال قائل هذا المعنى كان حاصلا بقوله تعالى : لا تغتابوا ، مع الاقتصار عليه نقول لا ، وذلك لأن الممنوع اغتياب المؤمن فقال (بعضكم بعضاً) وأما الكافر فيعلن ويذكر بما فيه وكيف لا والفاسق يجوز أن يذكر بما فيه عند الحاجة (ثالثها) قوله تعالى (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً) دليل على أن الاغتياب الممنوع اغتياب المؤمن لا ذكر الكافر ، وذلك لأنه شبهه بأكل لحم الأخ ، وقال من قبل (إنما المؤمنون إخوة) فلا أخوة إلا بين المؤمنين ، ولا منع إلا من شىء يشبه أكل لحم الأخ ففى هذه الآية نهى عن اغتياب المؤمن دون الكافر (رابعها) ما الحكمة فى هذا التشبيه ؟ نقول هو إشارة إلى أن عرض الإنسان كدمه ولحمه ، وهذا من باب القياس الظاهر ، وذلك لأن عرض المرء أشرف من لحمه ، فإذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى لأن ذلك آلم ، وقوله (لحم أخيه) آكد فى المنع لأن العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدو ، فقال أصدق الأصدقاء من ولدته أمك ، فأكل لحمه أقبح

مايكون ، وقوله تعالى (ميتاً) إشارة إلى دفع وهم ، وهو ان يقال القول فى الوجه يؤلم فيحرم ، وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا يؤلم ، فقال أكل لحم الأخ وهو ميت أيضاً لا يؤلم ، ومع هذا هو فى غاية القبح لما أنه لو اطلع عليه لتألم ، كما أن الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه ، وفيه معنى : وهو أن الاغتياب كأكل لحم الآدمى ميتاً ، ولا يحل أكله إلا للمضطر بقدر الحاجة ، والمضطر إذا وجد لحم الشاة الميتة ولحم الآدمى الميت فلا يأكل لحم الآدمى ، فكذلك المغتاب إن وجد لحاجته مدفعاً غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب ، وقوله تعالى (ميتاً) حال عن اللحم أو عن الأخ ، فإن قيل اللحم لا يكون ميتاً ، قلنا بلى قال النبى صلى الله عليه وسلم « ما أبين من حى فهو ميت » فسمى الفلقة ميتاً ، فإن قيل إذا جعلناه حال عن الأخ ، لا يكون هو الفاعل ولا المفعول فلا يجوز جعله حال ، كما يقول القائل : مررت بأخى زيد قائماً ، ويريد كون زيداً قائماً ، قلنا يجوز أن يقال من أكل لحمه فقد أكل ، فصار الأخ مأكولا مفعولا ، بخلاف المرور بأخى زيد ، فيجوز أن تقول ضربت وجهه آثماً ، أى وهو آثم ، أى صاحب الوجه ، كما أنك إذا ضربت وجهه فقد ضربته ، ولا يجوز أن تقول مزقت ثوبه آثماً ، فتجعل الآثم حالا من غيرك ، وقوله تعالى (فكرهتموه) فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ العائد إليه الضمير يحتمل وجوهاً (الأول) وهو الظاهر أن يكون هو الأكل ، لأن قوله تعالى (أيحب أحدكم أن يأكل) معناه أيحب أحدكم الأكل ، لأن أن مع الفعل تكون للمصدر ، يعنى فكرهتم الأكل (الثانى) أن يكون هو اللحم ، أى فكرهتم اللحم (الثالث) أن يكون هو الميت فى قوله (ميتاً) وتقديره : أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً متغيراً فكرهتموه ، فكأنه صفة لقوله (ميتاً) ويكون فيه زيادة مبالغة فى التحذير ، يعنى الميتة إن أكلت فى الندرة لسبب كان نادراً ، ولكن إذا أنتن وأروح وتغير لا يؤكل أصلا ، فكذلك ينبغى أن تكون الغيبة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الفاء فى قوله تعالى (فكرهتموه) تقتضى وجود تعلق ، فما ذلك ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) أن يكون ذلك تقدير جواب كلام ، كأنه تعالى لما قال (أيحب) قيل فى جوابه ذلك (وثانيها) أن يكون الاستفهام فى قوله (أيحب) للانكار ، كأنه قال : لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه إذاً ولا يحتاج إلى إضمار (وثالثها) أن يكون ذلك التعلق هو تعلق المسبب بالسبب ، وترتبه عليه كما تقول : جاء فلان ماشياً فتعب ، لأن المشى يورث التعب ، فكذا قوله (ميتاً) لأن الموت يورث النفرة إلى حد لا يشتهى الإنسان أن يبيت فى بيت فيه ميت ، فكيف يقربه بحيث يأكل منه ، ففيه إذاً كراهة شديدة ، فكذلك ينبغى أن يكون حال الغيبة .

قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ عطف على ماتقدم من الأوامر والنواهى ،

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

أى اجتنبوا واتقوا ، وفى الآية لطائف : منها أن الله تعالى ذكر فى هذه الآية أموراً ثلاثة مرتبة بيانها ، هو أنه تعالى قال (اجتنبوا كثيراً) أى لا تقولوا فى حق المؤمنين ما لم تعلموه فيهم بناء على الظن ، ثم إذا سئلتم على المظنونات ، فلا تقولوا نحن نكشف أمورهم لنستيقنها قبل ذكرها ، ثم إن علمتم منها شيئاً من غير تجسس ، فلا تقولوه ولا تفشوه عنهم ولا تعيبوا ، ففى الأول نهى عما لم أن يعلم ، ثم نهى عن طلب ذلك العلم ، ثم نهى عن ذكر ما علم ، ومنها أن الله تعالى لم يقل اجتنبوا تقولوا أمراً على خلاف ماتعلمونه ، ولا قال اجتنبوا الشك ، بل أول مانهى عنه هو القول بالظن ، وذلك لأن القول على خلاف العلم كذب وافتراء ، والقول بالشك ، والرجم بالغيب سفه وهزء ، وهما فى غاية القبح ، فلم ينه عنه اكتفاء بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) لأن وصفهم بالإيمان يمنعهم من الافتراء والارتياب الذى هو داب الكافر . وإنما منعهم عما يكثر وجوده فى المسلمين ، ولذلك قال فى الآية (لا يسخر) ومنها أنه ختم الآيتين بذكر التوبة ، فقال فى الأولى (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) وقال فى الأخرى (إن الله تواب) لكن فى الآية الأولى لما كان الابتداء بالنهى فى قوله (لا يسخر قوم من قوم) ذكر النفى الذى هو قريب من النهى ، وفى الآية الثانية لما كان الابتداء بالأمر فى قوله (اجتنبوا) ذكر الارتياب الذى هو قريب من الأمر .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ .

تبييناً لما تقدم وتقريراً له ، وذلك لأن السخرية من الغير والعيب إن كان بسبب التفاوت فى الدين والإيمان ، فهو جائز لما بينا أن قوله (لا يغتب بعضكم بعضاً) وقوله (ولا تلمزوا أنفسكم) منع من عيب المؤمن وغيبته ، وإن لم يكن لذلك السبب فلا يجوز ، لأن الناس بعمومهم كفاراً كانوا أو مؤمنين يشتركون فيما يفتخر به المفتخر غير الإيمان والكفر ، والافتخار إن كان بسبب الغنى ، فالكافر قد يكون غنياً ، والمؤمن فقيراً وبالعكس ، وإن كان بسبب النسب ، فالكافر قد يكون نسيباً ، والمؤمن قد يكون عبداً أسود وبالعكس ، فالناس فيما ليس من الدين والتقوى متساوون متقاربون ، وشىء من ذلك لا يؤثر مع عدم التقوى ، فإن كل من يتدين بدين يعرف أن من يوافقه فى دينه أشرف ممن يخالفه فيه ، وإن كان أرفع نسباً أو أكثر نشباً ، فكيف من له الدين الحق وهو فيه راسخ ، وكيف يرجح عليه من دونه فيه بسبب غيره ، وقوله تعالى (يا أيها

الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) فيه وجهان (أحدهما) من آدم وحواء (ثانيهما) كل واحد منكم أيها الموجودون وقت النداء خلقناه من أب وأم ، فإن قلنا أن المراد هو الأول ، فذلك إشارة إلى أن لا يتفاخر البعض على البعض لكونهم أبناء رجل واحد ، وامرأة واحدة ، وإن قلنا إن المراد هو الثانى ، فذلك إشارة إلى أن الجنس واحد ، فإن كل واحد خلق كما خلق الآخر من أب وأم ، والتفاوت فى الجنس دون التفاوت فى الجنسين ، فإن من سنن التفاوت أن لا يكون تقدير التفاوت بين الذباب والذئاب ، لكن التفاوت الذى بين الناس بالكفر والإيمان كالتفاوت الذى بين الجنسين ، لأن الكافر جماد إذ هو كالأنعام ، بل أضل . والمؤمن إنسان فى المعنى الذى ينبغى أن يكون فيه ، والتفاوت فى الإنسان تفاوت فى الحس لا فى الجنس . إذ كلهم من ذكر وأنثى ، فلا يبقى لذلك عند هذا اعتبار ، وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ فإن قيل هذا مبنى على عدم اعتبار النسب ، وليس كذلك فإن للنسب اعتباراً عرفاً وشرعاً ، حتى لا يجوز تزويج الشريفة بالنبطى ، فنقول إذا جاء الأمر العظيم لا يبقى الأمر الحقير معتبراً ، وذلك فى الحس والشرع والعرف ، أما الحس فلأن الكواكب لا ترى عند طلوع الشمس ، ولجناح الذباب دوى ولا يسمع عند مايكون رعد قوى ، وأما فى العرف ، فلأن من جاء مع الملك لا يبقى له اعتبار ولا إليه التفات ، إذا علمت هذا فيهما ففى الشرع كذلك ، إذا جاء الشرف الدينى الإلهى ، لا يبقى لأمر هناك اعتبار ، لا لنسب ولا لنشب ، ألا ترى أن الكافر وإن كان من أعلى الناس نسباً ، والمؤمن وإن كان من أدونهم نسباً ، لا يقاس أحدهما بالآخر ، وكذلك ما هو من الدين مع غيره ، ولهذا يصلح للمناصب الدينية كالقضاء والشهادة كل شريف ووضيع إذا كان ديناً عالماً صالحاً ، ولا يصلح لشىء منها فاسق ، وإن كان قرشى النسب ، وقارونى النشب ، ولكن إذا اجتمع فى اثنين الدين المتين ، وأحدهما نسيب ترجح بالنسب عند الناس لا عند الله لأن الله تعالى يقول (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) وشرف النسب ليس مكتسباً ولا يحصل بسعى .

﴿ البحث الثانى ﴾ ما الحكمة فى اختيار النسب من جملة أسباب التفاخر ، ولم يذكر المال ؟ نقول الأمور التى يفتخر بها فى الدنيا وإن كانت كثيرة لكن النسب أعلاها ، لأن المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به ، والحسن والسن ، وغير ذلك غير ثابت دائم ، والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له فاختاره الله للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بالطريق الأولى .

﴿ البحث الثالث ﴾ إذا كان ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى فهل لقوله تعالى (إنا خلقناكم) فائدة ؟ نقول نعم ، وذلك لأن كل شىء يترجح على غيره ، فإما أن يترجح بأمر فيه يلحقه ، ويترتب عليه بعد وجوده ، وإما أن يترجح عليه بأمر هو قبله ، والذى بعده

كالحسن والقوة وغيرهما من الأوصاف المطلوبة من ذلك الشيء ، والذى قبله فإما راجع إلى الأصل الذى منه وجد ، أو إلى الفاعل الذى هو له أوجد ، كما يقال فى إناءين هذا من النحاس وهذا من الفضة ، ويقال هذا عمل فلان ، وهذا عمل فلان ، فقال تعالى لا ترجيح فيما خلقتم منه لأنكم كلكم من ذكر وأنثى ، ولا بالنظر إلى جاعلين لأنكم كلكم خلقكم الله ، فإن كان بينكم تفاوت يكون بأمور تلحقكم وتحصل بعد وجودكم وأشرفها التقوى والقرب من الله تعالى .

ثم قال تعالى (وجعلناكم شعوباً وقبائل) وفيه وجهان : (أحدهما) (جعلناكم شعوباً) متفرقة لا يدرى من يجمعكم كالعجم ، وقبائل يجمعكم واحد معلوم كالعرب وبنى إسرائيل (وثانيهما) (جعلناكم شعوباً) داخلين فى قبائل ، فإن القبيلة تحتها الشعوب ، وتحت الشعوب البطون وتحت البطون الأفخاذ ، وتحت الأفخاذ الفصائل ، وتحت الفصائل الأقارب ، وذكر الأعم لأنه أذهب للافتخار ، لأن الأمر الأعم منها يدخله فقراء وأغنياء كثيرة غير محصورة ، وضعفاء وأقوياء كثيرة غير معدودة ، ثم بين فائدة ذلك وهى التعارف وفيه وجهان : (أحدهما) أن فائدة ذلك التناصر لا التفاخر (وثانيهما) أن فائدته التعارف لا التناكر ، واللمز والسخرية والغيبة تفضى إلى التناكر لا إلى التعارف وفيه معان لطيفة (الأولى) قال تعالى (إنا خلقناكم) وقال (وجعلناكم) لأن الخلق أصل تفرع عليه الجعل (شعوباً) فإن الأول هو الخلق والإيجاد ، ثم الاتصاف بما اتصفوا به ، لكن الجعل شعوباً للتعارف والخلق للعبادة كما قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) واعتبار الأصل متقدم على اعتبار الفرع ، فاعلم أن النسب يعتبر بعد اعتبار العبادة كما أن الجعل شعوباً يتحقق بعد ما يتحقق الخلق ، فإن كان فيكم عبادة تعتبر فيكم أنسابكم وإلا فلا (الثانية) قوله تعالى (خلقناكم ، وجعلناكم) إشارة إلى عدم جواز الافتخار لأن ذلك ليس اسعيكم ولا قدرة لكم على شىء من ذلك ، فكيف تفتخرون بما لا مدخل لكم فيه ؟ فإن قيل الهداية والضلال كذلك لقوله تعالى (إنا هديناه السبيل ، نهدى من نشاء) فنقول أثبت الله لنا فيه كسباً مبنياً على فعل ، كما قال الله تعالى (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) .

ثم قال تعالى (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) وأما فى النسب فلا (الثالثة) قوله تعالى (لتعارفوا) إشارة إلى قياس خفى ، وبيانه هو أنه تعالى قال : إنكم جعلتم قبائل لتعارفوا وأنتم إذا كنتم أقرب إلى شريف تفتخرون به فخلقكم لتعرفوا ربكم ، فإذا كنتم أقرب منه وهو أشرف الموجودات كان الأحق بالافتخار هناك من الكل الافتخار بذلك (الرابعة) فيه إرشاد إلى برهان يدل على أن الافتخار ليس بالأنساب ، وذلك لأن القبائل للتعارف بسبب الانتساب إلى شخص فإن كان ذلك الشخص شريفاً صح الافتخار فى ظنكم ، وإن لم يكن شريفاً لم يصح ، فشرف ذلك الرجل الذى تفتخرون به هو بانتسابه إلى فصيلة أو باكتساب فضيلة ، فإن كان بالانتساب لزم الانتهاء ، وإن كان بالاكتساب فالدين الفقيه الكريم المحسن صار مثل من يفتخر به المفتخر ، فكيف

يفتخر بالآب وأب الآب على من حصل له من الحظ والخير ما فضل به نفسه عن ذلك الآب والجد؟ اللهم إلا أن يجوز شرف الانتساب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أحداً لا يقرب من الرسول فى الفضيلة حتى يقول أنا مثل أبيك ، ولكن فى هذا النسب أثبت النبى صلى الله عليه وسلم الشرف لمن انتسب إليه بالاكتساب ، ونفاه لمن أراد الشرف بالانتساب ، فقال « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » . وقال « العلماء ورثة الأنبياء » أى لا نورث بالإنتساب ، وإنما نورث بالاكتساب ، سمعت أن بعض الشرفاء فى بلاد خراسان كان فى النسب أقرب الناس إلى على عليه السلام غير أنه كان فاسقاً ، وكان هناك مولى أسود تقدم بالعلم والعمل ، ومال الناس إلى التبرك به فاتفق أنه خرج يوماً من بيته يقصد المسجد ، فأتبعه خلق فلقيه الشريف سكران ، وكان الناس يطردون الشريف ويبعدونه عن طريقه ، فغلبهم وتعلق بأطراف الشيخ وقال له : يا أسود الحوافر والشوافر ، يا كافر ابن كافر ، أنا ابن رسول الله ، أذل وتجل ! وأذم وتكرم ! وأهان وتعان ! فهم الناس بضربه فقال الشيخ : لا هذا محتمل منه لجده ، وضربه معدود لحده ، ولكن يا أيها الشريف بيضت باطنى وسودت باطنك ، فيرى الناس بياض قلبى فوق سواد وجهى فحسنت ، وأخذت سيرة أبيك وأخذت سيرة أبى ، فرآنى الخلق فى سيرة أبيك ورأوك فى سيرة أبى فظنونى ابن أبيك وظنوك ابن أبى ، فعملوا معك ما يعمل مع أبى ، وعملوا معى ما يعمل مع أبيك ! .

قوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وفيه وجهان : (أحدهما) أن المراد من يكون أتقى يكون عند الله أكرم أى التقوى تفيد الإكرام (ثانيهما) أن المراد أن من يكون أكرم عند الله يكون أتقى أى الإكرام يورث التقوى كما يقال : المخلصون على خطر عظيم ، والأول أشهر والثانى أظهر لأن المذكور ثانياً ينبغى أن يكون محمولا على المذكور أولا فى الظاهر فيقال الإكرام للتقى ، لكن ذوا العموم فى المشهور هو الأول ، يقال ألذ الأطعمة أحلاها أى اللذة بقدر الحلاوة لا أن الحلاوة بقدر اللذة ، وهى إثبات لكون التقوى متقدمة على كل فضيلة ، فإن قيل التقوى من الأعمال والعلم أشرف ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » نقول التقوى ثمرة العلم قال الله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فلا تقوى إلا للعالم . فالمتقى العالم أتم علمه ، والعالم الذى لا يتقى كشجرة لا ثمرة لها ، لكن الشجرة المثمرة أشرف من الشجرة التى لا تثمر بل هو حطب ، وكذلك العالم الذى لا يتقى حصب جهنم ، وأما العابد الذى يفضل الله عليه الفقيه فهو الذى لا علم له ، وحينئذ لا يكون عنده من خشية الله نصاب كامل ، ولعله يعبده مخافة الإلقاء فى النار ، فهو كالمكره ، أو لدخول الجنة ، فهو يعمل كالفاعل له أجرة ويرجع إلى بيته ، والمتقى هو العالم بالله ، المواظب لبابه ، أى المقرب إلى جنابه عنده يبيت . وفيه مباحث :

﴿البحث الأول﴾ الخطاب مع الناس والأكرم يقتضى اشتراك الكل فى الكرامة ولا كرامة

قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

للكافر ، فإنه أضل من الأنعام وأذل من الهوام . نقول ذلك غير لازم مع أنه حاصل بدليل قوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) لأن كل من خلق فقد اعترف بربه ، كأنه تعالى قال من استمر عليه لو زاد زيد فى كرامته ، ومن رجع عنه أزيل عنه أثر الكرامة (الثانى) ما حد التقوى ومن الأتقى ؟ نقول أدنى مراتب التقوى أن يجتنب العبد المناهى ويأتى بالأوامر ولا يقر ولا يأمن إلا عندهما فإن اتفق أن ارتكب منهياً لا يأمن ولا يتكل له بل يتبعه بحسنة ويظهر عليه ندامة وتوبة ، ومتى ارتكب منهياً وما تاب فى الحال واتكل على المهلة فى الأجل ومنعه عن التذاكر طول الأمل فليس بمتق ، أما الأتقى فهو الذى يأتى بما أمر به ويترك ما نهى عنه ، وهو مع ذلك خاش ربه لا يشتغل بغير الله ، فينور الله قلبه ، فإن التفت لحظة إلى نفسه أو ولده جعل ذلك ذنبه ، وللأولين النجاة لقوله تعالى (ثم ننجي الذين اتقوا) وللآخرين السوق إلى الجنة لقوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فبين من أعطاه السلطان بستاناً وأسكنه فيه ، وبين من استخلصه لنفسه يستفيد كل يوم بسبب القرب منه بساتين .وضياعاً بون عظيم .

قوله تعالى : ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ أى عليم بظواهركم ، يعلم أنسابكم خبير ببواطنكم لا تخفى عليه أسراركم ، فاجعلوا التقوى عملكم وزيدوا فى التقوى كما زادكم .

قوله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم ﴾ .

لما قال تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) والأتقى لا يكون إلا بعد حصول التقوى ، وأصل الإيمان هو الاتقاء من الشرك ، قالت الأعراب لنا النسب الشريف ، وإنما يكون لنا الشرف ، قال الله تعالى : ليس الإيمان بالقول ، إنما هو بالقلب . فما آمنتم لأنه خبير يعلم ما فى الصدور ، (ولكن قولوا أسلمنا) أى انقدنا واستسلمنا ، قيل إن الآية نزلت فى بنى أسد ، أظهروا الإسلام فى سنة مجدبة طالبين الصدقة ولم يكن قلبهم مطمئناً بالإيمان ، وقد بينا أن ذلك كالتاريخ للنزول لا للاختصاص بهم ، لأن كل من أظهر فعل المتقين وأراد أن يصير له ما للأتقياء من الإكرام لا يحصل له ذلك ، لأن التقوى من عمل القلب ، وقوله تعالى (قل لم تؤمنوا) فى تفسيره مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال تعالى (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) وقال ههنا (قل لم تؤمنوا) مع أنهم ألقوا إليهم السلام ، نقول إشارة إلى أن عمل القلب غير معلوم واجتناب الظن واجب ، وإنما يحكم بالظاهر فلا يقال لمن يفعل فعلا هو مرائى ، ولا لمن أسلم هومنافق ، ولكن الله خبير بما فى الصدور ، إذا قال فلان ليس بمؤمن حصل الجزم ، وقوله تعالى (قل لم تؤمنوا) فهو الذى جوز لنا ذلك القول ، وكان معجزة للنبى ﷺ حيث أطلعه الله على الغيب وضمير قلوبهم ، فقال لنا : أنتم لا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً لعدم علمكم بما فى قلبه

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم ولما حرفا نفى ، وما وإن ولا كذلك من حروف النفى ، ولم ولما يجزمان وغيرهما من حروف النفى لايجزم . فما الفرق بينهما ؟ نقول لم ولما يفعلان بالفعل ما لا يفعل به غيرهما ، فإنهما يغيران معناه من الاستقبال إلى المضى ، تقول لم يؤمن أمس وآمن اليوم ، ولا تقول لا يؤمن أمس ، فلما فعلا بالفعل مالم يفعل به غيرهما جزم بهما ، فإن قيل مع هذا لم جزم بهما غاية مافى الباب أن الفرق حصل ، ولكن ما الدليل على وجوب الجزم بهما ؟ نقول لأن الجزم والقطع يحصل فى الأفعال الماضية ، فإن من قال قام حصل القطع بقيامه ، ولا يجوز أن يكون ما قام والأفعال المستقبلة إما متوقعة الحصول وإما ممكنة غير متوقعة ، ولا يحصل القطع والجزم فيه ، فإذا كان لم ولما يقلبان اللفظ من الاستقبال إلى المضى كانا يفيدان الجزم والقطع فى المعنى فجعل لهما تناسباً بالمعنى وهو الجزم لفظاً ، وعلى هذا نقول السبب فى الجزم ما ذكرنا ، وهذا فى الأمر يجزم كأنه جزم على المأمور أنه يفعله ولا يتركه ، فأى فائدة فى أن اللفظ يجزم مع أن الفعل فيه لابد من وقوعه وأن فى الشرط تغير ، وذلك لأن إن تغير معنى الفعل من المضى إلى الاستقبال أن لم تغيره من الاستقبال إلى المضى ، تقول : إن جئتنى جئتك ، وإن أكرمتنى أكرمتك ، فلما كان إن مثل لم فى كونه حرفاً ، وفى لزوم الدخول على الأفعال وتغييره معنى الفعل صار جازماً لشبه لفظى ، أما الجزاء فجزم لما ذكرنا من المعنى ، فإن الجزاء يجزم بوقوعه عند وجود الشرط ، فالجزم إذاً إما لمعنى أو لشبه لفظى ، كما أن الجزاء كذلك فى الإضافة وفى الجر بحرف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (ولكن قولوا) يقتضى قولا سابقاً مخالفاً لما بعده ، كقولنا (لاتقدموا آمنا ولكن قولوا أسلمنا) وفى ترك التصريح به إرشاد وتأديب كأنه تعالى لم يجز النهى عن قولهم (آمنا) فلم يقل لاتقولوا آمنا وأرشدهم إلى الامتناع عن الكذب فقال (لم تؤمنوا) فإن كنتم تقولون شيئاً فقولوا أمراً عاماً ، لايلزم منه كذبكم وهو كقولهم (أسلمنا) فإن الإسلام بمعنى الانقياد حصل .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة ، فكيف يفهم ذلك مع هذا ؟ نقول بين العام والخاص فرق ، فالإيمان لايحصل إلا بالقلب وقد يحصل باللسان ، والإسلام أعم

لكن العام في صورة الخاص متحد مع الخاص ، ولا يكون أمراً آخر غيره ، مثاله الحيوان أعم من الإنسان لكن الحيوان في صورة الإنسان ليس أمراً ينفك عن الإنسان ولا يجوز أن يكون ذلك الحيوان حيواناً ولا يكون إنساناً ، فالعام والخاص مختلفان في العموم متحدان في الوجود ، فكذلك المؤمن والمسلم ، وسنبين ذلك في تفسير قوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) إن شاء الله تعالى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) هل فيه معنى قوله تعالى (قل لم تؤمنوا) ؟ نقول نعم وبيانه من وجوه (الأول) هو أنهم لما قالوا آمنا وقيل لهم (لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) قالوا إذا أسلمنا فقد آمنا ، قيل لا فإن الإيمان من عمل القلب لا غير والإسلام قد يكون عمل اللسان ، وإذا كان ذلك عمل القلب ولم يدخل في قلوبكم الإيمان لم تؤمنوا (الثاني) لما قالوا آمنا وقيل لهم لم تؤمنوا قالوا جدلا قد آمنا عن صدق نية مؤكدين لما أخبروا فقال (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) لأن لما يفعل يقال في مقابلة قد فعل ، ويحتمل أن يقال بأن الآية فيها إشارة إلى حال المؤلفة إذا أسلموا ويكون إيمانهم بعد ضعيفاً قال لهم (لم تؤمنوا) لأن الإيمان إيقان وذلك بعد لم يدخل في قلوبكم وسيدخل باطلاعكم على محاسن الإسلام (وإن تطيعوا الله ورسوله) يكمل لكم الأجر ، والذي يدل على هذا هو أن لما فيها معنى التوقع والانتظار ، والإيمان إما أن يكون بفعل المؤمن واكتسابه ونظره في الدلائل ، وإما أن يكون إلهاما يقع في قلب المؤمن فقوله (قل لم تؤمنوا) أي ما فعلتم ذلك ، وقوله تعالى (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) أي ولا دخل الإيمان في قلبكم إلهاماً من غير فعلكم فلا إيمان لكم حينئذ . ثم إنه تعالى عند فعلهم قال (لم تؤمنوا) بحرف ليس فيه معنى الانتظار لقصور نظرهم وفتور فكرهم ، وعند فعل الإيمان قال لما يدخل بحرف فيه معنى التوقع لظهور قوة الإيمان ، كأنه يكاد يغشي القلوب بأسرها .

قوله تعالى : ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم ﴾ أي لا ينقصكم والمراد أنكم إذا أتيتم بما يليق بضعفكم من الحسنة فهو يؤتيكم ما يليق به من الجزاء ، وهذا لأن من حمل إلى ملك فاكهة طيبة يكون ثمنها في السوق درهما ، وأعطاه الملك درهما أو ديناراً ينسب الملك إلى قلة العطاء بل البخل ، فليس معناه أنه يعطي مثل ذلك من غير نقص ، بل المعنى يعطي ما تتوقعون بأعمالكم من غير نقص . وفيه تحريض على الإيمان الصادق ، لأن من أتى بفعل من غير صدق نية يضيع عمله ولا يعطي عليه أجراً فقال (وإن تطيعوا) وتصدقوا لا ينقص عليكم ، فلا تضيعوا أعمالكم بعدم الاخلاص ، وفيه أيضاً تسلية لقلوب من تأخر إيمانه ، كأنه يقوله غيري سبقني وآمن حين كان النبي وحيداً وآواه حين كان ضعيفاً ، ونحن آمنا عند ما عجزنا عن مقاومته وغلبنا بقوته ، فلا يكون لإيماننا وقع ولا لنا عليه أجر ، فقال تعالى إن أجركم لا ينقص وما تتوقعون تعطون ، غاية ما في الباب أن المتقدم يزيد في أجورهم ، وماذا عليكم إذا أرضاكم الله أن يعطي غيركم من خزائن رحمته

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾

رحمة واسعة ، وما حالكم فى ذلك إلا حال ملك أعطى واحداً شيئاً وقال لغيره ماذا تتمنى؟ فتمنى عليه بلدة واسعة وأموالا فأعطاه ووفاه ، ثم زاد ذلك الأول أشياء أخرى من خزائنه فإن تأذى من ذلك يكون بخلا وحسداً ، وذلك فى الآخرة لا يكون ، وفى الدنيا هو من صفة الارازل ، وقوله تعالى (إن الله غفور رحيم) أى يغفر لكم ما قد سلف ويرحمكم بما أتيتم به .

قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ .

إرشاداً للأعراب الذين قالوا آمنا إلى حقيقة الإيمان فقال إن كنتم تريدون الإيمان فالمؤمنون من آمن بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، يعنى أيقنوا بأن الإيمان إيقان ، وثم للتراخى فى الحكاية ، كأنه يقول آمنوا ، ثم أقول شيئاً آخر لم يرتابوا ، ويحتمل أن يقال هو للتراخى فى الفعل تقديره آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فيما قال النبى صلى الله عليه وسلم من الحشر والنشر ، وقوله تعالى (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) يحقق ذلك ، أى أيقنوا أن بعد هذه الدار داراً فجاهدوا طالبين العقبى ، وقوله (أولئك هم الصادقون) فى إيمانهم ، لا الأعراب الذين قالوا قولا ولم يخلصوا عملا .

قوله تعالى : ﴿ قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شىء عليم ﴾ .

فإنه عالم به لا يخفى عليه شىء ، وفيه إشارة إلى أن الدين ينبغى أن يكون لله وأنتم أظهرتموه لنا لا لله ، فلا يقبل منكم ذلك .

قوله تعالى : ﴿ يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان إن كنتم صادقين ﴾ .

يقرر ذلك ويبين أن إسلامهم لم يكن لله ، وفيه لطائف (الأولى) فى قوله تعالى (يمنون عليك)

إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

زيادة بيان لقبيح فعلهم وذلك لأن الإيمان له شرفان (أحدهما) بالنسبة إلى الله تعالى وهو تنزيه الله عن الشرك وتوحيده فى العظمة و (ثانيهما) بالنسبة إلى المؤمن فإنه ينزه النفس عن الجهل ويزينها بالحق والصدق ، فهم لا يطلبون بإسلامهم جانب الله ولا يطلبون شرف أنفسهم بل منوا ولو علموا أن فيه شرفهم لما منوا به بل شكروا .

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ قال (قل لا تمنوا على إسلامكم) أى الذى عندكم إسلام ، ولهذا قال تعالى (ولكن قولوا أسلمنا) ولم يقل : لم تؤمنوا ولكن أسلمتم لئلا يكون تصديقاً لهم فى الإسلام أيضاً كما لم يصدقوا فى الإيمان ، فإن قيل لم لم يجز أن يصدقوا فى إسلامهم ، والإسلام هو الانقياد ، وقد وجد منهم قولا وفعلا وإن لم يوجد اعتقاداً وعلماً وذلك القدر كاف فى صدقهم ؟ نقول التكذيب يقع على وجهين (أحدهما) أن لا يوجد نفس المخبر عنه (وثانيهما) أن لا يوجد كما أخبر فى نفسه فقد يقول ما جئتنا بل جاءت بك الحاجة ، فالله تعالى كذبهم فى قولهم آمنا على الوجه الأول ، أى ما آمنتم أصلا ولم يصدقوا فى الإسلام على الوجه الثانى فانهم انقادوا للحاجة وأخذ الصدقة .

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ قال (بل الله يمن عليكم) يعنى لا منة لكم ومع ذلك لا تسلمون رأساً برأس بحيث لا يكون لكم علينا ولا لنا عليكم منة ، بل المنة عليكم ، وقوله تعالى (بل الله يمن عليكم) حسن أدب حيث لم يقل لا تمنوا على بل لى المنة عليكم حيث بينت لكم الطريق المستقيم ، ثم فى مقابلة هذا الأدب قال الله تعالى (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) .

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ لم يقل يمن عليكم أن أسلمتم بل قال (أن هداكم للايمان) لأن إسلامهم كان ضلالا حيث كان نفاقاً فما من به عليهم ، فإن قيل كيف من عليهم بالهداية إلى الإيمان مع أنه بين أنهم لم يؤمنوا ؟ نقول الجواب عنه من ثلاثة أوجه (أحدها) أنه تعالى لم يقل : بل الله يمن عليكم أن رزقكم الإيمان ، بل قال (أن هداكم للايمان) وإرسال الرسل بالآيات البينات هداية (ثانيها) هو أنه تعالى يمن عليهم بما زعموا ، فكأنه قال أنتم قلتم آمنا ، فذلك نعمة فى حقكم حيث تخلصتم من النار ، فقال هداكم فى زعمكم (ثالثها) وهو الأصح ، هو أن الله تعالى بين بعد ذلك شرطاً فقال (إن كنتم صادقين) .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾ .

إشارة إلى أنه لا يخفى عليه أسراركم ، وأعمال قلوبكم الخفية ، وقال (بصير بما تعملون) يبصر أعمال جوارحكم الظاهرة ، وآخر السورة مع التئامه بما قبله فيه تقرير ما فى أول السورة ، وهو قوله تعالى (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله) فإنه لا يخفى عليه سر ، فلا تتركوا خوفه فى السر ولا يخفى عليه علن فلا تأمنوه فى العلانية ، والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

٤٩ ــ سورة الحجرات

(مدنية وهى ثمانى عشرة آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ٤٩ الحجرات

من نعوتهم الجليلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو شأنه وبعد منزلته فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (مثلهم) أى وصفهم العجيب الشأن الجارى فى الغرابة مجرى * الأمثال وقوله تعالى (فى التوراة) حال من مثلهم والعامل معنى الإشارة وقوله تعالى (ومثلهم فى الإنجيل) * عطف على مثلهم الأول كأنه قيل ذلك مثلهم فى التوراة والإنجيل وتكرير مثلهم لتأكيد غرابته وزيادة تقريرها وقوله تعالى (كزرع أخرج شطأه) الخ تمثيل مستأنف أى هم كزرع أخرج فراخه وقيل * هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهمة وقيل خبر لقوله تعالى ومثلهم فى الإنجيل على أن الكلام قد تم عند قوله تعالى مثلهم فى التوراة وقرىء شطأه بفتحات وقرىء شطاه بفتح الطاء وتخفيف الهمزة وشطاءه بالمد وشطه بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى ماقبلها وشطوه بقلبها واو (فآزره) فقواه من * المؤازرة بمعنى المعاونة أو من الإيزار وهى الإعانة وقرىء فأزره بالتخفيف وأزره بالتشديد أى شد أزره وقوله تعالى (فاستغلظ) فصار غليظاً بعد ما كان دقيقاً (فاستوى على سوقه) فاستقام على قصبه * جمع ساق وقرىء سؤقه بالهمزة (يعجب الزراع) بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره وهو مثل * ضربه الله عز وجل لأصحابه عليه الصلاة والسلام قلوا فى بدء الإسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم يوماً فيوماً بحيث أعجب الناس وقيل مكتوب فى الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقوله تعالى (ليغيظ بهم الكفار) علة لما يعرب عنه الكلام * من تشبيههم بالزرع فى زكائه واستحكامه أو لما بعده من قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا * الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما) فإن الكفار إذا سمعوا بما أعد للمؤمنين فى الآخرة مع مالهم فى الدنيا من العزة غاظهم ذلك أشد غيظ ومنهم للبيان . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة .

﴿ سورة الحجرات مدنية وآياتها ثمانى عشرة ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (يأيها الذين آمنوا) تصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن مافى حيزه أمر خطير يستدعى مزيد اعتنائهم بشأنه وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع إلى المحافظة عليه ووازع عن الإخلال به (لا تقدموا) أى لا تفعلوا * التقديم على أن ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل من غير اعتبار تعلقه بأمر من الأمور على طريقة قولهم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ٤٩ الحجرات

فلان يعطى ويمنع أى يفعل الإعطاء والمنع أو لاتقدموا أمراً من الأمور على أن حذف المفعول للقصد إلى تعميمه والأول أو فى بحق المقام لإفادته النهى عن التلبس بنفس الفعل الموجب لانتفائه بالكلية المستلزم لانتفاء تعلقه بمفعوله بالطريق البرهانى وقد جوز أن يكون التقديم بمعنى التقدم ومنه مقدمة الجيش للجماعة المتقدمة ويعضده قراءة من قرألاتقدموا بحذف إحدى التاءين من تتقدموا

* وقرىء لا تقدموا من القدوم وقوله تعالى (بين يدى الله ورسوله) مستعار مما بين الجهتين المسامتتين ليدى الإنسان تهجينا لما نهوا عنه والمعنى لاتقطعوا أمراً قبل أن يحكما به وقيل المراد بين يدى رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيمه والإيذان بجلالة محله عنده عز وجل قيل نزل فيما جرى بين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما لدى النبي صلى الله عليه وسلم فى تأمير الأقرع بن حابس أو القعقاع بن معبد

* (واتقوا الله) فى كل ماتأتون وما تذرون من الأقوال والأفعال التى من جملتها مانحن فيه (إن الله

٢ سميع) لأقوالكم (عليم) بأفعالكم فمن حقه أن يتقى ويراقب (يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) شروع فى النهى عن التجاوز فى كيفية القول عند النبي عليه الصلاة والسلام بعد النهى عن التجاوز فى نفس القول والفعل وإعادة النداء مع قرب العهد به للمبالغة فى الإيقاظ والتنبيه والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه أى لا تبلغوا بأصواتكم وراء حد

* يبلغه عليه الصلاة والسلام بصوته وقرىء لاترفعوا بأصواتكم على أن الباء زائدة (ولا تجهروا له

* بالقول) إذا كلمتموه (كجهر بعضكم لبعض) أى جهراً كائناً كالجهر الجارى فيما بينكم بل اجعلوا صوتكم أخفض من صوته عليه الصلاة والسلام وتعهدوا فى مخاطبته اللين القريب من الهمس كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم وحافظوا على مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها وقيل معنى لاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض لاتقولوا له يامحمد يا أحمد وخاطبوه بالنبوة قال ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر يارسول الله والله لاأكلمك إلا السرار أو أخا السرار حتى ألقى الله تعالى وعن عمر رضى الله عنه أنه كان يكلمه عليه الصلاة والسلام كأخى السرار لايسمعه حتى يستفهمه وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفود أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى

* (أن تحبط أعمالكم) إما علة للنهى أى لاتجهروا خشية أن تحبط أو كراهة أن تحبط كما فى قوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا أو للمنهى أى لاتجهروا لأجل الحبوط فإن الجهر حيث كان بصدد الأداء إلى الحبوط فكأنه فعل لأجله على طريقة التمثيل كقوله تعالى ليكون لهم عدواً وحزناً وليس المراد بما نهى عنه من الرفع والجهر ما يقارنه الاستخفاف والاستهانة فإن ذلك كفر بل مايتوهم أن يؤدى إليه مما يجرى بينهم فى أثناء المحاورة من الرفع والجهر حسبما يعرب عنه قوله تعالى كجهر بعضكم

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ٤٩ الحجرات

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ٤٩ الحجرات

لبعض خلا أن رفع الصوت فوق صوته عليه الصلاة والسلام لما كان منكراً محضاً لم يقيد بشىء ولا مايقع منهما فى حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو أو نحو ذلك وعن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس وكان فى أذنه وقر وكان جهورى الصوت وربما كان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته وعن أنس رضى الله عنه أنه لما نزلت الآية فقد ثابت وتفقده عليه الصلاة والسلام فأخبر بشأنه فدعاه فسأله فقال يا رسول الله لقد أنزلت إليك هذه الآية وإنى رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملى قد حبط فقال له عليه الصلاة والسلام لست هناك إنك تعيش بخير وتموت بخير وإنك من أهل الجنة وأما مايروى عن الحسن من أنها نزلت فى بعض المنافقين الذين كانوا يرفعون أصواتهم فوق صوته عليه الصلاة والسلام فقد قيل محمله أن نهيهم مندرج تحت نهى المؤمنين بدلالة النص (وأنتم لاتشعرون) حال من فاعل تحبط أى والحال أنكم لاتشعرون * بحبوطها وفيه مزيد تحذير مما نهوا عنه وقوله تعالى (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) الخ ٣ ترغيب فى الانتهاء عما نهوا عنه بعد الترهيب عن الإخلال به أى يخفضونها مراعاة للأدب أو خشية من مخالفة النهى (أولئك) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد * مع قرب العهد بالمشار إليه لما مر مراراً من تفخيم شأنه وهو مبتدأ خبره (الذين امتحن الله قلوبهم * للتقوى) أى جربها للتقوى ومرنها عليها أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها فإن الامتحان سبب المعرفة واللام صلة لمحذوف أو للفعل باعتبار الأصل أو ضرب قلوبهم بضروب المحن والتكاليف الشاقة لأجل التقوى فإنها لاتظهر إلا بالاصطبار عليها أو أخلصها للتقوى من امتحن الذهب إذا أذابه وميز إبريزه * من خبثه وعن عمر رضى الله عنه أذهب عنها الشهوات (لهم) فى الآخرة (مغفرة) عظيمة لذنوبهم * (وأجر عظيم) لايقادر قدره والجملة إما خبر آخر لأن كالجملة المصدرة باسم الإشارة أو استئناف * لبيان جزائهم إحماداً لحالهم وتعريضاً بسوء حال من ليس مثلهم (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) ٤ أى من خارجها من خلفها أو قدامها ومن ابتدائية دالة على أن المناداة نشأت من جهة الوراء وأن المنادى داخل الحجرة لوجوب اختلاف المبدأ والمنتهى بحسب الجهة بخلاف ما لو قيل ينادونك وراء الحجرات وقرىء الحجرات بفتح الجيم وبسكونها وثلاثتها جمع حجرة وهى القطعة من الأرض المحجورة بالحائط ولذلك يقال لحظيرة الإبل حجرة وهى فعلة من الحجر بمعنى مفعول كالغرفة والقبضة والمراد بها حجرات أمهات المؤمنين ومناداتهم من ورائها إما بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه عليه الصلاة والسلام من ورائها أو بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له عليه الصلاة والسلام فناد..

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ٤٩ الحجرات

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ٤٩ الحجرات

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ٤٩ الحجرات

بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك فأسند فعل الأبعاض إلى الكل وقد جوز أن يكونوا قد نادوه من وراء الحجرة التى كان عليه الصلاة والسلام فيها ولكنها جمعت إجلالا له عليه الصلاة والسلام وقيل إن الذى ناداه عيينة بن حصن الفزارى والأقرع بن حابس وفدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين رجلا من بنى تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا يا محمد اخرج إلينا وإنما أسند النداء إلى الكل لأنهم رضوا بذلك أو أمروا به أو لأنه وجد فيما بينهم (أكثرهم لا يعقلون) إذ لو كان لهم عقل لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الأدب (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم) أى ولو تحقق صبرهم وانتظارهم حتى تخرج إليهم فإن أن وإن دلت بما فى حيزها على المصدر لكنها تفيد بنفسها التحقق والثبوت الفرق البين بين قولك بلغنى قيامك وبلغنى أنك قائم وحتى تفيد أن الصبر ينبغى أن يكون مغيا بخروجه عليه الصلاة والسلام فإنها مختصة بما هو غاية للشىء فى نفسه ولذلك تقول أكلت السمكة حتى رأسها ولا تقول حتى نصفها أو ثلثها بخلاف إلى فإنها عامة وفى إليهم إشعار بأنه لو خرج لا لأجلهم ينبغى أن يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجه إليهم (لكان) أى الصبر المذكور (خيراً لهم) من الاستعجال لما فيه من رعاية حسن الأدب وتعظيم الرسول الموجبين للثناء والثواب والإسعاف بالمسؤول إذ روى أنهم وفدوا شافعين فى أسارى بنى العنبر فأطلق النصف وفادى النصف (والله غفور رحيم) بليغ المغفرة والرحمة واسعهما فلن يضيق ساحتهما عن هؤلاء إن تابوا وأصلحوا (يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) أى فتعرفوا وتفحصوا روى أنه عليه الصلاة والسلام بعث الوليد ابن عقبة أخا عثمان رضى الله عنه لأمه مصدقا إلى بنى المصطلق وكان بينه وبينهم إحنة فلما سمعوا به استقبلوه فحسب أنهم مقاتلوه فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة فهم عليه الصلاة والسلام بقتالهم فنزلت وقيل بعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين فسلموا إليه الصدقات فرجع وفى ترتيب الأمر بالتبين على فسق المخبر إشارة إلى قبول خبر الواحد العدل فى بعض المواد وقرىء فتثبتوا أى توقفوا إلى أن يتبين لكم الحال (أن تصيبوا) حذاراً أن تصيبوا (قوما بجهالة) ملتبسين بجهالة حالهم (فتصبحوا) بعد ظهور براءتهم عما أسند إليهم (على ما فعلتم) فى حقهم (نادمين) مغتمين غما لازماً متمنين أنه لم يقع فإن تركيب هذه الأحرف الثلاثة يدور مع الدوام (واعلموا

* أن فيكم رسول الله) أن بما فى حيزها ساد مسد مفعولى اعلموا باعتبار مابعده من قوله تعالى (لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) فإنه حال من أحد الضميرين فى فيكم والمعنى أن فيكم رسول الله كائناً على حالة يجب عليكم تغييرها أو كائنين على حالة الخ وهى أنكم تريدون أن يتبع عليه الصلاة والسلام رأيكم فى كثير من الحوادث ولو فعل ذلك لوقعتم فى الجهد والهلاك وفيه إيذان بأن بعضهم زينوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الإيقاع ببنى المصطلق تصديقاً لقول الوليد وأنه عليه الصلاة والسلام لم يطع رأيهم وأما صيغة المضارع فقد قيل إنها للدلالة على أن امتناع عنتهم لامتناع استمرار طاعته عليه الصلاة والسلام لهم لأن عنتهم إنما يلزم من استمرار الطاعة فيما يعن لهم من الأمور إذ فيه اختلال أمر الإيالة وانقلاب الرئيس مرؤساً لامن إطاعته فى بعض مايرونه نادراً بل فيها استمالتهم بلا معرة وقيل إنها للدلالة على أن امتناع عنتهم لاستمرار امتناع طاعته عليه الصلاة والسلام لهم فى ذلك فإن المضارع المنفى قد يدل على استمرار النفى بحسب المقام كما فى نظائر قوله تعالى ولا هم يحزنون والتحقيق أن الاستمرار الذى تفيده صيغة المضارع يعتبر تارة بالنسبة إلى مايتعلق بالفعل من الأمور الزمانية المتجددة وذلك بأن يعتبر الاستمرار فى نفس الفعل على الإبهام ثم يعتبر تعلق مايتعلق به بياناً لما فيه الاستمرار وأخرى بالنسبة إلى مايتعلق به من نفس الزمان المتجدد وذلك إذا اعتبر تعلقه بما يتعلق به أولا ثم اعتبر استمراره فيتعين أن يكون ذلك بحسب الزمان فإن أريد باستمرار الطاعة استمرارها وتجددها بحسب تجدد مواقعها الكثيرة التى يفصح عنها قوله تعالى فى كثير من الأمر فالحق هو الأول ضرورة أن مدار امتناع العنت هو امتناع ذلك الاستمرار سواء كان ذلك الامتناع بعدم وقوع الطاعة فى أمر ما من تلك الأمور الكثيرة أصلا أو بعدم وقوعها فى كلها مع وقوعها فى بعض يسير منها حتى لو لم يمتنع ذلك الاستمرار بأحد الوجهين المذكورين بل وقعت الطاعة فيما ذكر من كثير من الأمر فى وقت من الأوقات وقع العنت قطعاً وإن أريد به استمرار الطاعة الواقعة فى الكل وتجددها بحسب تجدد الزمان واستمراره فالحق هو الثانى فإن مناط امتناع العنت حينئذ ليس امتناع استمرار الطاعة المذكورة ضرورة أنه موجب لوقوع العنت بل هو الاستمرار الزمانى لامتناع تلك الطاعة الواقعة فى تلك الأمور الكثيرة بأحد الوجهين المذكورين حتى لو لم يستمر امتناعها بأن وقعت تلك الطاعة فى وقت من الأوقات وقع العنت حتما واعلم أن الأحق بالاختيار والأولى بالاعتبار هو الوجه الأول لأنه أوفق بالقياس المقتضى لاعتبار الامتناع وارداً على الاستمرار حسب ورود كلمة لو المفيدة للأول على صيغة المضارع المفيدة للثانى على أن اعتبار الاستمرار وارداً على النفى على خلاف القياس بمعونة المقام إنما يصار إليه إذا تعذر الجريان على موجب القياس أو لم يكن فيه مزيد مزية كما فى مثل قوله تعالى ولا هم يحزنون حيث حمل على استمرار نفى الحزن عنهم إذ ليس فى نفى استمرار الحزن مزيد فائدة وأما إذا انتظم الكلام مع مراعاة موجب القياس حق الانتظام فالعدول عنه تمحل لايخفى وقوله تعالى (ولكن الله حبب إليكم الإيمان) الخ تجريد للخطاب وتوجيه له إلى بعضهم بطريق *

الاستدراك بياناً لبراءتهم عن أوصاف الأولين وإحماداً لأفعالهم أى ولكنه تعالى جعل الإيمان

فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ٤٩ الحجرات

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ٤٩ الحجرات

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ٤٩ الحجرات

* محبوباً لديكم (وزينه فى قلوبكم) حتى رسخ حبه فيها ولذلك أتيتم بما يليق به من الأقوال والأفعال
* (وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) ولذلك اجتنبتم عما يليق بهاما لاخير فيه من آثارها وأحكامها ولما كان فى التحبيب والتكريه معنى إنهاء المحبة والكراهة وإيصالها إليهم استعملا بكلمة إلى وقيل هو استدراك ببيان عذر الأولين كأنه قيل لم يكن ماصدر عنكم فى حق بنى المصطلق من خلل فى عقيدتكم بل من فرط حبكم للإيمان وكراهتكم للكفر والفسوق والعصيان والأول هو الأظهر لقوله تعالى
* (أولئك هم الراشدون) أى السالكون إلى الطريق السوى الموصل إلى الحق والالتفات إلى الغيبة
٨ كالذى فى قوله تعالى وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون (فضلا من الله ونعمة) أى وإنعاماً تعليل لحبب أو كره وما بينهما اعتراض وقيل نصبهما بفعل مضمر أى جرى ذلك فضلا
* وقيل يبتغون فضلا (والله عليم) مبالغ فى العلم فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل (حكيم)
٩ يفعل كل مايفعل بموجب الحكمة (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) أى تقاتلوا والجمع باعتبار
* المعنى (فأصلحوا بينهما) بالنصح والدعاء إلى حكم الله تعالى (فإن بغت) أى تعدت (إحداهما على
* الأخرى) ولم تتأثر بالنصيحة (فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء) أى ترجع (إلى أمر الله) إلى حكمه أو
* إلى ما أمر به (فإن فاءت) إليه وأقلعت عن القتال حذاراً من قتالكم (فأصلحوا بينهما بالعدل) بفصل مابينهما على حكم الله تعالى ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما عسى أن يكون بينهما قتال فى وقت آخر
* وتقييد الإصلاح بالعدل لأنه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة وقد أكد ذلك حيث قيل (وأقسطوا)
* أى واعدلوا فى كل ماتأتون وماتذرون (إن الله يحب المقسطين) فيجازيهم أحسن الجزاء والآية نزلت فى قتال حدث بين الأوس والخزرج فى عهده عليه الصلاة والسلام بالعسف والنعال وفيها دلالة على أن الباغى لايخرج بالبغى عن الإيمان وأنه إذا أمسك عن الحرب ترك لأنه فىء إلى أمر الله تعالى وأنه يجب
١٠ معاونة من بغى عليه بعد تقديم النصح والسعى فى المصالحة (إنما المؤمنون إخوة) استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح أى أنهم منتسبون إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للحياة الأبدية والفاء
* فى قوله تعالى (فأصلحوا بين أخويكم) للإيذان بأن الأخوة الدينية موجبة للإصلاح ووضع المظهر مقام المضمر مضافا إلى المأمورين للمبالغة فى تأكيد وجوب الإصلاح والتحضيض عليه وتخصيص

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ٤٩ الحجرات

الإثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بالطريق الأولوية لتضاعف الفتنة والفساد فيه وقيل المراد بالأخوين الأوس والخزرج وقرىء بين أخوتكم وإخوانكم (واتقوا الله) فى كل ماتأتون وما تذرون ومن الأمور التى من جملتها ماأمرتم به من الإصلاح (لعلكم ترحمون) راجين أن ترحموا على تقواكم (يأيها الذين آمنوا لايسخر قوم) أى منكم (من قوم) آخرين أيضاً منكم وقوله تعالى (عسى أن يكونوا خيراً منهم) تعليل للنهى أو لموجبه أى عسى أن يكون المسخور منهم خيراً عند الله تعالى من الساخرين والقوم مختص بالرجال لأنهم القوام على النساء وهو فى الأصل إما جمع قائم كصوم وزور فى جمع صائم وزائر أو مصدر نعت به فشاع فى الجمع وأما تعميمه للفريقين فى مثل قوم عاد وقوم فرعون فإما للتغليب أو لأنهن توابع واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية فى الجمع والتنكير إما للتعميم أو للقصد إلى نهى بعضهم عن سخرية بعض لما أنها مما يجرى بين بعض وبعض (ولا نساء) أى ولا تسخر نساء من المؤمنات (من نساء) منهن (عسى أن يكن) أى المسخور منهن (خيراً منهن) أى من الساخرات فإن مناط الخيرية فى الفريقين ليس مايظهر للناس من الصور والأشكال ولا الأوضاع والأطوار التى عليها يدور أمر السخرية غالباً بل إنما هو الأمور الكامنة فى القلوب فلا يجترىء أحد على استحقار أحد فلعله أجمع منه لما نيط به الخيرية عند الله تعالى فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى والاستهانة بمن عظمه الله تعالى وقرىء عسوا أن يكونوا وعسين أن يكن فعسى حينئذ هى ذات الخبر كما فى قوله تعالى فهل عسيتم وأما على الأول فهى التى لاخبر لها (ولا تلمزوا أنفسكم) أى ولا يعب بعضكم بعضاً فإن المؤمنين كنفس واحدة أو لاتفعلوا ماتلمزون به فإن من فعل مايستحق به اللمز فقد لمز نفسه واللمز الطعن باللسان وقرىء بضم الميم (ولا تنابزوا بالألقاب) أى ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء فإن النبز مختص به عرفا (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) أى بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسق بعد دخولهم الإيمان أو اشتهارهم به فإن الاسم ههنا بمعنى الذكر من قولهم طار اسمه فى الناس بالكرم أو باللؤم والمراد به إما تهجين نسبة الكفر والفسوق إلى المؤمنين خصوصاً إذ روى أن الآية نزلت فى صفية بنت حيي أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن النساء يقلن لى يا يهودية بنت يهوديين فقال عليه الصلاة والسلام هلا قلت إن أبى هرون وعمى موسى وزوجى محمد عليهم السلام أو الدلالة على أن التنابز فسق والجمع بينه وبين الإيمان قبيح (ومن لم يتب) عمانهى عنه (فأولئك هم الظالمون) بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

٤٩ الحجرات

١٢ النفس للعذاب (يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن) أى كونوا على جانب منه وإبهام الكثير لإيجاب الاحتياط والتأمل فى كل ظن ظن حتى يعلم أنه من أى قبيل فإن من الظن مايجب اتباعه كالظن فيما لاقاطع فيه من العمليات وحسن الظن بالله تعالى ومنه مايحرم كالظن فى الإلهيات والنبوات وحيث يخالفه قاطع وظن السوء بالمؤمنين ومنه مايباح كالظن فى الأمور المعاشية (إن بعض الظن إثم) تعليل للأمر بالاجتناب أو لموجبه بطريق الاستئناف التحقيق والإثم الذنب الذى يستحق العقوبة عليه وهمزته منقلبة من الواو كأنه يثم الأعمال أى يكسرها (ولا تجسسوا) أى ولا تبحثوا عن عورات المسلمين تفعل من الجس لما فيه من معنى الطلب كما أن التلمس بمعنى التطلب لما فى اللمس من الطلب وقد جاء بمعنى الطلب فى قوله تعالى وأنا لمسنا السماء وقرىء بالحاء من الحس الذى هو إثر الجس وغايته ولتقاربهما يقال للمشاعر الحواس بالحاء والجيم وفى الحديث لاتتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو فى جوف بيته (ولا يغتب بعضكم بعضاً) أى لايذكر بعضكم بعضاً بالسوء فى غيبته وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال أن تذكر أخاك بما يكره فإن كان فيه فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته وعن ابن عباس رضى الله عنهما الغيبة إدام كلاب الناس (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً) تمثيل وتصوير لما يصدر عن المغتاب من حيث صدوره عنه ومن حيث تعلقه بصاحبه على أفحش وجه وأشنعه طبعاً وعقلا وشرعا مع مبالغات من فنون شتى الاستفهام التقريرى وإسناد الفعل إلى أحد إيذاناً بأن أحداً من الأحدين لايفعل ذلك وتعليق المحبة بما هو فى غاية الكراهة وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان وجعل المأكول أخا للآكل وميتاً وإخراج تماثلها مخرج أمر بين غنى عن الإخبار به وقرىء ميتاً بالتشديد وانتصابه على الحالية من اللحم وقيل من الأخ والفاء فى قوله تعالى (فكرهتموه) لترتيب مابعدها على ماقبلها من التمثيل كأنه قيل وحيث كان الأمر كما ذكر فقد كرهتموه وقرى كرهتموه أى جبلتم على كراهته (واتقوا الله) بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ماصدر عنكم من قبل (إن الله تواب رحيم) مبالغ فى قبول التوبة وإفاضة الرحمة حيث يجعل التائب كمن لم يذنب ولا يخص ذلك بتائب دون تائب بل يعم الجميع وإن كثرت ذنوبهم روى أن رجلين من الصحابة رضى الله عنهم بعثا سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغى لهما إداماً وكان أسامة على طعامه عليه الصلاة والسلام فقال ماعندى شىء فأخبرهما سلمان فقالا لو بعثنا سليمان إلى بئر سميحة لغار ماؤها فلما راحا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما فقالا ماتناولنا لحماً فقال عليه الصلاة والسلام إنكما قد اغتبتما

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ٤٩ الحجرات

قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ٤٩ الحجرات

فنزلت (يأيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) من آدم وحواء أو خلقنا كل واحد منكم من ١٣
أب وأم فالكل سواء فى ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب وقد جوز أن يكون تأكيداً للنهى السابق
بتقرير الأخوة المانعة من الاغتياب (وجعلناكم شعوباً وقبائل) الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى *
أصل واحد وهو يجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر والعمارة تجمع البطون والبطن يجمع الأفخاذ والفخذ
يجمع الفصائل فخزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصى بطن وهاشم فخذ والعباس فصيلة وقيل
الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب (لتعارفوا) ليعرف بعضكم بعضاً بحسب الأنساب فلا *
يعتزى أحد إلى غير آبائه لا لتتفاخروا بالآباء والقبائل وتدعوا التفاوت والتفاضل فى الأنساب وقرىء
لتتعارفوا على الأصل ولتعارفوا بالإدغام ولتعرفوا (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) تعليل للنهى عن *
التفاخر بالأنساب المستفاد من الكلام بطريق الاستئناف التحقيقى كأنه قيل إن الأكرم عنده تعالى
هو الأتقى فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى وقرىء بأن المفتوحة على حذف لام التعليل كأنه قيل لم
لا تتفاخروا بالأنساب فقيل لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم فإن مدار كمال النفوس وتفاوت
الأشخاص هو التقوى فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بالتقوى قال عليه الصلاة والسلام من سره
أن يكون أكرم الناس فليتق الله وقال عليه الصلاة والسلام يأيها الناس إنما الناس رجلان مؤمن تقى
كريم على الله تعالى وفاجر شقى هين على الله تعالى وعن ابن عباس رضى الله عنهما كرم الدنيا الغنى
وكرم الآخرة التقوى (إن الله عليم) بكم وبأعمالكم (خبير) ببواطن أحوالكم (قالت الأعراب ١٤
آمنا) نزلت فى نفر من بنى أسد قدموا المدينة فى سنة جدب فأظهروا الشهادتين وكانوا يقولون لرسول
الله صلى الله عليه وسلم أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان يريدون الصدقة ويمنون
عليه عليه الصلاة والسلام مافعلوا (قل) رداً لهم (لم تؤمنوا) إذ الإيمان هو التصديق المقارن للثقة *
وطمأنينة القلب ولم يحصل لكم ذلك وإلا لما مننتم على ماذكرتم كما ينبىء عنه آخر السورة (ولكن *
قولوا أسلمنا) فإن الإسلام انقياد ودخول فى السلم وإظهار الشهادة وترك المحاربة مشعر به وإيثار
ماعليه النظم الكريم على أن يقال لاتقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا أو لم تؤمنوا ولكن أسلمتم للاحتراز
من النهى عن التلفظ بالإيمان وللتفادى عن إخراج قولهم مخرج التسليم والاعتداد به مع كونه تقولا
محضاً (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) حال من ضمير قولوا أى ولكن قولوا أسلمنا حال عدم مواطأة *
قلوبكم لألسنتكم وما فى لما من معنى التوقع مشعر بأن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد (وإن تطيعوا الله ورسوله) *

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ٤٩ الحجرات

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ ٤٩ الحجرات

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ٤٩ الحجرات

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ٤٩ الحجرات

---

* بالإخلاص وترك النفاق (لايلتكم من أعمالكم) لا ينقصكم (شيئاً) من أجورها من لات يليت ليتاً
* إذا نقص وقرىء لايألتكم من الألت وهى لغة غطفان أوشيئاً من النقص (إن الله غفور) لما فرط
١٥ من المطيعين (رحيم) بالتفضل عليهم (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) لم يشكوا
من ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه فى الشك مع التهمة وفيه إشارة إلى أن فيهم مايوجب نفى الإيمان
عنهم وثم للإشعار بأن اشتراط عدم الارتياب فى اعتبار الإيمان ليس فى حال إنشائه فقط بل وفيما
* يستقبل فهى كما فى قوله تعالى ثم استقاموا (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) فى طاعته على
* تكثر فنونها من العبادات البدنية المحضة والمالية الصرفة والمشتملة عليها معاً كالحج والجهاد (أولئك)
* الموصوفون بما ذكر من الأوصاف الجميلة (هم الصادقون) أى الذين صدقوا فى دعوى الإيمان لاغيرهم
١٦ روى أنه لما نزلت الآية جاؤا وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون فنزل لتكذيبهم قوله تعالى (قل أتعلمون
* الله بدينكم) أى أتخبرونه بذلك بقولكم آمنا والتعبير عنه بالتعليم لغاية تشنيعهم (والله يعلم مافى
* السموات وما فى الأرض) حال من مفعول تعلمون مؤكدة لتشنيعهم وقوله تعالى (والله بكل شىء
عليم) تذييل مقرر لما قبله أى مبالغ فى العلم بجميع الأشياء التى من جملتها ما أخفوه من الكفر عند
١٧ إظهارهم الإيمان وفيه مزيد تجهيل وتوبيخ لهم (يمنون عليك أن أسلموا) أى يعدون إسلامهم منة
عليك وهى النعمة التى لايطلب موليها ثواباً ممن أنعم بها عليه من المن بمعنى القطع لأن المقصود بها
* قطع حاجته وقيل النعمة الثقيلة من المن (قل لاتمنوا على إسلامكم) أى لاتعدوا إسلامكم منة على أو
* لاتمنوا على بإسلامكم فنصب بنزع الخافض (بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان) على مازعمتم مع أن
* الهداية لاتستلزم الاهتداء وقرىء أن هداكم وإذ هداكم (إن كنتم صادقين) فى ادعاء الإيمان وجوابه
محذوف يدل عليه ماقبله أى فلله المنة عليكم وفى سياق النظم الكريم من اللطف مالا يخفى فإنهم لما سموا
ماصدر عنهم إيماناً ومنوا به فنفى كونه إيماناً وسمى إسلاماً قيل يمنون عليك بما هو فى الحقيقة إسلام
١٨ وليس بجدير بالمن بل لو صح ادعاؤهم للإيمان فلله المنة عليهم بالهداية إليه لا لهم (إن الله يعلم غيب
* السموات والأرض) أى ماغاب فيهما (والله بصير بما تعملون) فى سركم وعلانيتكم فكيف يخفى عليه

﴿ سورة الحجرات ﴾

مدنية كما قال الحسن . وقتادة ، وعكرمة . وغيرهم وفى مجمع البيان عن ابن عباس الا آية وهى قوله تعالى: (ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى) ولعل من يعتبر ما اخرجه الحاكم فى مستدركه . والبيهقى فى الدلائل . والبزار فى مسنده من طريق الاعمش عن علقمة عن عبد الله قال: ما كان (ياأيها الذين آمنوا) أنزل بالمدينة وما كان (ياأيها الناس) فبمكة يقول بمكية ما استثنى ، والحق ان هذا ليس بمطرد . وذكر الخفاجى أنها فى قول شاذ مكية ، وهى ثمانى عشرة آية بالاجماع ، ولا يخفى تواخيها مع ماقبلها لكونهما مدنيتين ومشتملتين على احكام وتلك فيها قتال الكفار وهذه فيها قتال البغاة ، وتلك ختمت بالذين آمنوا وهذه افتتحت بالذين آمنوا ، وتلك تضمنت تشريفات له صلى الله تعالى عليه وسلم خصوصا مطلعها وهذه أيضا فى مطلعها انواع من التشريف له عليه الصلاة والسلام ، وفى البحر مناسبتها لآخر ماقبلها ظاهر لأنه عز وجل ذكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ثم قال سبحانه (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الخ فربما صدر من المؤمن عامل الصالحات بعض شىء مما ينبغى ان ينهى عنه فقال جل وعلا تعليما للمؤمنين وتهذيبا لهم ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وتصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على ان مافى حيزه أمر خطير يستدعى مزيد اعتنائهم وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ، ووصفهم بالايمان لتنشيطهم والايذان بأنه داع للمحافظة عليه ورادع عن الاخلال به *

و (تقدموا) من قدم المتعدى ، ومعناه جعل الشىء قادما اى متقدما على غيره ، وكان مقتضاه ان يتعدى الى مفعولين لكن الاكثر فى الاستعمال تعديته الى الثانى بعلى تقول : قدمت فلانا على فلان ، وهو هنا محتمل احتمالين . الاول أن يكون مفعوله نسيا والقصد فيه الى نفس الفعل وهو التقديم من غير اعتبار تعلقه بأمر من الامور ولا نظر الى أن المقدم ماذا هو على طريقة قوله تعالى : (هو الذى يحيي ويميت)وقولهم : يعطى ويمنع ، فالمعنى لاتفعلوا التقديم ولا تتلبسوا به ولا تجعلوه منكم بسبيل . والثانى أن يكون قد حذف مفعوله قصداً الى تعميمه لأنه لاحتماله لأمور لو قدر أحدها كان ترجيحا بلا مرجح يقدر أمرا عاماً لأنه أفيد مع الاختصار ، فالمعنى لاتقدموا أمراً من الامور ، والاول قيل اوفى بحق المقام لافادته النهى عن التلبس بنفس الفعل الموجب لانتفائه بالكلية المستلزم لانتفاء تعلقه بمفعوله بالطريق البرهانى ، ورجح الثانى بأنه أكثر استعمالا ، وبأن فى الاول تنزيل المتعدى منزلة اللازم وهو خلاف الاصل والثانى سالم منه ، والحذف وان كان خلاف الاصل أيضا أهون من التنزيل المذكور لكثرته بالنسبة اليه ، وبعضهم لم يفرق بينهما لتعارض الترجيح عنده وكون مآل المعنى عليهما العموم المناسب للمقام ، وذكر أن فى الكلام تجوزين . أحدهما فى

« بين » الخ فان حقيقة قولهم بين يدى فلان ما بين العضوين فتجوز بذلك عن الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريبا منه باطلاق اليدين على ما يجاورهما ويحاذيهما فهو من المجاز المرسل . ثانيهما استعارة الجملة وهى التقدم بين اليدين استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء ومتابعة لمن يلزم متابعته تصويرا لهجنته وشناعته بصورة المحسوس فيما نهوا عنه كتقدم الخادم بين يدى سيده فى سيره حيث لا مصلحة ، فالمراد من (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) لا تقطعوا أمرا وتجزموا به وتجترؤا على ارتكابه قبل ان يحكم الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم به ويأذنا فيه . وحاصله النهى عن الاقدام على أمر من الامور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة *

وجوز أن يكون (تقدموا) من قدم اللازم بمعنى تقدم كوجه وبين ، ومنه مقدمة الجيش خلاف ساقته وهى الجماعة المتقدمة منه ، ويعضده قراءة ابن عباس . وأبى حيوة . والضحاك . ويعقوب . وابن مقسم (لا تقدموا) بفتح التاء والقاف والدال ، وأصله تتقدموا فحذفت احدى التاءين تخفيفا لأنه من التفعل وهو المطاوع اللازم ، ورجح ما تقدم بما سمعت وبأن فيه استعمال اعرف اللغتين وأشهرهما ، لا يقال: الظرف اذا تعلق به العامل قد ينزل منزلة المفعول فيفيد العموم كما قرروه فى « مالك يوم الدين » فليكن الظرف ههنا بمنزلة مفعول التقدم مغنيا غناءه ، والتقدم بين يدى المرء خروج عن صفة المتابعة حسا فهو أوفق للاستعارة التمثيلية المقصود منها تصوير هجنة الحكم بلا اقتداء ومتابعة لمن يلزم متابعته بصورة المحسوس ، فتخريج (لا تقدموا) على اللزوم أبلغ ولا يضره عدم الشهرة فانه لا يقاوم الابلغية المطابقة للمقام لما اشار اليه فى الكشف من أن المراد النهى عن مخالفة الكتاب والسنة ، والتعدية تفيد ان ذلك بجعل وقصد منه للمخالفة لأن التقديم بين يدى المرء أن تجعل أحدا اما نفسك أو غيرك متقدما بين يديه وذلك أقوى فى الذم واكثر استهجانا للدلالة على تعمد عدم المتابعة لا صدورها عنه كيفما اتفق فافهم ولا تغفل *

وجوز أن يكون (بين يدى الله ورسوله) من باب أعجبنى زيد وكرمه فالنهى عن التقدم بين يدى الرسول عليه الصلاة والسلام فكأنه قيل : لا تقدموا بين يدى رسول الله ، وذكر الله تعالى لتعظيمه عليه الصلاة والسلام والايذان بجلالة محله عنده عز وجل ومزيد اختصاصه به سبحانه ، وأمر التجوز عليه على حاله ، وهو كما قال فى الكشف أوفق لما يجىء بعد ، فان الكلام مسوق لاجلاله عليه الصلاة والسلام ، وإذا كان استحقاق هذا الاجلال لاختصاصه بالله جل وعلا ومنزلته منه سبحانه فالتقدم بين يدى الله عز شأنه أدخل فى النهى وأدخل ، وإن جعل مقصودا بنفسه على ما مر فالنهى عن الاستبداد بالعمل فى أمر دينى لا مطلقا من غير مراجعة الى الكتاب والسنة ، وعليه تفسير ابن عباس على ما أخرجه ابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . وأبو نعيم فى الحلية عنه أنه قال : أى لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، وكذا ما أخرجه ابن جرير . وابن أبى حاتم . وابن مردويه عنه قال : نهوا أن يتكلموا بين يدى كلامه بل عليهم أن يصغوا ولا يتكلموا *

ووجه الدلالة على هذا أن كلامه عليه الصلاة والسلام أريد به ما ينقله عنه تعالى ولفظه أيضا ، وما اللفظ من الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وإن كان المعنى من الوحى أو أراد كلام كل واحد من الله تعالى والرسول عليه الصلاة والسلام ، وما أخرج عبد بن حميد . والبيهقى فى شعب الايمان وغيرهما عن مجاهد أنه قال فى ذلك : لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بشئ حتى يقضى الله تعالى على لسانه يخرج على نحو التخريج الأول لكلام ابن عباس ويكون مؤيدا له ، وبعضهم يروى أنه قال : لا تفتاتوا على الله تعالى

شيئا حتى يقصه على لسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجعل مؤيداً لكلام ابن عباس أيضاً ، وفسر التقدم بين يدى الله تعالى لأن التقدم بين يدى الرسول عليه الصلاة والسلام مكشوف المعنى ، ثم إن كل ذلك من باب بيان حاصل المعنى فى الجملة *

وفى الدر المنثور بعد ذكر المروى عن مجاهد حسبما ذكرنا قال الحفاظ : هذا التفسير على قراءة (تقدموا) بفتح التاء والدال وهى قراءة لبعضهم حكاها الزمخشرى . وأبو حيان . وغيرهما ، وكأن ذلك مبنى على أن (تقدموا) على هذه القراءة من قدم كعلم إذا مضى فى الحرب ويأتى من باب نصر أيضا إذ الافتيات وهو السبق دون ائتمار من يؤتمر أنسب بذلك *

واختار بعض الأجلة جعله من قدم من سفره من باب علم لاغير كما يقتضيه عبارة القاموس ، وعليه يكون قد شبه تعجيلهم فى قطع الحكم فى أمر من أمور الدين بقدوم المسافر من سفره إيذانا بشدة رغبتهم فيه نحو (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) واختلف فى سبب النزول ، فأخرج البخارى . وابن المنذر . وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : «قدم ركب من بنى تميم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : أمّر القعقاع بن معبد ، وقال عمر رضى الله تعالى عنه : بل أمّر الأقرع ابن حابس ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : ماأردت إلا خلافى ، فقال عمر رضى الله تعالى عنه : ماأردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فأنزل الله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) حتى انقضت الآية » وأخرج عبد بن حميد . وابن جرير . وابن المنذر عن الحسن أن أناساً ذبحوا قبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم النحر فأمرهم عليه الصلاة والسلام أن يعيدوا ذبحا فانزل الله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا) الخ ، وفى الكشاف عنه أن أناساً ذبحوا يوم الاضحى قبل الصلاة فنزلت وأمرهم ﷺ أن يعيدوا ذبحا آخر ، والأول ظاهر فى أن النزول بعد الامر والذبح قبل الصلاة يستلزم الذبح قبل رسول الله عليه الصلاة والسلام لأنه ﷺ كان ينحر بعدها كما نطقت به الاخبار ، وإلى عدم الاجزاء قبل ذهب الامام أبو حنيفة والاخبار تؤيده ، أخرج الشيخان . والترمذى . وأبو داود . والنسائى عن البراء قال : « ذبح بردة ابن نيار قبل الصلاة فقال النبى ﷺ : أبدلها فقال : يارسول الله ليس عندى الاجذعة فقال ﷺ : اجعلها مكانها ولن تجزى عن أحد بعدك » وفى رواية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « أول مانبدأ به فى يومنا هذا نصلى ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل فانما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك فى شىء » وكان أبو بردة بن نيار قد ذبح قبل الصلاة الحديث ، وفى المسئلة كلام طويل محله كتب الفروع فراجعه ان أردته ، وعن الحسن أيضا لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة أتته الوفود من الآفاق فأكثروا عليه بالمسائل فنهوا أن يبتدءوه بالمسئلة حتى يكون عليه الصلاة والسلام هو المبتدىء ، وأخرج ابن جرير . وغيره عن قتادة قال : ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون : لو أنزل فى كذا وكذا لكان كذا وكذا فكره الله تعالى ذلك وقدم فيه *

وقيل : بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى تهامة سرية سبعة وعشرين رجلا عليهم المنذر بن عمرو الساعدى فقتلهم بنو عامر وعليهم عامر بن الطفيل الا ثلاثة نفر نجوا فلقوا رجلين من بنى سليم قرب المدينة فاعتزيا لهم إلى بنى عامر لأنهم أعز من سليم فقتلوهما وسلبوهما ثم أتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : بئسما صنعتم كانا من سليم أي كانا من أهل العهد لأنهم كانوا معاهدين والسلب ما كسوتهما فوداهما

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : ونزلت أى لاتعملوا شيئا من ذات أنفسكم حتى تستأمروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . وأخرج الطبرانى فى الأوسط . وابن مردويه عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: إن ناسا كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأنزل الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) وفى رواية عن مسروق بن الاجدع بن مالك الهمدانى الكوفى دخلت على عائشة رضى الله تعالى عنها وكانت قد تبنته فى اليوم الذى يشك فيه فقالت للجارية : اسقيه عسلا فقلت : إنى صائم فقالت : قد نهى الله تعالى عن صوم هذا اليوم وفيه نزلت (ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا)الخ ، فالمعنى كما فى المعالم لاتصوموا قبل صوم نبيكم ، وأول هذا صاحب الكشف فقال. الظاهر عندى انها استدلت بالآية على أنه ينبغى أن يمتثل أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ونهيه ، وقد نهى عليه الصلاة والسلام وفيه نزلت أى فى مثل هذا لدلالتها على وجوب الاتباع والنهى عن الاستبداد إذ لا يلوح ذلك التفسير على وجه ينطبق على يوم الشك وحده الا بتكلف ، وهذا نظير مانقل عن ابن مسعود فى جواب المرأة التى اعترضت عليه انها قرأت كتاب الله وما وجدت اللعن على الواشمة كما ادعاه رضى الله تعالى عنه من قوله : لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما رأيت (وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا) قالت : بلى قال : فانه نهى عنه . وأنت تعلم بعد الرواية الاولى عن هذا التأويل ، ويعلم من هذه الروايات وغيرها أنهم اختلفوا أيضا فى تفسير التقدم ، وفى كثير منها تفسيره بخاص ، وقال بعضهم : إن الآية عامة فى كل قول وفعل ويدخل فيها أنه إذا جرت مسئلة فى مجلس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسبقوه فى الجواب ، وأن لايمشى بين يديه إلا للحاجة ، وأن يستأنى فى الافتتاح بالطعام ، ورجح بأنه الموافق للسياق ولما عرف فى الاصول من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وفى الكلام عليه بناء على ماقاله الطيبى مجاز باعتبار القدر المشترك الصادق على الحقيقة أيضا دون التمثيل وتشبيه المعقول بالمحسوس ويسمى فى الاصول بعموم المجاز وفى الصناعة بالكناية لأنها لاتنافى ارادة الحقيقة أيضا ؛ ومن هنا يجوز ارادة لاتمشوا بين يديه صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ وذكر عليه الرحمة أنه لايقدر على هذا القول مفعول بل يتوجه النهى إلى نفس الفعل فتأمل ؛ ويحتج بالآية على اتباع الشرع فى كل شىء وهو ظاهر مما تقدم ، وربما احتج بها نفاة القياس وهو كما قال الكيا باطل منهم . نعم قال الجلال السيوطى : يحتج بها على تقديم النص على القياس ، ولعله مبنى على أن العمل بالنص أبعد من التقدم بين يدى الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ أى فى كل ماتأتون وتذرون من الاقوال والافعال التى من جملتها مانحن فيه ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لكل مسموع ومنه أقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ١ ﴾ بكل المعلومات ومنها أفعالكم فمن حقه أن يتقى ويراقب ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لَاتَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ شروع فى النهى عن التجاوز فى كيفية القول عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد النهى عن التجاوز فى نفس القول والفعل ، وإعادة النداء مع قرب العهد به للمبالغة فى الايقاظ والتنبيه والاشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه أى لاتبلغوا باصواتكم وراء حد يبلغه عليه الصلاة والسلام بصوته . وقرأ ابن مسعود (لاترفعوا بأصواتكم) بتشديد (ترفعوا) وزيادة الباء وقد شدد الاعلم الهذلى فى قوله :

رفعت عيني بالحجا زالى اناس بالمناقب

والتشديد فيه للمبالغة كزيادة الباء في القراءة إلا أن ليس المعنى فيها أنهم نهوا عن الرفع الشديد تخيلا أن يكون مادون الشديد مسوغا لهم ، ولكن المعنى نهيهم عما كانوا عليه من الجلبة واستجناؤهم فيما كانوا يفعلون ، وهو نظير قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربى أضعافا مضاعفة) *

﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ أي جهرا كائنا كالجهر الجاري فيمابينكم ، فالأول نهى عن رفع الصوت فوق صوته صلى الله تعالى عليه وسلم وهذا نهى عن مساواة جهرهم لجهره عليه الصلاة والسلام فانه المعتاد في مخاطبة الاقران والنظراء بعضهم لبعض ، ويفهم من ذلك وجوب الغض حتى تكون أصواتهم دون صوته صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيل : الأول مخصوص بمكالمته صلى الله تعالى عليه وسلم لهم وهذا بصمته عليه الصلاة والسلام كأنه قيل : لاترفعوا أصواتكم فوق صوته إذا نطق ونطقتم ولاتجهروا له بالقول إذا سكت وتكلمتم ، ويفهم أيضا وجوب كون أصواتهم دون صوته عليه الصلاة والسلام ، فأياما كان يكون المآل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته ﷺ وتعهدوا في مخاطبته اللين القريب من الهمس كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم وحافظوا على مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها ، ومن هنا قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه بعد نزول الآية كما أخرج عبد بن حميد . والحاكم . وصححه من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة : (والذي أنزل عليك الكتاب يارسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله تعالى) *

وفي رواية أنه قال : يارسول الله والله لاأكلمك إلا السرار أو أخا السرار حتى ألقى الله تعالى ، وكان إذا قدم على رسول الله عليه الصلاة والسلام الوفود أرسل اليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان عمر رضي الله تعالى عنه كما في صحيح البخاري . وغيره عن ابن الزبير إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يسمع كلامه حتى يستفهمه ، وقيل : معنى (ولا تجهروا له بالقول) الخ ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضا وخاطبوه بالنبي والرسول ، والكلام عليه أبعد عن توهم التكرار لكنه خلاف الظاهر لأن ذكر الجهر عليه لايظهر له وجه ، وكان الظاهر أن يقال مثلا : ولاتجعلوا خطابه كخطاب بعضكم بعضا *

﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ تعليل لما قبله من النهيين على طريق التنازع بتقدير مضاف أي كراهة أن تحبط أعمالكم ، والمعنى إني أنهاكم عما ذكر لكراهة حبوط أعمالكم بارتكابه أو تعليل للمنهي عنه ، وهو الرفع والجهر بتقدير اللام أي لأن تحبط ، والمعنى فعلكم ماذكر لأجل الحبوط منهي عنه ، ولام التعليل المقدرة مستعارة للعاقبة التي يؤدي اليها الفعل لأن الرفع والجهر ليس لأجل الحبوط لكنهما يؤديان اليه على ماتعلمه إن شاء الله تعالى ، وفرق بينهما بما حاصله أن الفعل المنهي معلل في الأول والفعل المعلل منهي في الثاني وأيهما كان فرجع المعنى إلى أن الرفع والجهر كلاهما منصوص الاداء إلى حبوط العمل ، وقراءة ابن مسعود. وزيد بن علي (فتحبط) بالفاء أظهر في التنصيص على أدائه إلى الاحباط لأن مابعد الفاء لايكون إلا مسببا عما قبلها ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٢ ﴾ حال من فاعل (تحبط) ومفعول (تشعرون) محذوف بقرينة ماقبله أي والحال أنتم لاتشعرون أنها محبطة ، وظاهر الآية مشعر بأن الذنوب مطلقا قد تحبط الاعمال الصالحة ، ومذهب أهل السنة أن المحبط منها الكفر لاغير ، والأول مذهب المعتزلة ولذا قال الزمخشري :

قد دلت الآية على أمرين هائلين. أحدهما أن فيما يرتكب من الآثام ما يحبط عمل المؤمن. والثانى أن فى أعماله ما لا يدرى أنه محبط ولعله عند الله تعالى محبط ه

وأجاب عن ذلك ابن المنير عليه الرحمة بأن المراد فى الآية النهى عن رفع الصوت على الاطلاق، ومعلوم ان حكم النهى الحذر مما يتوقع فى ذلك من ايذاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، والقاعدة المختارة ان ايذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق فورد النهى عما هو مظنة لأذى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سواء وجد هذا المعنى أولا حماية للذريعة وحسما للمادة، ثم لما كان هذا المنهى عنه منقسما الى ما يبلغ مبلغ الكفر وهو المؤذى له عليه الصلاة والسلام والى ما لا يبلغ ذلك المبلغ ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر لزم المكلف ان يكف عن ذلك مطلقا خوف ان يقع فيما هو محبط للعمل وهو البالغ حد الاذى اذ لا دليل ظاهراً يميزه، وان كان فلا يتفق تمييزه فى كثير من الاحيان، والى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الاشارة بقوله سبحانه: (ان تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) والا فلو كان الامر على ما يعتقده الزمخشرى لم يكن لقوله سبحانه: (وأنتم لا تشعرون) موقع اذ الامر منحصر بين أن يكون رفع الصوت مؤذيا فيكون كفرا محبطا قطعا وبين أن يكون غير مؤذ فيكون كبيرة محبطة على رأيه قطعا، فعلى كلا حاليه الاحباط به محقق اذن فلا موقع لادعام الكلام بعدم الشعور مع ان الشعور ثابت مطلقا، ثم قال عليه الرحمة: وهذا التقدير يدور على مقدمتين كلتاهما صحيحة. احداهما أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الاذى وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة حتى ان الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه فكيف برتبة النبوة وما تستحقه من الاجلال والاعظام. ثانيتهما أن ايذاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كفر وهذا ثابت قد نص عليه ائمتنا وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفرا ولا تقبل توبته فما أتاه أعظم عند الله تعالى وأكبر انتهى ه

وحاصل الجواب أنه لا دليل فى الآية على ما ذهب اليه الزمخشرى لأنه قد يؤدى الى الاحباط اذا كان على وجه الايذاء أو الاستهانة فنهاهم عز وجل عنه وعلله بأنه قد يحبط وهم لا يشعرون، وقيل: يمكن نظرا للمقام أن ينزل اذا هم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم برفع الصوت منزلة الكفر تغليظا اجلالا لمجالسه صلوات الله تعالى عليه وسلامه ثم يرتب عليه ما يرتب على الكفر الحقيقى من الاحباط كقوله تعالى: (ولله على الناس حج البيت) الى قوله سبحانه: «ومن كفر فان الله غنى عن العالمين» ومعنى «وانتم لا تشعرون» عليه وانتم لا تشعرون ان ذلك بمنزلة الكفر المحبط وليس كسائر المعاصى، ولا يتم بدون الاول، وجاز كما فى الكشف ان يكون المراد ما فيه استهانة ويكون من باب (ولا تكونن ظهيراً للكافرين) مما الغرض منه التعريض كيف وهو قول منقول عن الحسن كما حكاه فى الكشاف، وقال أبو حيان: إن كانت الآية بمن يفعل ذلك استخفافا فذلك كفر يحبط معه العمل حقيقة، وإن كانت للمؤمن الذى يفعله غلبة وجريا على عادته فانما يحبط عمله البر فى توقير النبى ﷺ وغض الصوت عنده ان لو فعل ذلك كأنه قيل: مخافة أن تحبط الاعمال التى هى معدة أن تعملوها فتؤجروا عليها، ولا يخفى ما فى الشق الثانى من التكلف البارد، ثم ان من الجهر ما لم يتناوله النهى بالاتفاق وهو ما كان منهم فى حرب او مجادلة معاند او ارهاب عدو او ما اشبه ذلك مما لا يتخيل منه تأذ او استهانة، ففى الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال للعباس بن عبد المطلب لما ولى المسلمون يوم حنين: ناد اصحاب السمرة فنادى بأعلى صوته اين اصحاب السمرة، وكان رجلا صيتا. يروى أن غارة اتتهم يوما فصاح العباس ياصباحاه

فأسقطت الحوامل لشدة صوته، وفيه يقول نابغة بنى جعدة:

زجر أبي عروة السباع إذا اشفق أن يختلطن بالغنم

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع فى جوفه، وذكروا أنه سئل ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فكيف لا تفتق مرارة الغنم؟ فقال: لأنها ألفت صوته، وروى البخارى ومسلم عن أنس لما نزلت هذه الآية جلس ثابت بن قيس فى بيته وقال: أنا من أهل النار واحتبس فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو ماشأن ثابت اشتكى؟ قال سعد: إنه جارى وماعلمت له بشكوى فأتاه سعد فقال: أنزلت هذه الآية ولقد علمتم إنى أرفعكم صوتا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأنا من أهل النار فذكر ذلك سعد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال رسول الله ﷺ: بل هو من أهل الجنة، وفى رواية أنه لما نزلت دخل بيته وأغلق عليه بابه وطفق يبكى فافتقده رسول الله ﷺ فقال: ماشأن ثابت؟ قالوا: يارسول الله ماندرى ماشأنه غير أنه أغلق باب بيته فهو يبكى فيه فأرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليه فسأله ماشأنك؟ قال: يارسول الله أنزل الله عليك هذه الآية وأنا شديد الصوت فأخاف أن أكون قد حبط عملى فقال ﷺ: لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير، والظاهر أن ذلك منه رضى الله تعالى عنه كان من غلبة الخوف عليه والافلا حرمة قبل النهى، وهو أيضا أجل من أن يكون ممن كان يقصد الاستهانة والايذاء لرسول الله ﷺ برفع الصوت وهم المنافقون الذين نزلت فيهم الآية على ماروى عن الحسن وإنما كان الرفع منه طبيعة لما أنه كان فى اذنه صمم وعادة كثير ممن به ذلك رفع الصوت، والظاهر أنه بعد نزولها ترك هذه العادة، فقد أخرج الطبرانى والحاكم وصححه أن عاصم بن عدى ابن العجلان أخبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بحاله فأرسله اليه فلما جاء قال: مايبكيك ياثابت؟ فقال: أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فى فقال له عليه الصلاة والسلام: أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة؟ قال: رضيت ولا أرفع صوتى أبدا على صوت رسول الله ﷺ *

واستدل العلماء بالآية على المنع من رفع الصوت عند قبره الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم، وعند قراءة حديثه عليه الصلاة والسلام لأن حرمته ميتا كحرمته حيا. وذكر أبو حيان كراهة الرفع أيضاً بحضرة العالم، وغير بعيد حرمته بقصد الايذاء والاستهانة لمن يحرم ايذاؤه والاستهانة به مطلقا لكن للحرمة مراتب متفاوتة كالا يخفى *

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ الخ ترغيب فى الانتهاء عما نهوا عنه بعد الترهيب عن الاخلال به أى يخفظونها مراعاة للادب أو خشية من مخالفة النهى ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ اشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة، ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه لما مر مرارا من تفخيم شأنه، وهو مبتدأ خبره ﴿ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ والجملة خبر إن، وأصل معنى الامتحان التجربة والاختبار، والمراد به هنا لاستحالة نسبته اليه تعالى التمرين بعلاقة اللزوم أى أنهم مرن الله تعالى قلوبهم للتقوى. وفى الكشف الامتحان كناية تلويحية عن صبرهم على التقوى وثباتهم عليها وعلى احتمال مشاقها لأن الممتحن جرب وعود منه الفعل مرة بعد أخرى فهو دال على التمرن الموجب للاضطلاع، والاسناد اليه تعالى للدلالة على التمكين، ففيه على ماقيل مع الكناية تجوز فى الاسناد والاصل امتحنوا قلوبهم للتقوى بتمكين الله تعالى لهم، وكأنه إنما

اعتبر ذلك لأنه لايجوز ارادة المعنى الموضوع له هنا فلايصح كونه كناية عند من يشترط فيها ارادة الحقيقة، ومن اكتفى فيها بجواز الارادة وان امتنعت فى محل الاستعمال لم يحتج إلى ذلك الاعتبار . واختار الشهاب كون الامتحان مجازا عن الصبر بعلاقة اللزوم ، وحاصل المعنى عليه كحاصله على الكناية أى أنهم صبر على التقوى أقوياء على مشاقها أو المراد بالامتحان المعرفة كما حكى عن الجبائى مجازا من باب اطلاق السبب وارادة المسبب ، والمعنى عرف الله قلوبهم للتقوى ، واسناد المعرفة اليه عز وجل بغير لفظها غير ممتنع وهو فى القرآن الكريم شائع ، على أن الصحيح جواز الاسناد مطلقا لما فى نهج البلاغة من اطلاق العارف عليه تعالى، وقد ورد فى الحديث أيضا على ما ادعاه بعض الاجلة ، واللام صلة لمحذوف وقع حالا من (قلوبهم)أى كائنة للتقوى مختصة بها ، فهو نحو اللام فى قوله :

وقصيدة رائقة ضوعتها أنت لها أحمد من بين البشر

وقوله: أعدامن لليعملات على الوجى وأضياف ليل بيتوا للنزول

أو هى صلة ـ لامتحن ـ باعتبار معنى الاعتياد أو المراد ضرب الله تعالى قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة لأجل التقوى أى لتظهر ويعلم أنهم متقون اذ لا تعلم حقيقة التقوى الا عند المحن والاصطبار عليها ، وعلى هذا فالامتحان هو الضرب بالمحن ، واللام للتعليل على معنى أن ظهور التقوى هو الغرض والعلة والا فالصبر على المحنة مستفاد من التقوى لا العكس ، أو المراد أخلصها للتقوى أى جعلها خالصة لأجل التقوى أو أخلصها لها فلم يبق لغير التقوى فيها حق كأن القلوب خلصت ملكا للتقوى ، وهذا ابلغ وهو استعارة من امتحان الذهب واذابته ليخلص ابريزه من خبثه وينقى أو تمثيل ، وتفسير (امتحن) بأخلص رواه ابن جرير وجماعة عن مجاهد ، وروى ذلك ايضا عن الكعبى . وأبى مسلم ، وقال الواحدى : تقدير الكلام امتحن الله قلوبهم فأخلصها للتقوى فحذف الاخلاص لدلالة الامتحان عليه وليس بذاك . واختار صاحب الكشف ما نقل عنه أولا فقال : الاول ارجح الوجوه لكثرة فائدته من الكناية والاسناد والدلالة على ان مثل هذا الغض لا يتأتى الا ممن هو مدرب للتقوى صبور عليها فتأمل ﴿ لَهُم ﴾ فى الآخرة ﴿ مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ٣ ﴾ لغضهم اصواتهم عند النبى عليه الصلاة والسلام ولسائر طاعاتهم ، وتنكير (مغفرة وأجر) للتعظيم ، فى وصف أجر بعظيم مبالغة فى عظمه فانه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وجملة (لهم) الخ مستأنفة لبيان جزاء الغاضين احمادا لحالهم كما اخبر عنهم بجملة مؤلفة من معرفتين، والمبتدأ اسم الاشارة المتضمن لما جعل عنوانا لهم، والخبر الموصول بصلة دلت على بلوغهم أقصى الكمال، مبالغة فى الاعتداد بغضهم والارتضاء له وتعريضا بشناعة الرفع والجهر وان حال المرتكب لهما على خلاف ذلك، وقيل الجملة خبر ثان لإن وليس بذاك، والآية قيل: أنزلت فى الشيخين رضى الله تعالى عنهما لما كان منهما من غض الصوت والبلوغ به أخا السرار بعد نزول الآية السابقة وفى حديث الحاكم . وغيره عن محمد بن ثابت بن قيس أنه قال بعد حكاية قصة أبيه وقوله : لاأرفع صوتى ابدا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وانزل الله تعالى (ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) الآية *

وانت تعلم ان حكمها عام ويدخل الشيخان فى عمومها وكذا ثابت بن قيس . وقد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : لما أنزل الله تعالى (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) قال رسول الله صلى الله تعالى

عليه وسلم : منهم ثابت بن قيس بن شماس ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ من خارجها خلفها أو قدامها على ان (وراء) من المواراة والاستتار فما استتر عنك فهو وراء خلفا كان أو قداما اذا لم تره فاذا رأيته لا يكون وراءك ، فالوراء بالنسبة الى من فى الحجرات ما كان خارجها لتواريه عمن فيها ، وقال بعض أهل اللغة إن وراء من الاضداد فهو مشترك لفظى عليه ومشترك معنوى على الاول وهو الذى ذهب اليه الآمدى. وجماعة *

و (الحجرات) جمع حجرة على وزن فعلة بضم الفاء وسكون العين وهى القطعة من الارض المحجورة أى الممنوعة عن الدخول فيها بحائط ، وتسمى حظيرة الابل وهى ماتجمع فيه وتكون محجورة بحطب ونحوه حجرة أيضاً فهى بمعنى اسم المفعول كالغرفة لما يغرف باليد من الماء ، وفى جمعها هنا ثلاثة أوجه ، ضم العين اتباعا للفاء كقراءة الجمهور ، وفتحها وبه قرأ ابو جعفر . وشيبة ، وتسكينها للتخفيف وبه قرأ ابن أبى عبلة *

وهذه الاوجه جائزة فى جمع كل اسم جامد جاء على هذا الوزن ، والمراد حجرات نسائه عليه الصلاة والسلام وكانت تسعة لكل منهن حجرة ، وكانت كما أخرج ابن سعد عن عطاء الخراسانى من جريد النخل على ابوابها المسوح من شعر اسود . وأخرج البخارى فى الادب . وابن أبى الدنيا . والبيهقى عن داود بن قيس قال : رأيت الحجرات من جريد النخل مغشى من خارج بمسوح الشعر ، وأظن عرض البيت من باب الحجرة الى باب البيت ست أو سبع اذرع ، وأحزر البيت الداخل عشرة اذرع ، واظن السمك بين الثمان والسبع *

واخرجوا عن الحسن انه قال : كنت أدخل بيوت أزواج النبى ﷺ فى خلافة عثمان بن عفان فاتناول سقفها بيدى ، وقد أدخلت فى عهد الوليد بن عبد الملك بأمره فى مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام وبكى الناس لذلك ، وقال سعيد بن المسيب يومئذ : والله لوددت أنهم تركوها على حالها لينشو أناس من أهل المدينة ويقدم القادم من اهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حياته فيكون ذلك مما يزهد الناس فى التكاثر والتفاخر فيها ، وقال نحو ذلك أبو امامة بن سهل بن حنيف ، وفى ذكر (الحجرات) كناية عن خلوته عليه الصلاة والسلام بنسائه لأنها معدة لها ، ولم يقل : حجرات نسائك ولا حجراتك توقيراً له صلى الله تعالى عليه وسلم وتحاشيا عما يوحشه عليه الصلاة والسلام ، ومناداتهم من ورائها اما بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها فيكون القصد الى الاستغراق العرفى اى جميع حجرات نسائه ﷺ أو بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له عليه الصلاة والسلام على ان الاستغراق افرادى لا شمولى مجموعى ولا أنه من مقابلة الجمع بالجمع المقتضية لانقسام الآحاد على الآحاد لأن من ناداه ﷺ من وراء حجرة منها فقد ناداه من وراء الجميع على ماقيل ، وعلى هذا يكون اسناد النداء من اسناد فعل الابعاض الى الكل ، وقيل: إن الذى نادى رجل واحد كما هو ظاهر خبر أخرجه الترمذى وحسنه . وجماعة عن البراء بن عازب ، وما أخرجه أحمد . وابن جرير . وأبو القاسم البغوى . والطبرانى . وابن مردويه بسند صحيح من طريق أبى سلمة بن عبد الرحمن عن الاقرع بن حابس أنه اتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: يا محمد اخرج الينا فلم يجبه عليه الصلاة والسلام فقال : يا محمد إن حمدى زين وان ذمى شين فقال : ذاك الله فأنزل الله تعالى (ان الذين ينادونك) الخ ، وعليه يكون الاسناد الى الكل لأنهم رضوا بذلك وأمروا به أو لأنه وجد فيما بينهم ، وظاهر الآية ان المنادى جمع وكذا جمع من الاخبار ، وسنذكر إن شاء الله تعالى بعضا منها ، وحمل

(الحجرات) على الجمع الحقيقى هو الظاهر الذى عليه غير واحد من المفسرين، وجوز كون الحجرة واحدة وهى التى كان فيها الرسول عليه الصلاة والسلام وجمعت اجلالا له صلى الله تعالى عليه وسلم على أسلوب حرمت النساء سواكم ، وأيضا لأن حجرته عليه الصلاة والسلام لأنها أم الحجرات وأشرفها بمنزلة الكل على نحو احد الوجهين فى قوله تعالى : (ومن أظلم ممن منع مساجد الله) *

وفرق الزمخشرى بين (من وراء الحجرات) باثبات (من) وراء الحجرات باسقاطها بأنه على الثانى يجوز أن يجمع المنادى والمنادى الوراء ، وعلى الأول لايجوز ذلك ، وعلله بأن الوراء يصير بدخول من مبتدأ الغاية ولايجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد . واعترضه فى البحر بأنه قد صرح الاصحاب فى معانى (من) أنها تكون لابتداء الغاية وانتهائها فى فعل واحد وأن الشئ الواحد يكون محلالهما ونسبوا ذلك إلى سيبويه وقالوا : إن منه قولهم : أخذت الدرهم من زيد فزيد محل لابتداء الاخذ منه وانتهائه معا قالوا : ـفمن ـ تكون فى أكثر المواضع لابتداء الغاية فقط ، وفى بعض المواضع لابتداء الغاية وانتهائها معا *

وصاحب التقريب بقوله : فيه نظر لأن المبدأ والمنتهى إما المنادى والمنادى على ماهو التحقيق أو الجهة ، فان كان الاول جاز أن يجمعها الوراء فى اثبات (من) وفى اسقاطها لتغاير المبدأ والمنتهى ، وإن كان الثانى فالجهة إما ذات أجزاء أو عديمتها ، فان كان الاول جاز أن يجمعهما فى اثبات من أيضاً باعتبار أجزاء الجهة ، وإن كان الثانى لم يجز أن يجمعهما لافى اثبات من ولا فى اسقاطها لاتحاد المورد . ورد الاول بأن محل الانتهاء هو المتكلم ليس الا كما ذكره ابن هشام فى المغنى ، وذكر أن ابن مالك قال : إن (من) فى المثال للمجاوزة ، والثانى غير قادح فى الفرق على ماذكره صاحب الكشف قال: الحاصل أن المبدأ الجهة باعتبار تلبسها بالفاعل لأن حرف الابتداء دخل على الجهة والفعل مما ليست المسافة داخلة فى مفهومه فيعتبر الامران تحقيقا لمقتضى الفعل والحرف ، ولما أوقع جميع الجهة مبدأ لم يجز أن يكون منتهى سواء كان منقسما أو لا ، ثم لما كان الوراء مبهما لم يكن مثل سرت من البصرة إلى جامعها إذ لا يتعين بعضها مبدأ وبعضها منتهى ، على أن ذلك أيضا إذا أطلق يجب أن يحمل على أن المنتهى غير البصرة ، أما إذا عينت فيجوز مع تجوز والاصل عدمه الا بدليل ، ثم هذا الجواز فيما كانت النهاية مكانا أيضا أما إذا اعتبرت باعتبار التلبس بالمفعول فلا ، وإذا لم يذكر حرف الابتداء لم يؤد هذا المعنى *

فهذا فرق محقق ومنه يظهر أن المذكور فى التقريب من النظر غير قادح ، وماذكر من أن التحقيق أن الفعل يبتدئ من الفاعل وينتهى إلى المفعول ويقع فى الظرف وأن (من وراء الحجرات) ووراءها كلاهما ظرف كصليت من خلف الامام وخلفه ومن قبل اليوم وقبله ومعنى الابتداء غير محقق والفرق تعسف ظاهر فى أن من زائدة لافرق بين دخولها وخروجها وهو خلاف الظاهر والا لما اختلفوا فى زيادتها فى الاثبات لشيوع نحو هذا الكلام فيما بينهم ، ومتى لم تكن زائدة فلا بد من الفرق بين الكلامين لاسيما إذا كانا من كلامه عز وجل فتدبر . والتعبير عن النداء بصيغة المضارع مع تقدمه على النزول لاستحضار الصورة الماضية لغرابتها *

والموصول اسم إن ، وجملة قوله تعالى: ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ٤ ﴾ خبرها وتكرار الاسناد للمبالغة، والمراد أنهم لايجرون على مقتضى العقل من مراعاة الادب لاسيما مع أجل خلق الله تعالى وأعظمهم عنده سبحانه ﷺ وكثيرا ما ينزل وجود الشيء منزلة عدمه لمقتض ، والحكم على الاكثر دون الكل بذلك لأن منهم من لم يقصد ترك الادب بل نادى لامر ماعلى ماقيل ، وجوز أن يكون المراد بالقلة التى يدل عليها نفى الكثرة

العدم فانه يكفى بهاعنه ، وتعقبه أبو حيان بأن ذلك فى صريح القلة لافى المفهوم من نفى الكثرة، وكان هؤلاء من بنى تميم كما صرح به أكثر أهل السير. أخرج ابن إسحق . وابن مردويه عن ابن عباس قال. قدم وفد بنى تميم وهم سبعون رجلا أو ثمانون رجلا منهم الزبرقان بن بدر . وعطارد بن حاجب بن زرارة . وقيس بن عاصم . وقيس بن الحرث . وعمرو بن الاهتم المدينة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فانطلق معهم عيينة ابن حصن بن بدر الفزارى وكان يكون فى كل سوأة حتى أتوا منزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فنادوه من وراء الحجرات بصوت جاف يامحمد اخرج الينا ثلاثا فخرج اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا . يامحمد ان مدحنا زين وإن شتمنا شين نحن أكرم العرب فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: كذبتم بل مدح الله تعالى الزين وشتمه الشين وأكرم منكم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم فقالوا : إنا أتيناك لنفاخرك فذكره بطوله وقال فى آخره . فقال التميميون والله إن هذا الرجل لمصنوع له لقد قام خطيبه فكان أخطب من خطيبنا وفاه شاعره فكان أشعر من شاعرنا وفيهم أنزل الله تعالى (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) من بنى تميم (أكثرهم لايعقلون) هذا فى القراءة الأولى ه

وذكر ابن هشام فى سيرته عن ابن اسحق الخبر بطوله وعد منهم الأقرع بن حابس وذكر أنه وعيينة شهدا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتح مكة وحنينا والطائف ، وأن عمرو بن الأهتم خلفه القوم فى ظهرهم وان خطيبهم عطارد بن حاجب وخطيبه صلى الله تعالى عليه وسلم ثابت بن قيس بن شماس وشاعرهم الزبرقان بن بدر وشاعره عليه الصلاة والسلام حسان بن ثابت وذكر الخطبتين وما قيل من الشعر وأنه لما فرغ حسان قال الأقرع : وأبى ان هذا الرجل لمؤتى له لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، وأنه لما فرغوا أسلموا وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم وأرسل لعمرو جائزته كالقوم ، وتعقب ابن هشام الشعر بعض التعقب . وفى البحر أيضا ذكر الخبر بطوله مع مخالفة كلية لما ذكره ابن اسحق ، وفيه أن الأقرع قام بعد أن أنشد الزبرقان ماأنشد وأجابه حسان بما أجاب فقال: انى والله لقد جئت لأمر وقد قلت شعراً فاسمعه فقال:

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا ... اذا خالفونا عند ذكر المكارم
وانا رؤس الناس من كل معشر ... وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم
وان لنا المرباع فى كل غارة ... تكون بنجد أو بأرض التهائم

فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لحسان: قم فأجبه فقال :

بنى دارم لاتفخروا ان فخركم ... يصير وبالا عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم ... لنا خول من بين ظئر وخادم

فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : لقد كنت ياأخا دارم غنيا أن يذكر منك ماظننت أن الناس قد نسوه فكان قوله عليه الصلاة والسلام : أشد عليهم من جميع ماقال حسان ثم رجع حسان الى شعره فقال :

فان كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن يقسموا فى المقاسم
فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا ... ولا تفخروا عند النبى بدارم
والا ورب البيت قد مالت القنا ... على هامكم بالمرهفات الصوارم

فقال الأقرع بن حابس : والله ما أدرى ماهذا الأمر تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولا وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولا ، ثم دنا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال : أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله فقال النبي عليه الصلاة والسلام : مايضرك ما كان قبل هذا انتهى ، وهذا ظاهر فى أن اسلام الأقرع يومئذ ، ومعلوم أن سنة الوفود سنة تسع والطائف وحنين كانتا قبل ذلك ، وتقدم عن ابن اسحق أن الأقرع شهدهما مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ويتوهم منه أنه كان مسلما اذ ذاك فيتناقض مع هذا بل فى أول كلام ابن اسحق وآخره مايوهم التناقض ، والمذكور فى الصحاح أنه وكذا عيينة كان اذ ذاك من المؤلفة قلوبهم *

وقد روى ابن اسحق نفسه عن محمد بن ابراهيم ان قائلا قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أصحابه يوم قسمة ما أفاء الله تعالى عليه يوم حنين : يارسول الله أعطيت عيينة والاقرع مائة وتركت جعيل ابن سراقة الضمرى فقال : أما والذى نفس محمد بيده لجعيل خير من طلاع الارض كلهم مثل عيينة والاقرع ولكن تألفتهما ليسلما ووكلت جعيل بن سراقة الى اسلامه ، وجاء ما يدل على انهم من بنى تميم مرفوعا *

أخرج ابن مردويه من طريق يعلى بن الاشدق عن سعد بن عبد الله ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سئل عن قوله تعالى : (ان الذين ينادونك) الخ فقال : هم الجفاة من بنى تميم لولا أنهم من أشد الناس قتالا للاعور الدجال لدعوت الله تعالى عليهم ان يهلكهم ، وفى الصحيحين ما يشهد بأنهم من أشد الامة على الدجال وجعله أبو هريرة أحد أسباب حبهم ، وظاهر كثير من الاخبار ان سبب وفودهم المفاخرة ، وقال الواقدى ـ وهو حاطب ليل ـ : ان سببه هو أنهم كانوا قد جهروا السلاح على خزاعة فبعث اليهم رسول الله ﷺ عيينة ابن بدر فى خمسين ليس فيهم أنصارى ولا مهاجرى فأسر منهم أحد عشر رجلا واحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا فقدم رؤساؤهم بسبب اسرائهم ويقال : قدم منهم سبعون أو ثمانون رجلا فى ذلك منهم عطارد والزبرقان . وقيس بن عاصم . وقيس بن الحرث . ونعيم بن سعد . والاقرع بن حابس . ورياح بن الحرث . وعمرو ابن الاهتم فدخلوا المسجد وقد أذن بلال الظهر والناس ينتظرون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليخرج اليهم فعجل هؤلاء فنادوه من وراء الحجرات فنزل فيهم ما نزل ، ثم ذكر انه صلى الله تعالى عليه وسلم أجازهم كل رجل اثنتى عشرة أوقية وكساء ولعمرو بن الاهتم خمس أواق لحداثة سنه انتهى ، ولعل زيادة جائزته لما نيل منه أيضا فقد ذكر ابن اسحق ان عاصم بن قيس كان يبغض عمرا فقال : يارسول الله انه قد كان رجل منا فى رحالنا وهو غلام حدث وازرى به فقال لما بلغه ذلك يخاطب قيسا :

ظللت مفترش الهلباء تشتمنى عند الرسول فلم تصدق ولم تصب
سدناكم سؤددا رهوا وسؤددكم باد نواجذه مقع على الذنب

وروى عن عكرمة عن ابن عباس أنهم ناس من بنى العنبر أصاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من ذراريهم فاقبلوا فى فدائهم فقدموا المدينة ودخلوا المسجد وعجلوا ان يخرج اليهم النبى عليه الصلاة والسلام فجعلوا يقولون : يامحمد اخرج الينا ، وذكر الخفاجى ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعث الى قوم من العرب هم بنو العنبر سرية أميرها عيينة بن حصن فهربوا وتركوا النساء والذرارى فسباهم وقدم بهم عليه عليه الصلاة والسلام فجاء رجالهم راجين اطلاق الاسارى فنادوا من وراء الحجرات فخرج ﷺ فاطلق النصف وفادى

الباقى، وظاهر كلامه انهم ليسوا من بنى تميم وان كانت هذه السرية متحدة مع السرية التى اشار اليها الواقدى فيما تقدم، ويقال: إن عيينة فى الكلامين هو عيينة بن حصن بن بدر الا انه نسب هناك الى جده وهنا الى أبيه كان ذلك الكلام ظاهرا فى ان القوم كانوا من بنى تميم لا أناسا آخرين، وفى القاموس العنبر أبو حى من تميم فبنو العنبر عليه منهم فلم يخرج الأمر عنهم.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أى ولو ثبت صبرهم وانتظارهم حتى تخرج لكان الصبر خيرا لهم من الاستعجال لما فيه من حفظ الادب وتعظيم النبى ﷺ الموجبين للثناء والثواب أو لذلك والاسعاف بالمسئول على أوفق وجه وأوقعه عندهم بناء على حديث الاسارى بأن يطلق عليه الصلاة والسلام الجميع من غير فداء، فأن المفتوحة المؤولة بالمصدر هنا فاعل فعل مقدر وهو ثبت كما اختاره المبرد والقرينة عليه معنى الكلام، فان أن تدل على الثبوت وهو انما يكون فى الماضى حقيقة ولذا يقدر الفعل ماضيا * وضمير (كان) للمصدر الدال عليه (صبروا) كما فى قولك: من كذب كان شرا له أى الكذب ومذهب سيبويه ان المصدر فى موضع المبتدأ فقيل: خبره مقدر أى لو صبرهم ثابت وقيل: لاخبر له؛ وأنت تعلم أن فى تقدير الفعل ابقاء (لو) على ظاهرها من دخولها على الفعل فانها فى الأصل شرطية مختصة به، وجوز كون ضمير (كان) لمصدر الفعل المقدر أى لكان ثبوت صبرهم، وصنيع الزمخشرى يقتضى أولويته *

وأوثرت (حتى) هنا على الى لأنها موضوعة لما هو غاية فى نفس الامر ويقال له الغاية المضروبة أى المعينة والى لما هو غاية فى نفس الامر أو بجعل الجاعل، واليه يرجع قول المغاربة وغيرهم: إن مجرور حتى دون مجرور الى لابد من كونه آخر جزء نحو أكلت السمكة حتى رأسها أو ملاقيا له نحو (سلام هى حتى مطلع الفجر) ولا يجوز سهرت البارحة حتى ثلثيها أو نصفها فيفيد الكلام معها أن انتظارهم الى أن يخرج ﷺ أمر لازم ليس لهم أن يقطعوا أمرا دون الانتهاء اليه، فان الخروج لما جعله الله تعالى غاية كان كذلك فى الواقع، والى هذا ذهب الزمخشرى، وتوهم ابن مالك أنه لم يقل به أحد غيره، واعترض عليه بقوله:

عينت ليلة فما زلت حتى ... نصفها راجيا فعدت يؤسا

وأجيب بأنه على تسليم انه من كلام من يعتد به مع انه نادر شاذ لا يرد مثله نقضا مدفوع بأن معنى عينت ليلة عينت وقتا للزيارة وزيارة الاحباب يتعارف فيها ان تقع فى أول الليل فقوله: حتى نصفها بيان لغاية الوقت المتعارف للزيارة الذى هو أول الليل والنصف ملاق له، وهو أولى من قول ابن هشام فى المغنى: ان هذا ليس محل الاشتراط اذ لم يقل: فما زلت فى تلك الليلة حتى نصفها وان كان المعنى عليه، وحاصله ان الاشتراط مخصوص فيما اذا صرح بذى الغاية اذ لا دليل على هذا التخصيص، وخفاء عدم الاكتفاء بتقديم ليلة فى صدر البيت. نعم ماذكر من أصله لا يخلو عن كلام كما يشير اليه كلام صاحب الكشف، ولذا قال الاظهر: إنه أوثر حتى تخرج اختصارا لوجوب حذف أن ووجوب الاظهار فى الى مع أن حتى أظهر دلالة على الغاية المناسبة للحكم وتخالف ما بعدها وما قبلها ولهذا جاءت للتعليل دون الى، وفى قوله تعالى: (اليهم) اشعار بأنه عليه الصلاة والسلام لو خرج لا لأجلهم ينبغى أن يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجه اليهم فليس زائدا بل قيد لا بد منه ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ بليغ المغفرة والرحمة فلذا اقتصر سبحانه على

النصح والتقريع لهؤلاء المسيئين الأدب التاركين تعظيم رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وقد كان مقتضى ذلك أن يعذبهم أو يهلكهم أو فلم تضق ساحة مغفرته ورحمته عز وجل عن هؤلاء ان تابوا وأصلحوا، ويشير الى هذا قوله صلى الله تعالى عليه وسلم للاقرع بعد أن دنا منه عليه الصلاة والسلام وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله: ما يضرك ما كان قبل هذا ، وفي الآيات من الدلالة على قبح سوء الادب مع الرسول ﷺ ما لايخفى ، ومن هذا وأمثاله تقتطف ثمر الالباب وتقتبس محاسن الآداب كما يحكى عن أبي عبيد وهو في الفضل هو أنه قال: ما دققت بابا على عالم حتى يخرج في وقت خروجه ، ونقله بعضهم عن القاسم ابن سلام الكوفي ، ورأيت في بعض الكتب أن الحبر ابن عباس كان يذهب الى أبي في بيته لأخذ القرآن العظيم عنه فيقف عند الباب ولا يدق الباب عليه حتى يخرج فاستعظم ذلك أبي منه فقال له يوما: هلا دققت الباب يا ابن عباس ؟ فقال: العالم في قومه كالنبي في أمته وقد قال الله تعالى في حق نبيه عليه الصلاة والسلام: (ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم) وقد رأيت هذه القصة صغيرا فعملت بموجبها مع مشايخي والحمد لله تعالى على ذلك *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ أخرج احمد . وابن ابي الدنيا . والطبراني . وابن منده . وابن مردويه بسند جيد عن الحرث بن ابي ضرار الخزاعي قال: قدمت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فدعاني الى الاسلام فدخلت فيه وأقررت به ودعاني الى الزكاة فأقررت بها وقلت: يارسول الله أرجع الى قومي فادعوهم الى الاسلام واداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته وترسل الي يارسول الله رسولا لإبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة فلما جمع الحرث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبعث اليه احتبس الرسول فلم يأت فظن الحرث ان قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فدعا سروات قومه فقال لهم: رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان وقت لي وقتا يرسل الي رسوله ليقبض ماكان عندنا من الزكاة وليس من رسول الله عليه الصلاة والسلام الخلف ولا أرى حبس رسوله الا من سخطة فانطلقوا بنا نأتي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط وهو أخو عثمان رضي الله تعالى عنه لأمه الى الحرث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما ان سار الوليد الى أن بلغ بعض الطريق فرق فرجع فأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال. ان الحرث منعني الزكاة وأراد قتلي فضرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البعث الى الحرث فاقبل الحرث بأصحابه حتى اذا استقبله الحرث وقد فصل عن المدينة قالوا: هذا الحرث فلما غشيهم قال لهم: الى من بعثتم ؟ قالوا: اليك قال: ولم ؟ قالوا: إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث اليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله قال: لا والذي بعث محمدا بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني فلما دخل الحرث على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا رآني ولا أقبلت الا حين احتبس على رسول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خشية أن يكون سخطة من الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فنزل (يا أيها الذين ءامنوا إن جاءكم) الى قوله سبحانه: (حكيم) وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: أتى

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: يانبي الله ان بني فلان حيا من أحياء العرب وكان في نفسه عليهم شيء وكان حديث عهد بالاسلام قد تركوا الصلاة وارتدوا وكفروا بالله تعالى فلم يعجل رسول الله عليه الصلاة والسلام ودعا خالد بن الوليد فبعثه اليهم ثم قال: ارمقهم عند الصلوات فان كان القوم قد تركوا الصلاة فشأنك بهم والا فلا تعجل عليهم فدنا منهم عند غروب الشمس فكمن حتى يسمع الصلاة فرمقهم فاذا هو بالمؤذن قد قام عند غروب الشمس فاذن ثم أقام الصلاة فصلوا صلاة المغرب فقال خالد: ما أراهم الا يصلون فلعلهم تركوا صلاة غير هذه ثم كمن حتى إذا جنح الليل وغاب الشفق اذن مؤذنهم فصلوا فقال: لعلهم تركوا صلاة اخرى فكمن حتى إذا كان في جوف الليل تقدم حتى اطل الخيل بدورهم فاذا القوم تعلموا شيئاً من القرآن فهم يتهجدون به من الليل ويقرؤنه ثم أتاهم عند الصبح فاذا المؤذن حين طلع الفجر قد أذن واقام فقاموا وصلوا فلما انصرفوا واضاء لهم النهار إذا هم بنواصي الخيل في ديارهم فقالوا: ماهذا؟ قالوا: خالد بن الوليد قالوا: ياخالد ماشأنك؟ قال: أنتم والله شأني أتى النبي ﷺ فقيل له: انكم تركتم الصلاة وكفرتم بالله تعالى فجثوا يبكون فقالوا: نعوذ بالله تعالى أن نكفر ابدا فصرف الخيل وردها عنهم حتى أتى النبي ﷺ وأنزل الله تعالى (يأأيها الذين آمنوا) الآية قال الحسن: فو الله لئن كانت نزلت في هؤلاء القوم خاصة إنها لمرسلة إلى يوم القيامة مانسخها شيء، والرواية السابقة أصح وأشهر، وكلام صاحب الكشف مصرح بأن بعث خالد بن الوليد كان في قضية الوليد بن عقبة، وأن النبي عليه الصلاة والسلام بعثه إلى أولئك الحي من خزاعة بعد رجوع الوليد وقوله ماقال، والقائل بذلك قال: إنهم سلموا اليه الصدقات فرجع، والخطاب بقوله تعالى: (يأأيها الذين آمنوا) شامل للنبي ﷺ والمؤمنين من أمته الكاملين منهم محاسن آداب وغيرهم، وتخصيص الخطاب بحسب مايقع من الامر بعده إذ يليق بحال بعضهم لايخرجه عن العموم لوجوده فيما بينهم فلا تغفل، والفاسق الخارج عن حجر الشرع من قولهم: فسق الرطب إذا خرج عن قشره، قال الراغب. والفسق أعم من الكفر ويقع بالقليل من الذنوب وبالكثير لكن تعورف فيما كانت كثيرة، وأكثر مايقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقر به ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضها، وإذا قيل للكافر الاصلي فاسق فلأنه اخل بحكم ماألزمه العقل واقتضته الفطرة، ووصف الانسان به ـ على ماقال ابن الاعرابي ـ لم يسمع في كلام العرب، والظاهر أن المراد به هنا المسلم المخل بشيء من أحكام الشرع أو المروءة بناء على مقابلته بالعدل وقد اعتبر في العدالة عدم الاخلال بالمروءة، والمشهور الاقتصار في تعريفه على الاخلال بشيء من أحكام الشرع فلا تغفل، والتبين طلب البيان والتعرف، وقريب منه التثبت كما في قراءة ابن مسعود. وحمزة. والكسائي (فتثبتوا) وهو طلب الثبات والتأني حتى يتضح الحال *

وقد أخرج عبد بن حميد. وابن جرير عن قتادة «أن النبي ﷺ قال يوم نزلت الآية: التثبت من الله تعالى والعجلة من الشيطان» وتنكير (فاسق) للتعميم لأنه نكرة في سياق الشرط وهي كالنكرة في سياق النفي تفيد العموم كما قرر في الاصول وكذا نبأ، وهو ـ كما في القاموس ـ الخبر، وقال الراغب: لايقال للخبر في الاصل نبأ حتى يكون ذا فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، وقوله تعالى: (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) تنبيه على أنه إذا كان الخبر شيئا عظيما وماله قدر فحقه أن يتوقف فيه وإن علم أو غلب صحته على الظن حتى يعاد النظر فيه ويتبين فضل تبين، ولما كان رسول الله ﷺ والذين معه بالمنزلة التي لايجسر أحد أن يخبرهم بكذب وما كان يقع مثل

ما فرط من الوليد الافى الندرة قيل : (إن جاءكم) بحرف الشك ، وفى النداء (بياأيها الذين آمنوا) دلالة على أن الايمان إذا اقتضى التثبت فى نبأ الفاسق فأولى أن يقتضى عدم الفسق ، وفى اخراج الفاسق عن الخطاب مايدل على تشديد الامر عليه من باب «لايزنى الزانى وهو مؤمن» والمؤمن لايكذب ، واستدل بالآية على أن الفاسق أهل للشهادة والا لم يكن للامر بالتبين فائدة ، الاترى أن العبد إذا شهد ترد شهادته ولا يتثبت فيها خلافا للشافعى ، وعلى جواز قبول خبر العدل الواحد، وقرره الاصوليون بوجهين . احدهما أنه لولم يقبل خبره لما كان عدم قبوله معللا بالفسق ، وذلك لأن خبر الواحد على هذا التقدير يقتضى عدم القبول لذاته وهو كونه خبر واحد فيمتنع تعليل عدم قبوله بغيره لأن الحكم المعلل بالذات لا يكون معللا بالغير إذ لوكان معللا به اقتضى حصوله به مع أنه حاصل قبله لكونه معللا بالذات وهو باطل لأنه تحصيل للحاصل أو يلزم توارد علتين على معلول واحد فى خبر الفاسق ، وامتناع تعليله بالفسق باطل للآية فان ترتب الحكم على الوصف المناسب يغلب على الظن أنه علة له والظن كاف هنا لأن المقصود هو العمل فثبت أن خبر الواحد ليس مردودا وإذا ثبت ذلك ثبت أنه مقبول يعمل به . ثانيهما أن الامر بالتبين مشروط بمجيء الفاسق ومفهوم الشرط معتبر على الصحيح فيجب العمل به إذا لم يكن فاسقا لأن الظن يعمل به هنا ، والقول بالواسطة منتف ، والقول بأنه يجوز اشتراك أمور فى لازم واحد فيعلق بكل منهما بكلمة إن مع أنه لا يلزم من انتفاء ذلك الملزوم انتفاء اللازم غير متوجه لأن الشرط مجموع تلك الامور وكل واحد منها لا يعد شرطا على ماقرر فى الاصول . نعم قال ابن الحاجب وعضد الدين : قد استدل من قبلنا على وجوب العمل بخبر الواحد بظواهر لا تفيد الا الظن ولا يكفى فى المسائل العلمية وذكرا من ذلك الآية المذكورة ، ثم ان للقائلين بوجوب العمل به اختلافا كثيراً مذكوراً فى محله *

واستدل الحنفية بها على قبول خبر المجهول الذى لاتعلم عدالته وعدم وجوب التثبت لأنها دلت على أن الفسق شرط وجوب التثبت فاذا انتفى الفسق انتفى وجوبه وههنا قد انتفى الفسق ظاهرا ونحن نحكم به فلا يجب التثبت *

وتعقب بأنا لا نسلم انه ههنا انتفى الفسق بل انتفى العلم به ولا يلزم من عدم العلم بالشئ عدمه والمطلوب العلم بانتفائه ولا يحصل الا بالخبرة به أو بتزكية خبير به له ، قال العضد : ان هذا مبنى على ان الاصل الفسق أو العدالة والظاهر أنه الفسق لأن العداله طارئة ولأنه أكثر . واستدل بها على أن من الصحابة رضى الله تعالى عنهم من ليس بعدل لأن الله تعالى اطلق الفاسق على الوليد بن عقبة فيها ، فان سبب النزول قطعى الدخول وهو صحابى بالاتفاق فيرد بها على من قال : إنهم كلهم عدول ولا يبحث عن عدالتهم فى رواية ولا شهادة ، وهذا احد اقوال فى المسئلة وقد ذهب اليه الاكثر من العلماء السلف والخلف . وثانيها انهم كغيرهم فيبحث عن العدالة فيهم فى الرواية والشهادة الا من يكون ظاهرها أو مقطوعها كالشيخين . وثالثها أنهم عدول الى قتل عثمان رضى الله تعالى عنه ويبحث عن عدالتهم من حين قتله لوقوع الفتن من حينئذ وفيهم الممسك عن خوضها . ورابعها انهم عدول الا من قاتل عليا كرم الله تعالى وجهه لفسقه بالخروج على الامام الحق والى هذا ذهبت المعتزلة *

والحق ماذهب اليه الاكثرون وهم يقولون : إن من طرأ له منهم قادح ككذب أوسرقة أو زنا عمل بمقتضاه فى حقه الا انه لايصر على مايخل بالعدالة بناء على ماجاء فى مدحهم من الآيات والاخبار وتواتر من محاسن الآثار ، فلا يسوغ لنا الحكم على من ارتكب منهم مفسقا بأنه مات على الفسق، ولا ننكر أن منهم من ارتكب فى حياته مفسقا لعدم القول بعصمتهم وانه كان يقال له قبل توبته فاسق لكن لا يقال باستمرار هذا الوصف

فيه ثقة ببركة صحبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومزيد ثناء الله عز وجل عليهم كقوله سبحانه (وكذلك جعلناكم امة وسطا) أي عدولا وقوله سبحانه : (كنتم خير امة أخرجت للناس) الى غير ذلك ، وحينئذ ان أريد بقوله : إن من الصحابة من ليس بعدل ان منهم من ارتكب فى وقت ما ما ينافى العدالة فدلالة الآية عليه مسلمة لكن ذلك ليس محل النزاع ، وان اريد به أن منهم من استمر على ما ينافى العدالة فدلالة الآية عليه غير مسلمة كما لا يخفى فتدبر فالمسألة بعد تتحمل الكلام وربما تقبل زيادة قول خامس فيها.هذا ثم اعلم ان الفاسق قسمان فاسق غير متأول وهو ظاهر ولا خلاف فى انه لا يقبل خبره وفاسق متأول كالجبرى والقدرى ويقال له المبتدع ببدعة واضحة ، فمن الاصوليين من رد شهادته وروايته للآية ومنهم الشافعى . والقاضى ، ومنهم من قبلهما ، أما الشهادة فلأن ردها لتهمة الكذب والفسق من حيث الاعتقاد لا يدل عليه بل هو امارة الصدق لأن موقعه فيه تعمقه فى الدين ، والكذب حرام فى كل الاديان لاسيما عند من يقول بكفر الكاذب أو خروجه من الايمان وذلك يصده عنه الا من يدين بتصديق المدعى المتحلى بحليته كالخطابية ، وكذا من اعتقد بحجية الالهام ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: نحن نحكم بالظاهر وأما الرواية فلأن من احترز عن الكذب على غير الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فاحترازه من الكذب عليه صلى الله تعالى عليه وسلم أولى الا من يعتقد حل وضع الاحاديث ترغيبا أو ترهيبا كالكرامية أو ترويجاً لمذهبه كابن الراوندى،وأصحابنا الحنفية قبلوا شهادتهم لما مر دون روايتهم اذا دعوا الناس الى هواهم ، وعلى هذا جمهور ائمة الفقه والحديث لأن الدعوة الى ذلك داعية الى النقول فلا يؤتمنون على الرواية ولا كذلك الشهادة.ورجح ماذهب اليه الشافعى والقاضى بأن الآية تقتضيه والعمل بها أولى من العمل بالحديث لتواترها وخصوصها ، والعام يحتمل التخصيص ولأنها لم تخصص اذ كل فاسق مردود ، والحديث خص منه خبر الكافر . وأجيب بأن مفهومها أن الفسق هو المقتضى للتثبت فيراد به ماهو امارة الكذب لا ماهو امارة الصدق فافهم ، وليس من الفسق نحو اللعب بالشطرنج من مجتهد يحله أو مقلد له صوبنا أو خطأنا لوجوب العمل بموجب الظن ولا تفسيق بالواجب ، وحد الشافعى عليه الرحمة شارب النبيذ ليس لأنه فاسق بل لزجره لظهور التحريم عنده ، ولذا قال : أحده وأقبل شهادته ، وكذا الحد فى شهادة الزنا لعدم تمام النصاب لا يدل على الفسق بخلافه فى مقام القذف فليحفظ ،

﴿ أَنْ تُصِيبُواْ ﴾ تعليل للامر بالتبين أى فتبينوا كراهة أن تصيبوا أو لئلا تصيبوا ﴿ قَوْمًا ﴾ أى قوم كانوا ﴿ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ ملتبسين بجهالة لحالهم ، ومآله جاهلين حالهم ، ﴿ فَتُصْبِحُواْ ﴾ فتصيروا بعد ظهور براءتهم عما رموا به ﴿ عَلَىٰ مَافَعَلْتُمْ ﴾ فى حقهم ﴿ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ مغتمين غما لازما متمنين أنه لم يقع ، فان الندم الغم على وقوع شيء مع تمنى عدم وقوعه ، ويشعر باللزوم وكذا سائر تصاريف حروفه وتقاليبها كمدن بمعنى لزم الاقامة ومنه المدينة وأدمن الشيء أدام فعله ، وزعم بعضهم أن فى الآية إشارة إلى أنه يجب على الانسان تجديد الندم كلما ذكر الذنب ونسب إلى الزمخشرى وليس بشيء ؛ وفى الكشف التحقيق أن الندم غم خاص ولزومه قد يقع لقوته فى أول الأمر وقد يكون لعدم غيبة موجبه عن الخاطر ، وقد يكون لكثرة تذكره ولغير ذلك من الأسباب ، وان تجديد الندم لا يجب فى التوبة لكن التائب الصادق لابد له من ذلك ،

﴿ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ عطف على ما قبله ، و(أن) بما فى حيزها ساد مسد مفعولى (اعلموا)

باعتبار ما قيد به من الحال وهو قوله عز وجل : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أى لوقعتم فى الجهد والهلاك فانه حال من احد الضميرين فى (فيكم) الضمير المستتر المرفوع وهو ضمير الرسول أو البارز المجرور وهو ضمير المخاطبين ، وتقديم خبر أن للحصر المستتبع زيادة التوبيخ ،وصيغة المضارع للاستمرار ـ فلو ـ لامتناع استمرار طاعته عليه الصلاة والسلام لهم فى كثير مما يعن لهم من الأمور ، وكون المراد استمرار الامتناع نظير ماقيل فى قوله تعالى : (ولا هم يحزنون) من أن المراد استمرار النفى ليس بذاك ، وفى الكلام اشعار بانهم زينوا بين يدى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الايقاع بالحرث وقومه وقد أريد أن ينعى عليهم ذلك بتنزيلهم منزلة من لا يعلم أنه عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم . فقيل : واعلموا أنه فيكم لافى غيركم كأنهم حسبوه لعدم تأدبهم وما بدر منهم الفرطة بين أظهر أقوام آخرين كائنا على حال يجب عليكم تغييرها أو وأنتم على كذلك وهو ماتريدون من استتباع رأيه لرأيكم وطاعته لكم مع أن ذلك تعكيس وموجب لوقوعكم فى العنت ، وفيه مبالغات من أوجه : أحدها إيثار (لو) ليدل على الفرض والتقدير وأن مابدر من من التزيين كان من حقه أن يفرض كما يفرض الممتنعات، والثانى مافى العدول إلى المضارع من تصوير ماكانوا عليه وتهجينه مع التوبيخ بارادة استمرار ماحقه أن يكون مفروضا فضلا عن الوقوع ، والثالث مافى العنت من الدلالة على أشد المحذور فانه الكسر بعد الجبر والرمز الخفى على أنه ليس بأول بادرة . والرابع مافى تعميم الخطاب والحرى به غير الكمل من التعريض ليكون أردع لمرتكبه وأزجر لغيره كأنه قيل : ياأيها الذين آمنوا تبينوا ان جاءكم فاسق ولاتكونوا أمثال هؤلاء ممن استفزه النبأ قبل تعرف صدقه ثم لا يقنعه ذلك حتى يريد أن يستتبع رأى من هو المتبوع على الاطلاق فيقع هو ويقع غيره فى العنت والارهاق واعلموا جلالة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتفادوا عن أشباه هذه الهنات ، وقوله عز وجل :

﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ استدراك على ما يقتضيه الكلام فان (لو يطيعكم) خطاب كما سمعت للبعض الغير الكمل عمم للفوائد المذكورة والمحبب اليهم الايمان هم الكمل فكأنه قيل : ولكن الله حبب إلى بعضكم الايمان وعدل عنه لنداء الصفة به ، وعليه قول بعض المفسرين هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، والإشارة بقوله تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ٧ ﴾ اليهم ، وفيه نوع من الالتفات ، والخطاب فيه للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كأنه تعالى يبصره عليه الصلاة والسلام ما هم فيه من سبق القدم فى الرشاد أى إصابة الطريق السوى ، فحاصل المعنى أنتم على الحال التى ينبغى لكم تغييرها وقد بدر منكم مابدر ولكن ثم جمعا عما أنتم عليه من تصديق الكاذب وتزيين الايقاع بالبرىء وإرادة أن يتبع الحق أهواءكم برآء لأن الله تعالى حبب اليهم الإيمان الخ ، وهذا أولى من جعل (لو يطيعكم) الخ فى معنى ماحبب اليهم الايمان تغليظا لأن من تصدى للايقاع بالبرىء بين يدى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وجسر على ارتكاب تلك العظيمة لم يكن محبوبا اليه الايمان وإن كان ذلك أيضا سديدا لشيوع التصرف فى الأواخر فى مثله ، وجعله بعضهم استدراكا ببيان عذرهم فيما بدر منهم ، ومآل المعنى لم يحملكم على ماكان منكم اتباع الهوى ومحبة متابعة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لآرائكم بل محبة الايمان وكراهة الكفر هى الداعية لذلك ، والمناسب لما بعد ماذكرناه .

وجوز غير واحد من المعربين أن (لو يطيعكم) استئناف على معنى إنه لما قيل (واعلموا أن فيكم رسول الله) دالا على أنهم جاهلون بمكانه عليه الصلاة والسلام مفرطون فيما يجب من تعظيم شأنه أعلى الله تعالى شأنه اتجه لهم أن يسألوا ماذا فعلوا حتى نسبوا الى التفريط وماذا ينتج من المضرة ؟ فأجيبوا بما يصرح بالنتيجة لخفائها ويومىء الى مافيها من المعرة من وقوعهم فى العنت بسبب استتباع من هو فى علو المنصب اقتداء يتخطى أعلى المجرة، وهو حسن لولا أن (واعلموا) كلام من تتمة الاول كما يؤذن به العطف لاوارد تقريعا على الاستقلال فيأبى التقدير المذكور لتعين موجب التفريط ، وأيضاً يفوت التعريض وان ذلك بادرة من بعضهم فى قصة ابن عقبة ويتنافر الكلام ، هذا (وكره) يتعدى بنفسه الى واحد واذا شدد زاد له آخر لكنه ضمن فى الآية معنى التبغيض فعومل معاملته وحسنه مقابلته لحبب أو نزل (اليكم) منزلة مفعول آخر ، و (الكفر) تغطية نعم الله تعالى بالجحود ، و (الفسوق) الخروج عن القصد ومأخذه ما تقدم ، (والعصيان) الامتناع عن الانقياد ، وأصله من عصت النواة صلبت واشتدت ، والكلام أعنى قوله تعالى : (ولكن الله) الخ ثناء عليهم بما يردف التحبيب المذكور والتكريه من فعل الاعمال المرضية والطاعات والتجنب عن الافعال القبيحة والسيآت على سبيل الكناية ليقع التقابل موقعه على ماسلف آنفا ، وقيل : الداعى لذلك مايلزم على الظاهر من المدح بفعل الغير مع ان الكلام مسوق للثناء عليهم وهو فى ايثارهم الايمان واعراضهم عن الكفر وأخويه لافى تحبيب الله تعالى الايمان لهم وتكريهه سبحانه الكفر وما معه اليهم . وأنت تعلم أن الثناء على صفة الكمال اختيارية كانت أولا شائع فى عرف العرب والعجم ، والمنكر معاند على ان ذلك واقع على الجماد أيضا ، والمسلم الضرورى انه لايمدح الرجل بما لم يفعله على انه فعله ، واليه الاشارة فى قوله تعالى : (ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) أما أنه لايمدح به على أنه صفة له فليس بمسلم فلا تغفل ﴿ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ تعليل للافعال المستندة اليه عز وجل فى قوله سبحانه : (ولكن الله حبب) الخ وما فى البين اعتراض ، وجوز كونه تعليلا للراشدين ، وصحح النصب على القول باشتراط اتحاد الفاعل أى من قام به الفعل وصدر عنه موجداً له أولا لما أن الرشد وقع عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه مسندة الى اسمه تبارك اسمه فانه لوقيل مثلا حبب اليكم الايمان فضلا منه وجعل كناية عن الرشد لصح فيحسن أن يقال : أولئك هم الراشدون فضلا ويكون فى قوة أولئك هم المحببون فضلا أو لأن الرشد ههنا يستلزم كونه تعالى شأنه مرشدا اذ هو مطاوع أرشد، وهذا نظير ماقالوا من ان الاراءة تستلزم رؤية فى قوله سبحانه : (يريكم البرق خوفا وطمعا) فيتحد الفاعل ويصح النصب ، وجوز كونه مصدراً لغير فعله فهو منصوب اما بحبب أو بالراشدين فان التحبيب والرشد من فضل الله تعالى وانعامه ، وقيل : مفعول به لمحذوف أى يبتغون فضلا ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ مبالغ فى العلم فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿ حَكِيمٌ ٨ ﴾ يفعل كل مايفعل من افضال وانعام وغيرهما بموجب الحكمة *

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ أى تقاتلوا ، وكان الظاهر اقتتلتا بضمير التثنية كما فى قوله تعالى: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ أى بالنصح وازالة الشبهة إن كانت والدعاء إلى حكم الله عز وجل ، والعدول إلى ضمير الجمع لرعاية المعنى فان كل طائفة من الطائفتين جماعة فقد روعى فى الطائفتين معناهما أولا ولفظهما ثانيا على

عكس المشهور فى الاستعمال ، والنكتة فى ذلك ما قيل : إنهم أولا فى حال القتال مختلطون فلذا جمع أولا ضمير هم وفى حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثنى الضمير . وقرأ ابن أبى عبلة (اقتتلتا) بضمير التثنية والتأنيث كما هو الظاهر . وقرأ زيد بن على . وعبيد بن عمير (اقتتلا) بالتثنية والتذكير باعتبار أن الطائفتين فريقان ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا ﴾ تعدت وطلبت العلو بغير الحق ﴿ عَلَى الْأُخْرَىٰ ﴾ ولم تتأثر بالنصيحة ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ ﴾ أى ترجع ﴿ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى إلى حكمه أو الى ما أمر سبحانه به وقرأ الزهرى حتى (تفى) بغير همز وفتح الياء وهو شاذ كما قالوا فى مضارع جاء يجى بغير همز فاذا أدخلوا الناصب فتحوا الياء اجروه مجرى بنى مضارع وفى شذوذا ، وفى تعليق القتال بالموصول للاشارة الى علية ما فى حيز الصلة أى فقاتلوها لبغيها ﴿ فَإِن فَاءَتْ ﴾ أى رجعت إلى أمره تعالى وأقلعت عن القتال حذرا من قتالكم ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ بفصل ما بينهما على حكم الله تعالى ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما عسى أن يكون بينهما قتال فى وقت آخر ، وتقييد الاصلاح هنا بالعدل لأنهُ مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة وقد أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَأَقْسِطُوا ﴾ أى اعدلوا فى كل ما تأتون وما تذرون ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٩ ﴾ فيجازيهم أحسن الجزاء . وفى الكشاف فى الاصلاح بالعدل والقسط تفاصيل ، ان كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها ضمنت بعد الفيئة ما جنت ، وأن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة لم تضمن الا عند محمد ابن الحسن فانه كان يفتى بأن الضمان يلزمها اذا فاءت ، وأما قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أو زارها فما جنته ضمنته عند الجميع فمحمل الاصلاح بالعدل على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل ، وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد ، والذى ذكروا من أن الفرض اماتة الضغائن وسل الاحقاد دون ضمان الجنايات ليس بحسن الطباق للمأمور به من اعمال العدل ومراعاة القسط . قال فى الكشف ، لأن ماذكروه من إماتة الاضغان داخل فى قوله تعالى : (فان فاءت) لأنه من ضرورات التوبة ، فاعمال العدل والقسط انما يكون فى تدارك الفرطات ثم قال : والاولى على قول الجمهور أن يقال : الاصلاح بالعدل أنه لا يضمن من الطرفين فان الباغى معصوم الدم والمال مثل العادل لا سيما وقد تاب فكما لا يضمن العادل المتلف لا يضمنه الباغى الفائى ، هذا مقتضى العدل لا تخصيص الضمان بطرف دون آخر . والآية نزلت فى قتال وقع بين الاوس والخزرج . أخرج أحمد . والبخارى . ومسلم . وابن جرير . وابن المنذر . وابن مردويه . والبيهقى فى سننه عن أنس قال : قيل للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لو اتيت عبد الله بن أبى فانطلق اليه وركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون وهى أرض سبخة فلما انطلق اليه قال : اليك عنى فوالله لقد آذانى ريح حمارك فقال رجل من الانصار : والله لحمار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أطيب ريحا منك فغضب لعبد الله رجال من قومه فغضب لكل منهما اصحابه فكان بينهم ضرب بالجريد والايدى والنعال فأنزل الله تعالى فيهم (وان طائفتان) الآية ، وفى رواية أن النبى عليه الصلاة والسلام كان متوجها الى زيارة سعد بن عبادة فى مرضه فمر على عبد الله بن أبى بن سلول فقال ما قال فرد عليه عبدالله ابن رواحة رضى الله تعالى عنه فتعصب لكل أصحابه فتقاتلوا فنزلت فقرأها صلى الله تعالى عليه وسلم عليهم فاصطلحوا وكان ابن رواحة خزرجيا وابن أبى أوسيا

وأخرج ابن جرير . وابن أبي حاتم عن السدى قال : كان رجل من الانصار يقال له عمران تحته امرأة يقال لها أم زيد وأنها أرادت أن تزور اهلها فحبسها زوجها وجعلها فى علية له لا يدخل عليها أحد من أهلها وأن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها وكان الرجل قد خرج فاستعان أهله فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وأهلها فتدافعوا واجتلدوا بالنعال فنزلت فيهم هذه الآية (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) فبعث اليهم رسول الله ﷺ فأصلح بينهم وفاءوا إلى أمر الله عز وجل ، والخطاب فيها على ما فى البحر لمن له الامر وروى ذلك عن ابن عباس وهو للوجوب فيجب الاصلاح ويجب قتال الباغية ما قاتلت وإذا كفت وقبضت عن الحرب تركت ، وجاء فى حديث رواه الحاكم . وغيره حكمها إذا تولت قال عليه الصلاة والسلام: « يا ابن أم عبد هل تدرى كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الامة ؟ قال : الله تعالى ورسوله أعلم قال : لا يجهز على جريحها ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيؤها » وذكروا أن الفئتين من المسلمين إذا اقتتلا على سبيل البغى منهما جميعا فالواجب أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين و يثمر المكافة والموادعة فانلم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقاما على البغى صيرا إلى مقاتلتهما ، وانهما إذا التحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة فالواجب ازالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة وإطلاعهما على مراشد الحق فان ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا اليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه فقد لحقتا باللتين اقتتلا على سبيل البغى منهما جميعا ، والتصدى لازالة الشبهة فى الفئة الباغية إن كانت لازم قبل المقاتلة ، وقيل : الخطاب لمن يتأتى منه الاصلاح ومقاتلة الباغى فمتى تحقق البغى من طائفة كان حكم اعانة المبغى عليه حكم الجهاد ، فقد أخرج الحاكم وصححه . والبيهقى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه قال: ماوجدت فى نفسى من شىء ماوجدت فى نفسى من هذه الآية يعنى (وان طائفتان) الخ إنى لم أقاتل هذه الفئة الباغيـــة كما أمرنى الله تعالى - يعنى بها معاوية ومن معه الباغين - على على كرم الله تعالى وجهه ، وصرح بعض الحنابلة بأن قتال الباغين أفضل من الجهاد احتجاجاً بأن علياً كرم الله تعالى وجهه اشتغل فى زمان خلافته بقتالهم دون الجهاد ، والحق أن ذلك ليس على اطلاقه بل إذا خشى من ترك قتالهم مفسدة عظيمة دفعها أعظم من مصلحة الجهاد ، وظاهر الآية أن الباغى مؤمن لجعل الطائفتين الباغية والمبغى عليها من المؤمنين . نعم الباغى على الامام ولو جائرا فاسق مرتكب لكبيرة إن كان بغيه بلا تأويل أو بتأويل قطعى البطلان . والمعتزلة يقولون فى مثله : إنه فاسق مخلد فى النار أن مات بلا توبة ، والخوارج يقولون : إنه كافر ، والامامية أكفروا الباغى على على كرم الله تعالى وجهه المقاتل له واحتجوا بما روى من قوله ﷺ له : « حربك حربى » وفيه بحث . وقرأ ابن مسعود (حتى يفيئوا إلى أمر الله فان فاؤا فخذوا بينهم بالقسط) ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالاصلاح ، واطلاق الاخوة على المؤمنين من باب التشبيه البليغ وشبهوا بالاخوة من حيث انتسابهم إلى أصل واحد وهو الايمان الموجب للحياة الابدية ، وجوز أن يكون هناك استعارة وتشبه المشاركة فى الايمان بالمشاركة فى أصل التوالد لأن كلا منهما أصل للبقاء إذ التوالد منشأ الحياة والايمان منشأ البقاء الابدى فى الجنان ، والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ للايذان بأن الاخوة الدينية موجبة للاصلاح ، ووضع الظاهر موضع الضمير مضافا للمأمورين للمبالغة فى تأكيد وجوب الاصلاح والتحضيض عليه ، وتخصيص الاثنين بالذكر لاثبات

وجوب الاصلاح فيما فوق ذلك بطريق الاولوية لتضاعف الفتنة والفساد فيه ، وقيل : المراد بالاخوين الاوس والخزرج اللتان نزلت فيهما الآية سمى كلا منهما أخا لاجتماعهم فى الجد الاعلى . وقرأ زيد بن ثابت . وابن مسعود . والحسن بخلاف عنه (اخوانكم) جمعا على وزن غلمان ه

وقرأ ابن سيرين (اخوتكم) جمعا على وزن غلمة ، وروى عبد الوارث عن أبى عمرو القراآت الثلاث ، قال أبو الفتح : وقراءة الجمع تدل على أن قراءة الجمهور لفظها لفظ التثنية ومعناها الجماعة اى كل اثنين فصاعدا من المسلمين اقتتلا ، والاضافة لمعنى الجنس نحو لبيك وسعديك ، ويغلب الاخوان فى الصداقة والاخوة فى النسب وقد يستعمل كل منهما مكان الآخر ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ فى كل ماتأتون وماتذرون من الامور التى من جملتها ماأمرتم به من الاصلاح ، والظاهر ان هذا عطف على (فأصلحوا) وقال الطيبى : هو تذييل للكلام كأنه قيل : هذا الاصلاح من جملة التقوى فاذا فعلتم التقوى دخل فيه هذا التواصل ، ويجوز ان يكون عطفاً على « فأصلحوا » أى واصلوا بين أخويكم بالصلح واحذروا الله تعالى من أن تتهاونوا فيه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠ ﴾ أى لأجل أن ترحموا على تقواكم او راجين ان ترحموا عليها ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ ﴾ أى منكم ﴿ مِّن قَوْمٍ ﴾ آخرين منكم أيضا ، فالتنكير فى الموضعين للتبعيض ، والسخر الهزؤ كما فى القاموس ، وفى الزواجر النظر الى المسخور منه بعين النقص ، وقال القرطبى : السخرية الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص بوجه يضحك منه وقد تكون بالمحاكاة بالفعل والقول أو الاشارة أو الايماء أو الضحك على كلام المسخور منه إذا تخبط فيه أو غلط او على صنعته او قبح صورته ، وقال بعض : هو ذكر الشخص بما يكره على وجه مضحك بحضرته ، واختير انه احتقاره قولا أو فعلا بحضرته على الوجه المذكور ، وعليه ماقيل المعنى : لا يحتقر بعض المؤمنين بعضاً . والآية على ماروى عن مقاتل نزلت فى قوم من بنى تميم سخروا من بلال . وسلمان . وعمار . وخباب . وصهيب . وابن نهيرة . وسالم مولى أبى حذيفة رضى الله تعالى عنهم ، ولا يضر فيه اشتمالها على نهى النساء عن السخرية كما لا يضر اشتمالها على نهى الرجال عنها فيما روى ان عائشة وحفصة رأتا أم سلمة ربطت حقويها بثوب أبيض وسدلت طرفه خلفها فقالت عائشة لحفصة تشير الى ماتجر خلفها : كأنه لسان كلب فنزلت ، وما روى عن عائشة أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة فنزلت ، وقيل : نزلت بسبب عكرمة بن أبى جهل كان يمشى بالمدينة فقال له قوم : هذا ابن فرعون هذه الامة فعز ذلك عليه وشكاهم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فنزلت ، وقيل غير ذلك ، وقوله عز وجل : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ تعليل للنهى أو لموجبه أى عسى ان يكون المسخور منهم خيراً عند الله تعالى من الساخرين فرب اشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله تعالى لأبره ، وجوز ان يكون المعنى لا يحتقر بعض بعضا عسى ان يصير المحتقر ـ اسم مفعول ـ عزيزا ويصير المحتقر ذليلا فينتقم منه ، فهو نظير قوله :

لا تهين الفقير علك أن   تركع يوماً والدهر قد رفعه

والقوم جماعة الرجال ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَا نِسَآءٌ ﴾ أى ولا يسخر نساء من المؤمنات ﴿ مِّن نِّسَآءٍ ﴾

منهن ﴿ عَسَى أَن يَكُنَّ ﴾ أى المسخورات ﴿خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ أى من الساخرات ، وعلى هذا جاء قول زهير :

وما أدرى وسوف اخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

وهو إما مصدر كما فى قول بعض العرب : إذا أكلت طعاماً أحببت نوما وأبغضت قوما أى قياما نعت به فشاع فى جماعة الرجال ، واما اسم جمع لقائم كصوم لصائم وزور لزائر ، وأطلق عليه بعضهم الجمع مريداً به المعنى اللغوى والا ففعل ليس من ابنية الجموع لغلبته فى المفردات ، ووجه الاختصاص بالرجال ان القيام بالأمور وظيفتهم كما قال تعالى : (الرجال قوامون على النساء) وقد يراد به الرجال والنساء تغليبا كما قيل فى قوم عاد وقوم فرعون ان المراد بهم الذكور والاناث ، وقيل : المراد بهم الذكور أيضاً ودل عليهن بالالتزام العادى لعدم الانفكاك عادة ، والنساء على ما قال الراغب وغيره وكذا النسوان والنسوة جمع المرأة من غير لفظها ، وجىء بما يدل على الجمع فى الموضعين دون المفرد كأن يقال : لا يسخر رجل من رجل ولا امرأة من امرأة مع انه الاصل الاشمل الاعم قيل جريا على الاغلب من وقوع السخرية فى مجامع الناس فكم من متلذذ بها وكم من متألم منها فجعل ذلك بمنزلة تعدد الساخر والمسخور منه ، وقيل : لأن النهى ورد على الحالة الواقعة بين الجماعة كقوله تعالى : (لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) وعموم الحكم لعموم علته ، و(عسى) فى نحو هذا التركيب من كل ما أسندت فيه الى أن والفعل قيل تامة لاتحتاج الى خبر وأن وما بعدها فى محل رفع على الفاعلية ، وقيل : إنها ناقصة وسد ما بعدها مسد الجزأين وله محلان باعتبارين أو محله الرفع ، والتحكم مندفع بأنه الأصل فى منصوبها بناء على أنها من نواسخ المبتدأ والخبر *

وقرأ عبدالله . وأبى (عسوا أن يكونوا . وعسين عن أن يكن) فعسى عليها ذات خبر على المشهور من أقوال النحاة ، وفيه الاخبار عن الذات بالمصدر أو يقدر مضاف مع الاسم أو الخبر ، وقيل : هو فى مثل ذلك بمعنى قارب وأن وما معها مفعول أو قرب وهو منصوب على إسقاط الجار ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ لا يعب بعضكم بعضا بقول أو إشارة لأن المؤمنين كنفس واحدة فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنه عاب نفسه ، فضمير (تلمزوا) للجميع بتقدير مضاف ، و(أنفسكم) عبارة عن بعض آخر من جنس المخاطبين وهم المؤمنون جعل ما هو من جنسهم بمنزلة أنفسهم وأطلق الأنفس على الجنس استعارة كما فى قوله تعالى : (لقد جاءكم رسول من انفسكم) وقوله سبحانه : (ولا تقتلوا أنفسكم) وهذا غير النهى السابق وإن كان كل منهما مخصوصا بالمؤمنين بناء على أن السخرية احتقار الشخص مطلقا على وجه مضحك بحضرته ، واللمز التنبيه على معايبه سواء كان على مضحك أم لا ، وسواء كان بحضرته أم لا كما قيل فى تفسيره ، وجعل عطفه عليه من قبيل عطف العام على الخاص لافادة الشمول كشارب الخمر وكل فاسق مذموم ، ولا يتم إلا إذا كان التنبيه المذكور احتقارا ، ومنهم من يقول : السخرية الاحتقار واللمز التنبيه على المعايب أو تتبعها والعطف من قبيل عطف العلة على المعلول وقيل : اللمز مخصوص بما كان من السخرية على وجه الخفية كالاشارة فهو من قبيل عطف الخاص على العام لجعل الخاص كجنس آخر مبالغة ، واختار الزمخشرى أن المعنى وخصوا أنفسكم أيها المؤمنون بالانتهاء عن عيبها والطعن فيها ولا عليكم أن تعيبوا غيركم ممن لا يدين بدينكم ولا يسير بسيرتكم ، ففى الحديث «اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس» وتعقب بأنه لا دليل على الاختصاص *

وقال الطيبي : هو من دليل الخطاب لكن ان فى هذا الوجه تعسفا والوجه الآخر - يعنى ماتقدم - أوجه لموافقته (لايسخرقوم من قوم . وانما المؤمنون إخوة . ولا يغتب بعضكم بعضا) وفى الكشف أخذ الاختصاص من العدول عن الأصل وهو لايلمز بعضكم بعضا كأنه قيل : ولاتلمزوا من هو على صفتكم من الايمان والطاعة فيكون من باب ترتب الحكم على الوصف ، وتعقب قول الطيبي بان الكلام عليه يفيد العلية والاختصاص معا فيوافق ما سبق و يؤذن بالفرق بين السخرية واللمز وهو مطلوب فى نفسه وكأنه قيل : لاتلمزوا المؤمنين لأنهم أنفسكم ولاتعسف فيه بوجه إلى آخر ماقال فليتأمل ، والانصاف أن المتبادر ماتقدم ، وقيل: المعنى لا تفعلوا ما تلمزون به فان من فعل مايستحق به اللمز فقد لمز نفسه فانفسكم على ظاهره والتجوز فى (تلمزوا) أطلق فيه المسبب على السبب والمراد لا ترتكبوا أمرا تعابون به ، وهو بعيد عن السياق وغير مناسب لقوله تعالى : (ولاتنابزوا) وكونه من التجوز فى الاسناد إذ أسند فيه ماللمسبب إلى السبب تكلف ظاهر ، وكذا كونه كالتعليل للنهى السابق لايدفع كونه مخالفا للظاهر ، وكذا كون المراد به لاتتسببوا إلى الطعن فيكم بالطعن على غيركم كما فى الحديث «من الكبائر أن يشتم الرجل والديه» وفسر بانه إن شتم والدى غيره شتم الغير والديه أيضا ٭

وقرأ الحسن. والأعرج . وعبيد عن أبى عمرو (لاتلمزوا) بضم الميم ﴿ وَلَاتَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ﴾ أى لايدع بعضكم بعضا باللقب، قال فى القاموس : التنابز التعاير والتداعى بالألقاب ويقال نبزه ينبزه نبزا بالفتح والسكون لقبه كنبزه والنبز بالتحريك وكذا النزب اللقب وخص عرفا بما يكرهه الشخص من الالقاب ٭

وعن الرضى أن لفظ اللقب فى القديم كان فى الذم أشهر منه فى المدح ، والنبز فى الذم خاصة ، وظاهر تفسير التنابز بالتداعى بالالقاب اعتبار التجريد فى الآية لئلا يستدرك ذكر الالقاب ، ومن الغريب ما قيل . التنابز الترامى أى لاتترامو ا بالالقاب ويراد به ماتقدم ، والمنهى عنه هو التلقيب بما يتداخل المدعو به كراهة لكونه تقصيراً به وذما له وشينا ٭

قال النووى : اتفق العلماء على تحريم تلقيب الانسان بما يكره سواء كان صفة له أو لأبيه أو لأمه أوغيرهما فقد روى ان الآية نزلت فى ثابت بن قيس وكان به وقر فكانوا يوسعون له فى مجلس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليسمع فأتى يوما وهو يقول : تفسحوا حتى انتهى الى رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال لرجل : تنح فلم يفعل فقال : من هذا ؟ فقال الرجل : أنا فلان فقال : بل أنت ابن فلانة يريد أما كان يعير بها فى الجاهلية فخجل الرجل فنزلت فقال ثابت : لا أفخر على أحد فى الحسب بعدها أبدا . وأخرج البخارى . وأبو داود . والترمذى . والنسائى . وابن ماجه . وجماعة عن ابن جبيرة بن الضحاك قال : فينا نزلت فى بنى سلمة (ولا تنابزوا بالالقاب) قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة وليس فينا رجل الا وله اسمان أو ثلاثة فكان اذا دعا أحدا منهم باسم من تلك الاسماء قالوا : يارسول الله انه يكرهه فنزلت (ولاتنابزو بالالقاب) وأخرج ابن جرير عن ابن عباس انه قال : التنابز بالالقاب أن يكون الرجل عمل السيآت ثم تاب منها وراجع الحق فنهى الله تعالى أن يعير بما سلف من عمله ، وعن ابن مسعود هو أن يقال لليهودى أو النصرانى أو المجوسى اذا أسلم يايهودى أو يا نصرانى أو يامجوسى ، وعن الحسن نحوه ، ولعل مأخذه ما روى انها نزلت فى صفية بنت حيي أتت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت : ان النساء يقلن لى

يايهودية بنت يهوديين فقال لها : هلا قلت : إن أبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم *

وأنت تعلم أن النهى عما ذكر داخل فى عموم (لاتنابزوا بالالقاب) على ماسمعت فلا يختص التنابز بقول يايهودى ويافاسق ونحوهما ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الايمَان ﴾ بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب التنابز أن يذكروا بالفسق بعد اتصافهم بالايمان ، وهو ذم على اجتماع الفسق وهو ارتكاب التنابز والايمان على معنى لاينبغى أن يجتمعا فان الايمان يأبى الفسق كقولهم : بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة يريدون استقباح الجمع بين الصبوة وما يكون فى حال الشباب من الميل الى الجهل وكبر السن *

و (الاسم) هنا بمعنى الذكر من قولهم : طار اسمه فى الناس بالكرم أو اللؤم فلا تأبى هذه الآية حمل ماتقدم على النهى عن التنابز مطلقا ، وفيها تسميته فسوقا ، وقيل : (بعد الايمان) أى بدله كما فى قولك للمتحول عن التجارة الى الفلاحة : بئست الحرفة الفلاحة بعد التجارة ، وفيه تغليظ بجعل التنابز فسقا مخرجا عن الايمان ، وهذا خلاف الظاهر . وذكر الزمخشرى له مبنى على مذهبه من أن مرتكب الكبيرة فاسق غير مؤمن حقيقة ، وقيل : معنى النهى السابق لا ينسبن أحدكم غيره الى فسق كان فيه بعد اتصافه بضده ، ومعنى هذا بئس تشهير الناس وذكرهم بفسق كانوا فيه بعدما اتصفوا بضده ، فيكون الكلام نهيا عن أن يقال ليهودى أسلم يايهودى أو نحو ذلك ، والاول أظهر لفظا وسياقا ومبالغة ، والجملة على كل متعلقة بالنهى عن التنابز على ماهو الظاهر ، وقيل : هى على الوجه السابق متعلقة بقوله تعالى : (ولا تلمزوا انفسكم) أو بجميع ماتقدم من النهى ، وعلى هذا اقتصر ابن حجر فى الزواجر *

ويستثنى من النهى الاخير دعاء الرجل الرجل بلقب قبيح فى نفسه لاعلى قصد الاستخفاف به والايذاء له كما إذا دعت له الضرورة لتوقف معرفته كقول المحدثين : سليمان الاعمش وواصل الاحدب ، ومانقل عن ابن مسعود أنه قال لعلقمة : تقول أنت ذلك ياأعور ظاهر فى أن الاستثناء لايتوقف على دعاء الضرورة ضرورة أنه لاضرورة فى حال مخاطبته علقمة لقوله ياأعور ، ولعل الشهرة مع عدم التأذى وعدم قصد الاستخفاف كافية فى الجواز ، ويقال ماكان من ابن مسعود من ذلك ، والاولى أن يقال فى الرواية عمن اشتهر بذلك كسليمان المتقدم روى عن سليمان الذى يقال له الاعمش ، هذا وغوير بين صيغتى (تلمزوا وتنابزوا) لأن الملموز قد لا يقدر فى الحال على عيب يلمز به لامزه فيحتاج إلى تتبع أحواله حتى يظفر ببعض عيوبه بخلاف النبز فان من لقب بما يكره قادر على تلقيب الآخر بنظير ذلك حالا فوقع التفاعل كذا فى الزواجر ، وقيل : قيل (تنابزوا) لأن النهى ورد على الحالة الواقعة بين القوم ، ويعلم من الآية أن التلقيب ليس محرما على الاطلاق بل المحرم ماكان بلقب السوء ، وقد صرحوا بأن التلقيب بالالقاب الحسنة مما لاخلاف فى جوازه ، وقد لقب أبو بكر رضى الله تعالى عنه بالعتيق لقوله عليه الصلاة والسلام له : « أنت عتيق الله من النار » وعمر رضى الله تعالى عنه بالفاروق لظهور الاسلام يوم اسلامه ، وحمزة رضى الله تعالى عنه بأسد الله لما أن اسلامه كان حمية فاعتز الاسلام به ، وخالد بسيف الله لقوله صلى الله عليه وسلم : « نعم عبد الله خالد بن الوليد سيف من سيوف الله » إلى غير ذلك من الالقاب الحسنة ، وألقاب على كرم الله وجهه أشهر من أن تذكر ، ومازالت الالقاب الحسنة فى الامم كلها من العرب والعجم تجرى فى مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير ، ولا فرق بين اللقب والكنية فى أن الدعاء بالقبيح المكروه منها حرام ، وربما يشعر به قول الراغب : اللقب اسم يسمى به الانسان سوى اسمه الاول

ويراعى فيه المعنى بخلاف العلم، ولذلك قال الشاعر: وقلما أبصرت عيناك ذا لقب ه الا ومعناه ان فتشت فى لقبه
بدخولها فى مفهومه لكن الشائع غير ذلك، وفى الحديث « كنوا أولادكم » قال عطاء: مخافة الالقاب
وقال عمر رضى الله تعالى عنه: أشيعوا الكنى فانها سنة، ولنا فى الكنى كلام نفيس ذكرناه فى الطراز المذهب
فمن أراده فليرجع اليه ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ ﴾ عما نهى عنه من التنابز أومن الامور الثلاثة السابقة أو مطلقا ويدخل
ماذكر ﴿ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ١١ ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب، والافراد أولا
والجمع ثانيا مراعاة للفظ ومراعاة للمعنى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾ أى تباعدوا منه،
وأصل اجتنبه كان على جانب منه ثم شاع فى التباعد اللازم له، وتنكير (كثيراً) ليحتاط فى كل ظن ويتأمل
حتى يعلم أنه من أى القبيل، فان من الظن مايباح اتباعه كالظن فى الامور المعاشية، ومنه مايجب كالظن حيث
لاقاطع فيه من العمليات كالواجبات الثابتة بغير دليل قطعي وحسن الظن بالله عز وجل، ومنه ما يحرم كالظن
فى الإلهيات والنبوات وحيث يخالفه قاطع وظن السوء بالمؤمنين، ففى الحديث « أن الله تعالى حرم من المسلم
دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء » وعن عائشة مرفوعا من اساء بأخيه الظن فقد أساء بربه الظن إن الله
تعالى يقول: (اجتنبوا كثيرا من الظن) ويشترط فى حرمة هذا أن يكون المظنون به ممن شوهد منه التستر
والصلاح وأونست منه الامانة، وأما من يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث كالدخول والخروج إلى حانات
الخمر وصحبة الغوانى الفاجرات وادمان النظر إلى المرد فلا يحرم ظن السوء فيه وإن كان الظان لم يره يشرب
الخمر ولايزنى ولا يعبث بالشباب. أخرج البيهقى فى شعب الايمان عن سعيد بن المسيب قال: كتب إلى بعض
اخوانى من أصحاب رسول الله ﷺ أن ضع أمر أخيك على أحسنه مالم يأتك مايغلبك، ولا تظنن بكلمة
خرجت من امرئ مسلم شرا وأنت تجد لها فى الخير محملا، ومن عرض نفسه للتهم فلايلومن الانفسه، ومن
كتم سره كانت الخيرة فى يده، وماكافيت من عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تعالى فيه، وعليك باخوان
الصدق فكن فى اكتسابهم فانهم زينة فى الرخاء وعدة عند عظيم البلاء، ولاتهاون بالحلف فيهينك الله تعالى،
ولاتسألن عما لم يكن حتى يكون؛ ولا تضع حديثك الاعند من تشتهيه، وعليك بالصدق وإن قتلك، واعتزل
عدوك واحذر صديقك الا الامين ولا أمين الامن خشى الله تعالى، وشاور فى أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب ه

وعن الحسن كنا فى زمان الظن بالناس حرام وأنت اليوم فى زمان اعمل واسكت وظن بالناس ماشئت، واعلم
أن ظن السوء إن كان اختياريا فالامر واضح، وإذا لم يكن اختياريا فالمنهى عنه العمل بموجبه من احتقار المظنون
به وتنقيصه وذكره بما ظن فيه، وقد قيل نظير ذلك فى الحسد على تقدير كونه غير اختيارى، ولا يضر العمل
بموجبه بالنسبة إلى الظان نفسه كما إذا ظن بشخص أنه يريد به سوءاً فتحفظ من أن يلحقه منه أذى على وجه
لايلحق ذلك الشخص به نقص، وهو محمل خبر « إن من الحزم سوء الظن » وخبر الطبرانى « احترسوا من
الناس بسوء الظن »، وقيل: المنهى عنه الاسترسال معه وترك ازالته بنحو تأويل سببه من خبر ونحوه، والا فالامر
الغير الاختيارى نفسه لا يكون مورد التكليف، وفى الحديث « قال رسول الله ﷺ: ثلاث لازمات أمتى الطيرة
والحسد وسوء الظن فقال رجل: ما يذهبهن يارسول الله ممن هن فيه؟ قال: إذا حسدت فاستغفر الله وإذا ظننت

فلا تحقق وإذا تطيرت فامض »أخرجه الطبراني عن حارثة بن النعمان ﴿ انَّ بَعْضَ الظَّنِّ اثْمٌ ﴾ تعليل بالامر بالاجتناب أو لموجبه بطريق الاستئناف التحقيقي ، والاثم الذنب الذى يستحق العقوبة عليه ، ومنه قيل لعقوبته الأثام فعال منه كالنكال ، قال الشاعر :

لقد فعلت هذى النوى بى فعلة أصاب النوى قبل الممات أثامها

والهمزة فيه على ماقال الزمخشرى بدل من الواو كأنه يثم الأعمال أى يكسرها لكونه يضربها فى الجملة وان لم يحبطها قطعا : وتعقب بأن الهمزة ملتزمة فى تصاريفه تقول : اثم ياثم فهو آثم وهذا إثم وتلك آثام ، وأن اثم من باب علم، ووثم من باب ضرب ، وانه ذكره فى باب الهمزة فى الأساس، والواوى متعد وهذا لازم ٥

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم وتستكشفوا عما ستروه ، تفعل من الجس باعتبار مافيه من معنى الطلب كاللمس فان من يطلب الشئ يجسه ويلمسه فأريد به مايلزمه، واستعمال التفعل للمبالغة . وقرأ الحسن . وأبو رجاء . وابن سيرين (ولا تحسسوا) بالحاء من الحس الذى هو أثر الجس وغايته، ولهذا يقال لمشاعر الانسان الحواس والجواس بالحاء والجيم ، وقيل التجسس والتحسس متحدان ومعناهما معرفة الاخبار ، وقيل : التجسس بالجيم تتبع الظواهر وبالحاء تتبع البواطن ، وقيل : الأول أن تفحص بغيرك والثانى أن تفحص بنفسك ، وقيل : الأول فى الشر والثانى فى الخير ، وهذا بفرض صحته غير مراد هنا والذى عليه الجمهور ان المراد على القراءتين النهى عن تتبع العورات مطلقا وعدوه من الكبائر ٥

أخرج أبو داود . وابن المنذر . وابن مردويه عن أبى برزة الاسلمى قال: خطبنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: « يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه لاتتبعوا عورات المسلمين فان من تتبع عورات المسلمين فضحه الله تعالى فى قعر بيته » وفى رواية البيهقى عن البراء بن عازب انه صلى الله تعالى عليه وسلم نادى بذلك حتى اسمع العواتق فى الخدر . واخرج ابو داود . وجماعة عن زيد بن وهب قلنا لابن مسعود : هل لك فى الوليد بن عقبة بن معيط تقطر لحيته خمراً ؟ فقال ابن مسعود: قد نهينا عن التجسس فان ظهر لنا شيء أخذنا به ٥

وقد يحمل مزيد حب النهى عن المنكر على التجسس وينسى النهى فيعذر مرتكبه كما وقع ذلك لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه . أخرج الخرائطى فى مكارم الاخلاق عن ثور الكندى ان عمر رضى الله تعالى عنه كان يعس بالمدينة فسمع صوت رجل فى بيت يتغنى فتسور عليه فوجد عنده امرأة وعنده خمر فقال : ياعدو الله أظننت ان الله تعالى يسترك وأنت على معصية ؟ فقال: وأنت ياأمير المؤمنين لاتعجل على إن كنت عصيت الله تعالى واحدة فقد عصيت الله تعالى فى ثلاث قال سبحانه: (ولا تجسسوا) وقد تجسست وقال الله تعالى:(وأتوا البيوت من أبوابها) وقد تسورت وقال جل شأنه:(لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها) ودخلت على بغير اذن قال عمر رضى الله تعالى عنه : فهل عندكم من خير ان عفوت عنك؟ قال: نعم فعفا عنه وخرج وتركه ٥

وفى رواية سعيد بن منصور عن الحسن انه قال رجل لعمر رضى الله تعالى عنه: ان فلانا لا يصحو فقال: انظر الى الساعة التى يضع فيها شرابه فأتنى فاتاه فقال: قد وضع شرابه فانطلقا حتى استأذنا عليه فعزل شرابه ثم دخلا فقال عمر: والله انى لأجد ريح شراب يافلان أنت بهذا فقال: ياابن الخطاب وأنت بهذا الم ينهك الله تعالى أن تتجسس؟ فعرفها عمر فانطلق وتركه ، وذكر بعضهم ان انزجار شربة الخمر ونحوهم اذا توقف على التسور عليهم جاز احتجاجا

بفعل عمر رضي الله تعالى عنه السابق وفيه نظر، وقد جاء في بعض الروايات عنه ما يخالف ذلك *

أخرج عبد الرزاق. وعبد بن حميد والخرائطي أيضا عن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف عن المسور بن مخرمة عن عبد الرحمن بن عوف أنه حرس مع عمر رضي الله تعالى عنه ليلة المدينة فبينما هم يمشون شب لهم سراج في بيت فانطلقوا يؤمونه فلما دنوا منه إذا باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط فقال عمر: وأخذ بيد عبد الرحمن أتدري بيت من هذا؟ هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف الآن شرب قال: أرى أن قد أتينا ما نهى الله تعالى عنه قال الله تعالى: (ولا تجسسوا) فقد تجسسنا فانصرف عمر رضي الله تعالى عنه عنهم وتركهم، ولعل القصة إن صحت غير واحدة، ومن التجسس على ما قال الاوزاعي الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون فهو حرام أيضا *

﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضا بما يكره في غيبته فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال. ذكرك أخاك بما يكره قيل: أفرأيت لو كان في أخي ما أقول قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته» رواه مسلم. وأبو داود. والترمذي. والنسائي وغيرهم والمراد بالذكر الذكر صريحا أو كناية ويدخل في الاخير الرمز والاشارة ونحوهما إذا أدت مؤدى النطق فان علة النهي عن الغيبة الايذاء بتفهيم الغير نقصان المغتاب وهو موجود حيث أفهمت الغير ما يكرهه المغتاب بأي وجه كان من طرق الافهام، وهي بالفعل كان تمشي مشية أعظم الأنواع كما قاله الغزالي، والمراد بما يكره أعم من أن يكون في دينه أو دنياه أو خلقه أو خلقه أو ماله أو ولده أو زوجته أو مملوكه أو خادمه أو لباسه أو غير ذلك مما يتعلق به، وخصه القفال بالصفات التي لا تذم شرعا فذكر الشخص بما يكره مما يذم شرعا ليس بغيبة عنده ولا يحرم، واحتج على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: «اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس» وماذكره لا يعول عليه والحديث ضعيف وقال أحمد منكر، وقال البيهقي: ليس بشيء ولو صح فهو محمول على فاجر معلن بفجوره. والمراد بقولنا غيبته غيبته عن ذلك الذكر سواء كان حاضرا في مجلس الذكر أولا، وفي الزواجر لا فرق في الغيبة بين أن تكون في غيبة المغتاب أو بحضرته هو المعتمد، وقد يقال شمول الغيبة للذكر بالحضور على نحو شمول سجود السهو لما كان عن ترك ما يسجد له عمدا ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ تمثيل لما يصدر عن المغتاب من حيث صدوره عنه ومن حيث تعلقه بصاحبه على أفحش وجه وأشنعه طبعا وعقلا وشرعا مع مبالغات من فنون شتى، الاستفهام التقريري من حيث أنه لا يقع الا في كلام هو مسلم عند كل سامع حقيقة أو ادعاء، واسناد الفعل إلى أحد ايذانا بأن أحدا من الاحدين لا يفعل ذلك وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الانسان، وجعل المأكول أخا للآكل وميتا، وتعقيب ذلك بقوله تعالى: ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ حملا على الاقرار وتحقيقا لعدم محبة ذلك أو لمحبته التي لا ينبغي مثلها، وفي المثل السائر كني عن الغيبة بأكل الانسان للحم مثله لأنها ذكر المثالب وتمزيق الاعراض المماثل لاكل اللحم بعد تمزيقه في استكراه العقل والشرع له، وجعله ميتا لأن المغتاب لا يشعر بغيبته، ووصله بالمحبة لما جبلت عليه النفوس من الميل اليها مع العلم بقبحها، وقال أبو زيد السهيلي: ضرب المثل لأخذ العرض بأكل اللحم لأن اللحم ستر على العظم والشاتم لأخيه كأنه يقشر ويكشف ما عليه وكأنه أولى مما في المثل، والفاء في (فكرهتموه) فصيحة في جواب شرط مقدر ويقدر معه قد أي أن صح ذلك أو عرض عليكم هذا فقد كرهتموه ولا يمكنكم انكار كراهته، والجزائية باعتبار التبين، والضمير المنصوب للاكل

وقيل : للحم ، وقيل : للميت وليس بذاك ،وجوز كونه للاغتياب المفهوم مماقبل ، والمعنى فاكرهوه كراهيتكم لذلك الاكل ،وعبر بالماضي للمبالغة ، وإذاأول بما ذكر يكون انشاء غير محتاج (لتقدير) قد ،وانتصاب ميتا على الحال من اللحم أو الاخ لأن المضاف جزء من المضاف اليه والحال في مثل ذلك جائز خلافا لأبي حيان *

وقرأ أبو سعيد الخدري والجحدري وأبو حيوة (فكرهتموه) بضم الكاف وشد الراء ،ورواها الخدري عن النبي ﷺ ،وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ قيل عطف على محذوف كأنه قيل: امتثلوا ماقيل لكم واتقوا الله

وقال الفراء التقدير ان صح ذلك فقد كرهتموه فلا تفعلوه واتقوا الله فهو عطف على النهي المقدر ، وقال أبو علي الفارسي لما قيل لهم (أيحب أحدكم) الخ كان الجواب بلا ممتنعا فكأنهم قالوا : لانحب فقيل لهم (فكرهتموه) ويقدر فكذلك فاكرهوا الغيبة التي هي نظيره واتقوا الله فيكون عطفا على فاكرهوا المقدر ، وقيل : هو عطف على فكرهتموه بناء على أنه خبر لفظا أمر معنى كما أشير اليه سابقا ولايخفى الاولى من ذلك :وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ١٢ ﴾ تعليل للامر أى لأنه تعالى تواب رحيم لمن اتقى واجتنب مانهى عنه وتاب مما فرط منه ، وتواب أى مبالغ في قبول التوبة والمبالغة إما باعتبار الكيف إذ يجعل سبحانه التائب كمن لم يذنب أو باعتبار الكم لكثرة المتوب عليهم أو لكثرة ذنوبهم *

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أن سلمان الفاسي رضي الله تعالى عنه كان مع رجلين في سفر يخدمهما وينال من طعامهما وانه نام يوما فطلبه صاحباه فلم يجداه فضربا الخباء وقالا : مايريد سلمان شيئا غير هذا ان يجيء الى طعام معدود وخباء مضروب فلما جاء سلمان ارسلاه الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يطلب لهما اداما فانطلق فأتاه فقال : يارسول الله بعثني أصحابي لتؤدمهم ان كان عندك قال: ما يصنع أصحابك بالادام؟ قد ائتدموا فرجع رضي الله تعالى عنه فخبرهما فانطلقا فأتيا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالا : والذي بعثك بالحق ما أصبنا طعاما منذ نزلنا قال:انكما قد ائتدمتما بسلمان فنزلت . واخرج ابن المنذر عن ابن جريج انه قال: زعموا انها نزلت في سلمان الفارسي أكل ثم رقد فنفخ فذكر رجلان اكله ورقاده فنزلت *

واخرج الضياء المقدسي في المختارة عن أنس قال : كانت العرب تخدم بعضها بعضا في الاسفار وكان مع أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما رجل يخدمهما فناما فاستيقظا ولم يهيء لهما طعاما فقالا : ان هذا لنئوم فايقظاه فقالا :ائت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقل له أن ابا بكر وعمر يقرآنك السلام ويستأدمانك فقال انهما ائتدما فجاءا فقالا : يارسول الله باي شيء ائتدمنا قال بلحم اخيكما والذي نفسي بيده انى لأرى لحمه بين ثناياكما فقالا :استغفر لنا يارسول الله قال :مراه فليستغفر لكما وهذا خبر صحيح ولا طعن فيه على الشيخين سواء كان ما وقع منهما قبل النزول او بعده حيث لم يظنا بناء على حسن الظن فيهما ان تلك الكلمة مما يكرهها ذلك الرجل : هذا والآية دالة على حرمة الغيبة . وقد نقل القرطبي وغيره الاجماع على انها من الكبائر ،وعن الغزالي وصاحب العدة أنهما صرحا بانها من الصغائر وهو عجيب منهما لكثرة مايدل على انها من الكبائر ،وقصارى ماقيل في وجه القول بأنها صغيرة انه لو لم تكن كذلك يلزم فسق الناس كلهم الا الفذ النادر منهم وهذا حرج عظيم . وتعقب بأن فشو المعصية وارتكاب جميع الناس لها فضلا عن الاكثر لا يوجب أن تكون صغيرة ،وهذا الذي دل عليه الكلام من ارتكاب أكثر الناس لها لم يكن قبل . على أن الاصرار

عليها قريب منها فى كثرة الفشو فى الناس وهو كبيرة بالاجماع ويلزم عليه الحرج العظيم وان لم يكن فى عظم الحرج السابق ، مع أن هذا الدليل لايقاوم تلك الدلائل الكثيرة، ولعل الاولى فى الاستدلال على ذلك مارواه أحمد . وغيره بسند صحيح عن أبى بكرة قال: «بينما أنا أماشى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو آخذ بيدى ورجل عن يسارى فاذا نحن بقبرين أمامنا فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: انهما ليعذبان ومايعذبان بكبير وبكى الى أن قال: وما يعذبان الا فى الغيبة والبول» ولا يتم أيضا، فقد قال ابن الاثير: المعنى وما يعذبان فى أمر كان يكبر عليهما ويشق فعله لو أراداه لا أنه فى نفسه غير كبير، وكيف لايكون كبيرا وهما يعذبان فيه ، فالحق أنها من الكبائر. نعم لا يبعد ان يكون منهاما هو من الصغائر كالغيبة التى لايتأذى بها كثيرا نحو عيب الملبوس والدابة، ومنهاما لاينبغى أن يشك فى أنه من أكبر الكبائر كغيبة الاولياء والعلماء بالفاظ الفسق والفجور ونحوها من الالفاظ الشديدة الايذاء ، والاشبه أن يكون حكم السكوت عليها مع القدرة على دفعها حكمها ، ويجب على المغتاب أن يبادر الى التوبة بشروطها فيقلع ويندم خوفا من الله تعالى ليخرج من حقه ثم يستحل المغتاب خوفا ليحله فيخرج عن مظلمته ، وقال الحسن : يكفيه الاستغفار عن الاستحلال، واحتج بخبر «كفارة من اغتبته أن تستغفر له» ، وأفتى الخياطى بأنها اذا لم تبلغ المغتاب كفاه الندم والاستغفار ، وجزم ابن الصباغ بذلك وقال: نعم اذا كان تنقصه عند قوم رجع اليهم وأعلمهم أن ذلك لم يكن حقيقة وتبعهما كثيرون منهم النووى، واختاره ابن الصلاح فى فتاويه وغيره، وقال الزركشى: هو المختار وحكاه ابن عبد البر عن ابن المبارك وانه ناظر سفيان فيه، وما يستدل به على لزوم التحليل محمول على انه أمر بالافضل أو بما يمحو أثر الذنب بالكلية على الفور، وما ذكر فى غير الغائب والميت أما فيهما فينبغى أن يكثر لهما الاستغفار، ولا اعتبار بتحليل الورثة على ماصرح به الخياطى وغيره، وكذا الصبى والمجنون بناء على الصحيح من القول بحرمة غيبتهما ٭

قال فى الخادم : الوجه أن يقال يبقى حق مطالبتهما إلى يوم القيامة أى إن تعذر الاستحلال والتحليل فى الدنيا بان مات الصبى صبيا والمجنون مجنونا ويسقط حق الله تعالى بالندم ، وهل يكفى الاستحلال من الغيبة المجهولة أم لا ؟ وجهان، والذى رجحه فى الاذكار أنه لابد من معرفتها لأن الانسان قد يسمح عن غيبة دون غيبة ، وكلام الحليمى . وغيره يقتضى الجزم بالصحة لأن من سمح بالعفو من غير كشف فقد وطن نفسه عليه مهما كانت الغيبة، ويندب لمن سئل التحليل أن يحلل ولا يلزمه لأن ذلك تبرع منه وفضل، وكان جمع من السلف واقتدى بهم والدى عليه الرحمة والرضوان يمتنعون من التحليل مخافة التهاون بامر الغيبة، ويؤيد الأول خبر «أيعجز أحد كم أن يكون كابى ضمضم كان إذا خرج من بيته قال : انى تصدقت بعرضى على الناس» ٭

ومعناه لا أطلب مظلمة منهم ولا أخاصمهم لا ان الغيبة تصير حلالا لأن فيها حقا لله تعالى ولأنه عفو واباحة للشىء قبل وجوبه، وسئل الغزالى عن غيبة الكافر فقال : هى فى حق المسلم محذورة لثلاث علل الايذاء . وتنقيص خلق الله تعالى . وتضييع الوقت بما لا يعنى، والاولى تقتضى التحريم، والثانية الكراهة، والثالثة خلاف الاولى. وأما الذمى فكالمسلم فيما يرجع الى المنع عن الايذاء لأن الشرع عصم عرضه ودمه وماله ٭

وقد روى ابن حبان فى صحيحه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : «من سمع يهوديا أو نصرانيا فله النار» ومعنى سمعه أسمعه مايؤذيه ولا كلام بعد هذا فى الحرمة . وأما الحربى فغيبته ليست بحرام على الاولى

وتقريره على الثانية وخلاف الاولى على الثالثة ، وأما المبتدع فان كفر فكالحربى والا فكالمسلم ، وأما ذكره ببدعته فليس مكروها *

وقال ابن المنذر فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى تفسير الغيبة: « ذكرك أخاك بما يكره »: فيه دليل على أن من ليس أخالك من اليهود والنصارى وسائر أهل الملل ومن أخرجته بدعته إلى غير دين الاسلام لاغيبة له ويجرى نحوه فى الآية ، والوجه تحريم غيبة الذمى كما تقرر وهو وإن لم يعلم من الآية ولا من الخبر المذكور معلوم بدليل آخر ولا معارضة بين ماذكر وذلك الدليل كما لا يخفى ، وقد تجب الغيبة لغرض صحيح شرعى لا يتوصل اليه إلا بها وتنحصر فى ستة أسباب . الأول التظلم فلمن ظلم أن يشكو لمن يظن له قدرة على إزالة ظلمه أو تخفيفه. الثانى الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته. الثالث الاستفتاء فيجوز للمستفتى أن يقول للمفتى : ظلمنى فلان بكذا فهل يجوز له أو ماطريق تحصيل حقى أو نحو ذلك ، والافضل أن يبهمه *

الرابع تحذير المسلمين من الشر كجرح الشهود والرواة والمصنفين والمتصدين لافتاء أو اقراء مع عدم أهلية فتجوز اجماعا بل تجب ، وكأن يشير وان لم يستشر على مريد تزوج أو مخالطة لغيره فى أمر دينى أو دنيوى ويقتصر على ما يكفى فان كفى نحو لا يصلح لك فذاك وان احتاج الى ذكر عيب ذكره أو عيبين فكذلك وهكذا ولا يجوز الزيادة على ما يكفى ، ومن ذلك أن يعلم من ذى ولاية قادحا فيها كفسق أو تغفل فيجب ذكر ذلك لمن له قدرة على عزله وتولية غيره الخالى من ذلك أو على نصحه وحثه للاستقامة ، والخامس أن يتجاهر بفسقه كالمكاسين وشربة الخمر ظاهرا فيجوز ذكرهم بما تجاهروا فيه دون غيره الا أن يكون له سبب آخر مما مر *

السادس للتعريف بنحو لقب كالاعور . والاعمش . فيجوز وان أمكن تعريفه بغيره. نعم الاولى ذلك إن سهل ويقصد التعريف لا التنقيص ، وأكثر هذه الستة مجمع عليه ويدل لها من السنة أحاديث صحيحة مذكورة فى محلها كالاحاديث الدالة على قبح الغيبة وعظم آثامها وأكثر الناس بها مولعون ويقولون: هى صابون القلوب وان لها حلاوة كحلاوة التمر وضراوة كضراوة الخمر وهى فى الحقيقة كما قال ابن عباس. وعلى بن الحسين رضى الله تعالى عنهم: الغيبة ادام كلاب الناس نسأل الله تعالى التوفيق لما يحب ويرضى *

وما أحسن ماجاء الترتيب فى هذه الآية أعنى قوله تعالى. (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن) الخ كما قال أبو حيان وفصله بقوله: جاء الامر أولا باجتناب الطريق التى لا تؤدى إلى العلم وهو الظن ثم نهى ثانيا عن طلب تحقيق ذلك الظن ليصير علما بقوله سبحانه: (ولا تجسسوا) ثم نهى ثالثا عن ذكر ذلك إذا علم فهذه أمور ثلاثة مترتبة ظن فعلم بالتجسس فاغتياب ، وقال ابن حجر عليه الرحمة: إنه تعالى ختم كلا من الآيتين بذكر التوبة رحمة بعباده وتعطفا عليهم لكن لما بدئت الاولى بالنهى ختمت بالنفى فى (ومن لم يتب) لتقاربهما ولما بدئت الثانية بالامر فى (اجتنبوا) ختمت به فى (فاتقوا الله) إلى الخ وكان حكمة ذكر التهديد الشديد فى الأولى فقط بقوله تعالى: (ومن لم يتب) الخ أن مافيها أفحش لأنه ايذاء فى الحضرة بالسخرية أو اللمز أو النبز بخلافه فى الآية الثانية فانه أمر خفى إذ كل من الظن والتجسس والغيبة يقتضى الاخفاء وعدم العلم به غالبا انتهى فلا تغفل *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ من آدم وحواء عليهما السلام فالكل سواء فى ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب ومن هذا قوله :

الناس فى عالم التمثيل أكفاء   أبوهم آدم والام حواء

وجوز أن يكون المراد هنا اناخلقنا كل واحد منكم من أب وأم، ويبعده عدم ظهور ترتب ذم التفاخر بالنسب عليه والكلام مساق له كما ينبىء عنه مابعد، وقيل: هو تقرير للاخوة المانعة عن الاغتياب وعدم ظهور الترتب عليه على حاله مع أن ملاءمة مابعد له دون ملاءمته للوجه السابق لكن وجه تقريره للاخوة ظاهر *

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ ﴾ الشعوب جمع شعب بفتح الشين وسكون العين وهم الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد، وهو يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة بفتح العين وقد تكسر تجمع البطون، والبطن تجمع الافخاذ، والفخذ تجمع الفصائل، فخزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصى بطن وهاشم فخذ والعباس فصيلة؛ وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها، وهذا هو الذى عليه أكثر أهل النسب واللغة، ونظم ذلك بعض الادباء فقال:

قبيلة فوقها شعب وبعدهما   عمارة ثم بطن تلوه فخذ
وليس يؤوى الفتى الا فصيلته   ولا سداد لسهم ماله قذذ

وذكر بعضهم العشيرة بعد الفصيلة فقال:

اقصد الشعب فهو أكثر حى   عدداً فى الحساب ثم القبيله
ثم يتلوهما العمارة ثم البطن   ثم الفخذ وبعد الفصيله
ثم من بعدها العشيرة لكن   هى فى جنب ماذكرنا قليله

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبى عن أبيه تقديم الشعب ثم القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم الفخذ فاقام الفصيلة مقام العمارة والعمارة مقام الفصيلة فى ذكرها قبل الفخذ ولم يذكر مايخالفه، وقيل: الشعوب فى العجم والقبائل فى العرب والاسباط فى بنى اسرائيل، وأيد كون الشعوب فى العجم مافى حديث مسروق أن رجلا من الشعوب أسلم فكانت تؤخذ منه الجزية؛ فان الشعوب فيه فسرت بالعجم لكن قيل: وجهه على ماتقدم أن الشعب ماتشعب منه قبائل العرب والعجم فخص بأحدهما، ويجوز أن يكون جمع الشعوبى وهو الذى يصغر شأن العرب ولا يرى لهم فضلا على غيرهم كيهود ومجوس فى جمع المجوسى واليهودى، ومنهم أبوعبيدة وكان خارجيا وقد ألف كتابا فى مثالب العرب، وابن غرسية وله رسالة فصيحة فى تفضيل العجم على العرب، وقد رد عليه علماء الاندلس برسائل عديدة *

وقيل: الشعوب عرب اليمن من قحطان والقبائل ربيعة ومضر وسائر عدنان، وقال قتادة. ومجاهد. والضحاك: الشعب النسب الابعد والقبيلة الاقرب، وقيل: الشعوب الموالى والقبائل العرب، وقال أبو روق: الشعوب الذين ينتسبون الى المدائن والقرى والقبائل العرب الذين ينتسبون الى آبائهم ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ علة للجعل أى جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضا فتصلوا الارحام وتبينوا الانساب والتوارث لا لتفاخروا بالآباء والقبائل، والحصر مأخوذ من التخصيص بالذكر والسكوت فى معرض البيان. وقرأ الأعمش (لتتعارفوا) بتاءين على الاصل، ومجاهد. وابن كثير فى رواية. وابن محيصن بادغام التاء فى التاء، وابن عباس. وأبان عن عاصم (لتعرفوا) بكسر الراء مضارع عرف، قال ابن جنى: والمفعول محذوف أى لتعرفوا ما انتم محتاجون اليه كقوله: * وما علم الانسان الا ليعلما * أى ليعلم ماعلمه وما أعذب هذا الحذف وما أغربه لمن يعرف مذهبه *

واختير في المفعول المقدر قرابة بعضكم من بعض، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ تعليل للنهي عن التفاخر بالانساب المستفاد من الكلام بطريق الاستئناف الحقيقي كأنه قيل : ان الاكرم عند الله تعالى والارفع منزلة لديه عز وجل في الآخرة والدنيا هو الاتقى فان فاخرتم ففاخروا بالتقوى . وقرأ ابن عباس (أن) بفتح الهمزة على حذف لام التعليل كأنه قيل: لم لا تتفاخروا بالانساب؟ فقيل: لأن أكرمكم عند الله تعالى اتقاكم لا أنسبكم فان مدار كمال النفوس وتفاوت الاشخاص هو التقوى فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بها *

وفي البحر أن ابن عباس قرأ (لتعرفوا وأن أكرمكم) بفتح الهمزة فاحتمل أن يكون (أن أكرمكم) الخ معمولا (لتعرفوا) وتكون اللام في (لتعرفوا) لام الامر وهو أجود من حيث المعنى، وأما ان كانت لام كي فلا يظهر المعنى اذ ليس جعلهم شعوبا وقبائل لأن يعرفوا أن اكرمهم عند الله تعالى أتقاهم فان جعلت مفعولا (لتعرفوا) محذوفا أي لتعرفوا الحق لأن أكرمكم عند الله اتقاكم ساغ في اللام ان تكون لام كي اه وهو كما ترى *

﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ ﴾ بكم وباعمالكم ﴿ خَبِيرٌ ١٣ ﴾ بباطن أحوالكم . روى أنه لما كان يوم فتح مكة أذن بلال على الكعبة فغضب الحرث بن هشام. وعتاب بن أسيد وقالا: أهذا العبد الاسود يؤذن على ظهر الكعبة فنزلت *

وعن ابن عباس سبب نزولها قول ثابت بن قيس لرجل لم يفسح له عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يا ابن فلانة فوبخه النبي عليه الصلاة والسلام وقال: إنك لا تفضل احدا الا في الدين والتقوى ونزلت. وأخرج أبو داود في مراسيله. وابن مردويه. والبيهقي في سننه عن الزهري قال: أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم فقالوا: يارسول الله أنزوج بناتنا موالينا؟ فأنزل الله تعالى (ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى) الآية *

قال الزهري: نزلت في أبي هند خاصة وكان حجام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وفي رواية ابن مردويه من طريق الزهري عن عروة عن عائشة أنه عليه الصلاة والسلام قال: أنكحوا أباهند وأنكحوا اليه ونزلت (يا أيها الناس) الآية في ذلك ، وعن يزيد بن شجرة مر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في سوق المدينة فرأى غلاما أسود يقول: من اشتراني فعلي شرط لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول الله عليه الصلاة والسلام فاشتراه رجل فكان رسول الله ﷺ يراه عند كل صلاة ففقده فسأل عنه صاحبه فقال: محموم فعاده ثم سأل عنه بعد أيام فقال: هو لمابه فجاءه وهو في ذمائه فتولى غسله ودفنه فدخل على المهاجرين والانصار أمر عظيم فنزلت، وفي القلب من صحة هذا شيء والله تعالى أعلم. وقد دلت على أنه لا ينبغي التفاخر بالانساب وبذلك نطقت الاخبار. أخرج ابن مردويه. والبيهقي في شعب الايمان. وعبد بن حميد. والترمذي. وغيرهم عن ابن عمر أن النبي ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الاركان بمحجنه فلما خرج لم يجد مناخا فنزل على ايدي الرجال فخطبهم فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، وقال: الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها ياأيها الناس الناس رجلان بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله الناس كلهم بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى: (ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى) إلى قوله تعالى: (خبير) ثم قال: أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ، وأخرج البيهقي . وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: ياأيها الناس ألا إن ربكم واحد لافضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على اسود الا بالتقوى (إن أكرمكم عند الله اتقاكم) ألا هل بلغت؟ قالوا:

بلى يارسول الله قال: فليبلغ الشاهد الغائب » وأخرج البيهقى عن أبى امامة قال: «قال رسول الله ﷺ إن الله أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها كلكم لآدم وحواء كطف الصاع بالصاع وإن أكرمكم عند الله أتقاكم فمن أتاكم ترضون دينه وأمانته فزوجوه» وأخرج أحمد. وجماعة نحوه لكن ليس فيه « فمن أتاكم » الخ *

وأخرج البزار عن حذيفة قال: « قال رسول الله ﷺ كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أوليكونن أهون على الله من الجعلان » وأخرج الطبرانى. وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « يقول الله يوم القيامة أيها الناس إنى جعلت نسباً وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم عند الله أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا: فلان بن فلان وفلان أكرم من فلان وإنى اليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم ألا إن أوليائى المتقون » وأخرج الخطيب عن على كرم الله تعالى وجهه نحوه مرفوعاً *

وأخرج أحمد. والبخارى فى تاريخه. وأبو يعلى. والبغوى. وابن قانع. والطبرانى. والبيهقى فى شعب الايمان عن أبى ريحانة أن رسول الله ﷺ قال « من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزاً وكبراً فهو عاشرهم فى النار » وأخرج البخارى. والنسائى عن أبى هريرة قال: « سئل رسول الله ﷺ أى الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: فأكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: فعن معادن العرب تسألونى؟ قالوا: نعم قال: خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام إذا فقهوا » والاحاديث فى هذا الباب أكثر من أن تحصى. وفى الآية اشارة إلى وجه رد التفاخر بالنسب حيث أفادت أن شرف النسب غير مكتسب (وأن ليس للانسان الا ماسعى) وأنه لافرق بين النسيب وغيره من جهة المادة لاتحاد ماخلقا منه، ولا من جهة الفاعل لأنه هو الله تعالى الواحد، فليس للنسب شرف يعول عليه ويكون مدارا للثواب عند الله عز وجل، ولا أحد أكرم من أحد عنده سبحانه الا بالتقوى وبها تكمل النفس وتتفاضل الاشخاص، وهذا لا ينافى كون العرب أشرف من العجم وتفاوت كل من العرب والعجم فى الشرف، فقد ذكروا أن الفرس أشرف من النبط، وبنو اسرائيل أفضل من القبط. وأخرج مسلم. وغيره عن واثلة بن الاسقع قال: « قال ﷺ إن الله اصطفى كنانة من ولد اسمعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » لأن ذلك ليس الا باعتبار الخصال الحميدة، فشرف العرب على العجم مثلا ليس الا باعتبار أن الله تعالى امتازهم على من سواهم بفضائل جمة وخصال حميدة كما صحت به الاحاديث، وقد جمع الكثير منها العلامة ابن حجر الهيتمى فى كتابه مبلغ الارب فى فضائل العرب، ولا نعنى بذلك أن كل عربى ممتاز على كل عجمى بالخصال الحميدة بل ان المجموع ممتاز على المجموع، ثم ان أشرف العرب نسبا أولاد فاطمة رضى الله تعالى عنها لأنهم ينسبون إلى النبى ﷺ كما صرح به جمع من الفقهاء. وأخرج الطبرانى عن فاطمة رضى الله تعالى عنها قالت: « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كل بنى آدم ينتمون إلى عصبة الا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم » وفى رواية له عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه « كل ابن انثى كان عصبتهم لأبيهم ماخلا ولد فاطمة فانا عصبتهم وأنا أبوهم » ونوزع فى صحة ذلك، ورمز الجلال السيوطى للاول بأنه حسن، وتعقب وليس الامر موقوفا على ماذكر لظهور دليله. وقد أخرج أحمد. والحاكم فى المستدرك عن المسور بن مخرمة ـ ولا كلام فيه ـ قال: « قال ﷺ فاطمة بضعة منى يقبضنى مايقبضها ويبسطنى مايبسطها وأن الانساب كلها تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهرى » وحديث بضعية فاطمة رضى الله تعالى عنها

مخرج فى صحيح البخاري أيضا ، قال الشريف السمهودى : ومعلوم أن أولادها بضعة منها فيكونون بواسطتها بضعة منه ﷺ ، وهذا غاية الشرف لأولادها ، وعدم انقطاع نسبه صلى الله تعالى عليه وسلم جاء أيضا فى حديث أخرجه ابن عساكر عن عمر رضى الله تعالى عنه مرفوعا بلفظ « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة الانسبى وصهرى » والذهبى وإن تعقبه بقوله : فيه ابن وكيع لا يعتمد لكن استدرك ذلك بأنه ورد فيه مرسل حسن ، ويعلم مما ذكر ونحوه ـ كما قال المناوى ـ عظيم نفع الانتساب اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يعارضه ما فى اخبار أخر من حثه عليه الصلاة والسلام لأهل بيته على خشية الله تعالى واتقائه سبحانه وانه عليه الصلاة والسلام لا يغنى عنهم من الله تعالى شيئا حرصا على ارشادهم وتحذيرا لهم من أن يتكلوا على النسب فتقصر خطاهم عن اللحوق بالسابقين من المتقين ، وليجتمع لهم الشرفان شرف التقوى وشرف النسب، ورعاية لمقام التخويف خاطبهم عليه الصلاة والسلام بقوله : « لا أغنى عنكم من الله شيئا » والمراد لا أغنى عنكم شيئا بمجرد نفسى من غير ما يكرمنى الله تعالى به من نحو شفاعة فيكم ومغفرة منه تعالى لكم ، وهو عليه الصلاة والسلام لا يملك لأحد نفعاً ولا ضراً إلا بتمليك الله تعالى ، والله سبحانه يملكه نفع أمته والأقربون أولى بالمعروف*

فعلى هذا لا بأس بقول الرجل: أنا من ذرية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على وجه التحدث بالنعمة أو نحو ذلك من المقاصد الشرعية . وقد نقل المناوى عن ابن حجر أنه قال نهيه صلى الله تعالى عليه وسلم عن التفاخر بالأنساب موضعه مفاخرة تقتضى تكبرا واحتقار مسلم ، وعلى ماذكرناه أولا جاء قوله عليه الصلاة والسلام «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسمعيل» الحديث ، وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب» إلى غير ذلك ، ومع شرف الانتساب اليه عليه الصلاة والسلام لا ينبغى لمن رزقه أن يجعله عاطلا عن التقوى ويدنسه بمتابعة الهوى ، فالحسنة فى نفسها حسنة وهى من بيت النبوة أحسن ، والسيئة فى نفسها سيئة وهى من أهل بيت النبوة أسوأ ، وقد يبلغ اتباع الهوى بذلك النسيب الشريف إلى حيث يستحى أن ينسب إلى رسول الله ﷺ وربما ينكر نسبه . وعليه قيل لشريف سىء الأفعال :

قال النبى مقال صدق لم يزل	يحلو لدى الاسماع والأفواه
إن فاتكم أصل امرىء ففعاله	تنبيكم عن أصله المتناهى
وأراك تسفر عن فعال لم تزل	بين الأنام عديمة الأشباه
وتقول انى من سلالة أحمد	أفأنت تصدق أم رسول الله

ولا يلوم الشريف إلا نفسه اذا عومل حينئذ بما يكره وقدم عليه من هو دونه فى النسب بمراحل ، كما يحكى أن بعض الشرفاء فى بلاد خراسان كان أقرب الناس الى رسول الله ﷺ غير أنه كان فاسقا ظاهر الفسق وكان هناك مولى أسود تقدم فى العلم والعمل فأكب الناس على تعظيمه فاتفق أن خرج يوما من بيته يقصد المسجد فاتبعه خلق كثير يتبركون به فلقيه الشريف سكران فكان الناس يطردونه عن طريقه فغلبهم وتعلق باطراف الشيخ وقال : ياأسود الحوافر والمشافر يا كافر ابن كافر أنا ابن رسول الله ﷺ أذل وأنت تجل وأهان وأنت تعان فهم الناس بضربه فقال الشيخ : لا تفعلوا هذا محتمل منه لجده ومعفو عنه وإن خرج عن حده، ولكن أيها الشريف بيضت باطنى وسودت باطنك فرؤى بياض قلبى فوق سواد وجهى فحسنت وسواد قلبك فوق بياض وجهك فقبحت ، وأخذت سيرة أبيك وأخذت سيرة أبى فرآنى الخلق فى سيرة أبيك ورأوك

فى سيرة أبى فظنونى ابن أبيك وظنوك ابن أبى فعملوا معك مايعمل مع أبى وعملوا معى ما يعمل مع أبيك ، ولهذا ونحوه قيل :

ولا ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهله

أى لا ينفع فى الامتياز على ذوى الخصال السنية اذا كانت النفس فى حد ذاتها باهلية ردية ومن الكمالات عرية ، فان باهلة فى الأصل اسم امرأة من همدان كانت تحت معن بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان فنسب ولده اليها ، وقيل : بنو باهلة وهم قوم معروفون بالخساسة ، قيل : كانوا يأكلون بقية الطعام مرة ثانية وكانوا يأخذون عظام الميتة يطبخونها ويأخذون دسوماتها فاستنقصتهم العرب جدا حتى قيل لعربى أترضى أن تكون باهليا وتدخل الجنة فقال : لا الابشرط أن لا يعلم أهل الجنة أنى باهلى ، وقيل :

إذا قيل للكلب ياباهلى عوى الكلب من شؤم هذا النسب

ولم يجعلهم الفقهاء لذلك أكفاء لغيرهم من العرب لكن لايخلو ذلك من نظر ، فان النص أعنى « إن العرب بعضهم اكفاء لبعض » لم يفصل مع أنه ﷺ كان أعلم بقبائل العرب وأخلاقهم وقد أطلق ، وليس كل باهلى كما يقولون بل فيهم الاجواد ، وكون فصيلة منهم أو بطن صعاليك فعلوا مافعلوا لا يسرى فى حق الكل اللهم إلا أن يقال : مدار الكفاءة وعدمها على العار وعدمه فى المعروف بين الناس فتى عدوا الباهلية عارا وشاع استنقاصها فيما بينهم وأبتها نفوسهم اعتبر ذلك وإن لم يكن عن أصل أصيل ، وهذا نظير ماذكروا فيما إذا اشترى الشخص دارا فتبين أن الناس يستشئمونها أنه بالخيار مع قول الجل من العلماء بنفى الشؤم المتعارف بين الناس اعتبارا لكون ذلك مما ينقص الثمن بين الناس وإن لم يكن له أصل فتأمله ، وبالجملة شرف النسب مما اعتبر جاهلية واسلاما ، أما جاهلية فأظهر من أن يبرهن عليه ، وأما اسلاما فيدل عليه اعتبار الكفاءة فى النسب فى باب النكاح على الوجه المفصل فى كتب الفقه ، ولم يخالف فى ذلك فيما نعلم الا الامام مالك . والثورى . والكرخى من الحنفية ، وبعض ما تقدم من الاخبار يؤيد كلامهم لكن أجيب عنه فى محله ، وكذا يدل عليه ماذكروه فى بيان شرائط الامامة العظمى من أنه يشترط فيها كون الامام قرشيا ، وقد أجمعوا على ذلك كما قال الماوردى ، ولا اعتبار بضرار . وأبى بكر الباقلانى حيث شذا فجوزاها فى جميع الناس ، وقال الشافعية : فان لم يوجد قرشى أى مستجمع لشروط الامامة اعتبر كون الامام كنانيا من ولد كنانة بن خزيمة ، فان تعذر اعتبر كونه من بنى اسمعيل عليه السلام ، فان تعذر اعتبر كونه من جرهم لشرفهم بصهارة اسمعيل عليه السلام إلى غير ذلك ، ومع هذا كله فالتقوى التقوى فالاتكال على النسب وترك النفس وهواها من ضعف الرأى وقلة العقل ، ويكفى فى هذا الفصل قوله تعالى لنوح عليه السلام فى ابنه كنعان : (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) وقوله عليه الصلاة والسلام : « سلمان منا أهل البيت » فالحزم اللائق بالنسيب أن يتقى الله تعالى ويكتسب من الخصال الحميدة ما لو كانت فى غير نسيب لكفته ليكون قد زاد على الزبد شهدا وعلق على جيد الحسناء عقدا ، ولا يكتفى بمجرد الانتساب إلى جدود سلفوا ليقال له : نعم الجدود ولكن بئس ماخلفوا ، وقد ابتلى كثير من الناس بذلك فترى أحدهم يفتخر بعظم بال وهو عرى كالابرة من كل كمال . ويقول: كان أبى كذا وكذا وذاك وصف أبيه فافتخاره به نحو افتخار الكوسج بلحية أخيه ، ومن هنا قيل :

واعجب شىء إلى عاقل أناس عن الفضل مستأخره

إذا سئلوا مالهم من علا أشاروا إلى أعظم ناخره

وقال الفاضل السرى عبد الباقى أفندى العمرى :

أقول لمن غدا فى كل وقت يباهينا بأسلاف عظام
أتقنع بالعظام وأنت تدرى بأن الكلب يقنع بالعظام

ومما الطف قوله :

لم يجدك الحسب العالى بغير تقى مولاك شيئاً فحاذر واتق الله
وابغ الكرامة فى نيل الفخار به فأكرم الناس عند الله اتقاها

وأكثر مارأينا ذلك الافتخار البارد عند أولاد مشايخ الزوايا الصوفية فانهم ارتكبوا كل رذيلة وتعروا عن كل فضيلة ومع ذلك استطالوا بآبائهم على فضلاء البرية واحتقروا أناسا فاقوهم حسبا ونسبا وشرفوهم اما وأبا وهذا هو الضلال البعيد والحمق الذى ليس عليه مزيد ، ولولا خشية السأم لأطلقنا فى هذا الميدان عنان كميت القلم على أن فيما ذكرنا كفاية لمن أخذت بيده العناية والله تعالى أعلم *

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾ قال مجاهد : نزلت فى بنى أسد بن خزيمة قبيلة تجاور المدينة أظهروا الاسلام وقلوبهم دغلة انما يحبون المغانم وعرض الدنيا ، ويروى أنهم قدموا المدينة فى سنة جدبة فأظهروا الشهادتين وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان يريدون بذكر ذلك الصدقة ويمنون به على النبى عليه الصلاة والسلام ، وقيل : هم مزينة . وجهينة . وأسلم . وأشجع . وغفار قالوا : آمنا فاستحقينا الكرامة فرد الله تعالى عليهم ، وأياما كان فليس المراد بالأعراب العموم كما قد صرح به قتادة . وغيره ، والحاق الفعل علامة التأنيث لشيوع اعتبار التأنيث فى الجموع حتى قيل :

لاتبالى بجمعهم كل جمع مؤنث

والنكتة فى اعتباره ههنا الاشارة على قلة عقولهم على عكس ماروعى فى قوله تعالى : (وقال نسوة)

﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ﴾ إكذاب لهم بدعوى الايمان اذ هو تصديق مع الثقة وطمأنينة القلب ولم يحصل لهم والا لما منوا على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بترك المقاتلة كما دل عليه آخر السورة ﴿ وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ فان الاسلام انقياد ودخول فى السلم وهو ضد الحرب وما كان من هؤلاء مشعر به ، وكان الظاهر لم تؤمنوا ولكن اسلمتم أو لاتقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا لتحصل المطابقة لكن عدل عن الظاهر اكتفاء بحصولها من حيث المعنى مع ادماج فوائد زوائد ، بيان ذلك أن الغرض المسوق له الكلام توبيخ هؤلاء فى منهم بايمانهم بأنهم خلوا عنه اولا وبأنهم الممتنون ان صدقوا ثانيا ، فالأصل فى الارشاد الى جوابهم قل كذبتم ولكن أخرج الى ماهو عليه المنزل ليفيد عدم المكافحة بنسبة الكذب ، وفيه حمل له عليه الصلاة والسلام على الادب فى شأن الكل ليصير ملكة لأتباعه وأن لايلبسوا جلد النمر لمن يخاطبهم به وتلخيص ما كذبوا فيه *

ومن الدليل على انه الاصل قوله تعالى فى الآية التالية : (أولئك هم الصادقون) تعريضا بأن الكذب منحصر فيهم ، وأوثر على لاتقولوا آمنا لاستهجان ذلك لاسيما من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المبعوث

للدعوة الى الايمان ، على ان افادة (لم تؤمنوا) لمعنى كذبتم أظهر من افادة لاتقولوا آمنا كما لا يخفى ، ثم قوبل بقوله سبحانه : (ولكن قولوا اسلمنا) كأنه قيل :قل لم تؤمنوا فلا تكذبوا ولكن قولوا أسلمنا لتفوزوا بالصدق ان فاتكم الايمان والتصديق ولو قيل : ولكن أسلمتم لم يؤد هذا المعنى ، وفيه تلويح بأن اسلامهم وهو خلو عن التصديق غير معتد به ولو قيل ولكن اسلمتم لكان ذلك موهما أن ذلك معتد به والمطلوب كما له بالايمان ولا يحتاج هذا الى أن يقال : القول فى المنزل مستعمل فى معنى الزعم ، وقيل : فى الآية احتباك والاصل لم تؤمنوا فلا تقولوا آمنا ولكن أسلمتم فقولوا اسلمنا فحذف من كل من الجملتين ما أثبت فى الأخرى والاول ابلغ وألطف ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الايمَانُ فى قُلُوبِكُمْ ﴾ حال من ضمير (قولوا) كأنه قيل : قولوا أسلمنا مادمتم على هذه الصفة ، وفيه اشارة الى توقع دخول الايمان فى قلوبهم بعد فليس هذا النفى مكررا مع قوله تعالى : (لم تؤمنوا) وقيل : الجملة مستأنفة ولا تكرار أيضا لأن لما تفيد النفى الماضى المستمر الى زمن الحال بالاجماع وتفيد أن منفيها متوقع خلافا لأبى حيان و ـ لم ـ لا تفيد شيئا من ذلك بلا خلاف فلا حاجة فى دفع التكرار الى القول بالحالية وجعل الجملة توقيتا للقول المأمور به ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بالاخلاص وترك النفاق ﴿ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ﴾ لا ينقصكم ﴿ شَيْئًا ﴾ من أجورها أو شيئا من النقص يقال لاته يليته ليتا اذا نقصه، ومنه ما حكى الاصمعى عن أم هشام السلولية الحمد لله الذى لا يفات ولا يلات ولا تصمه الاصوات . وقرأ الحسن والاعرج وأبو عمرو (لا يألتكم) من ألت يألت بضم اللام وكسرها ألتا وهى لغة أسد وغطفان ، قال الحطيئة :

أبلغ سراة بنى سعـــد مغلغلة ● جهد الرسالة لا ألتا ولا كذبا

والاولى لغة الحجاز والفعل عليها أجوف وعلى الثانية مهموز الفاء، وحكى ابو عبيدة ألات يليت ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ لما فرط من المطيعين ﴿ رَحِيمٌ ١٤ ﴾ بالتفضل عليهم ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ لم يشكوا من ارتاب مطاوع رابه اذا اوقعه فى الشـــك مع التهمة وجعل عدم الارتياب متراخيا عن الايمان مع انه لا ينفك عنه لافادة نفى الشك فيما بعد عند اعتراء شبهة كأنه قيل : آمنوا ثم لم يعترهم ما يعترى الضعفاء بعد حين، وهذا لا يدل على انهم كانوا مرتابين أولا بل يدل على أنهم كما لم يرتابوا أولا لم يحدث لهم ارتياب ثانيا، والحاصل آمنوا ثم لم يحدث لهم ريبة فالتراخى زمانى، وقال بعض الاجلة : عطف عدم الارتياب على الايمان من باب (ملائكته وجبريل) تنبيها على انه الاصل فى الايمان فكأنه شىء آخر أعلى منه كائن فيه ، وأوثر (ثم) على الواو للدلالة على أن هذا الاصل حديثه وقديمه سواء فى القوة والثبات فهو أبدا على طراوته لا أنه شىء واحد مستمر فيكون كالشىء الخلق بل هو متجدد طرى حينا بعد حين، ولا بأس بأن يجعل ترشيحا لما دل عليه معنى العطف لما جعل مغايرا نبه على انه ليس تغاير ما بين الاستمرار والحدوث بل تغاير شيئين مختلفين ليدل على المعنى المذكور وانهم فى زيادة اليقين آنافا آناء أما عند من يقول فيه بالقوة والضعف فظاهر ، وأما من لم يقل به فلانضمام العيان الى البيان، والفرق بين الاستمرارين ان الاستمرار على الاول استمرار المجموع نحو قوله تعالى : (قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أى استمر بذلك ايمانهم مع عدم الارتياب، وعلى الثانى الاستمرار معتبر فى الجزء الاخير ، وهذا الوجه أوجه، وأيا ما كان ففى الكلام تعريض بأولئك الاعراب

﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فى طاعته عز وجل على تكثر فنونها من العبادات البدنية المحضة والمالية الصرفة والمشتملة عليهما معا كالحج والجهاد، وتقديم الأموال على الأنفس من باب الترقى من الادنى الى الأعلى، ويجوز بأن يقال: قدم الاموال لحرص الكثير عليها حتى انهم يهلكون أنفسهم بسببها مع أنه أوفق نظرا الى التعريض بأولئك حيث انهم لم يكفهم أنهم لم يجاهدوا بأموالهم حتى جاؤا وأظهروا الاسلام حبا للمغانم وعرض الدنيا ومعنى (جاهدوا) بذلوا الجهد أو مفعوله مقدر أى العدو أو النفس والهوى ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من الاوصاف الجميله ﴿ هُمُ الصَّادِقُونَ ١٥ ﴾ أى الذين صدقوا فى دعوى الايمان لا أولئك الأعراب. روى انه لما نزلت الآية جاؤا وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون فنزل لتكذيبهم قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أى اتخبرونه سبحانه وتعالى بذلك بقولكم آمنا ـ فتعلمون ـ من علمت به ولذا تعدى بالتضعيف لواحد بنفسه والى الثانى بحرف الجر، وقيل: إنه تعدى به لتضمين معنى الاحاطة أو الشعور فيفيد مبالغة من حيث انه جار مجرى المحسوس وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ حال من مفعول (تعلمون) وفيه من تجهيلهم مالايخفى، وقوله سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٦ ﴾ تذييل مقرر لما قبله أى مبالغ فى العلم بجميع الاشياء التى من جملتها ما أخفوه من الكفر عند اظهارهم الايمان

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ أى يعتدون اسلامهم منة عليك وهى النعمة التى لا يطلب موليها ثوابا ممن أنعم بها عليه من المن بمعنى القطع لأن المقصود بها قطع حاجته، وقال الراغب: هى النعمة الثقيلة من المن الذى يوزن به وثقلها عظمها أو المشقة فى تحملها، (وأن أسلموا) فى موضع المفعول ـ ليمنون ـ لتضمينه معنى الاعتداد أو هو بتقدير حرف الجر فيكون المصدر منصوبا بنزع الخافض أو مجرورا بالحرف المقدر أى يمنون عليك باسلامهم، ويقال نحو ذلك فى قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ﴾ فهو إما على معنى لاتعتدوا اسلامكم منة على أولا تمنوا على باسلامكم، وجوز أبو حيان أن يكون (أن أسلموا) مفعولا من اجله أى يتفضلون عليك لأجل اسلامهم ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ أى ما زعمتم فى قولكم آمنا فلا ينافى هذا قوله تعالى: (قل لم تؤمنوا) أو الهداية مطلق الدلالة فلا يلزم ايمانهم وينافى نفى الايمان السابق *

وقرأ عبدالله. وزيد بن على (إذ هداكم) باذ التعليلية، وقرئ (إن هداكم) بإن الشرطية ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ١٧ ﴾ أى فى ادعاء الايمان فهو متعلق الصدق لا الهداية فلا تغفل؛ وجواب الشرط محذوف يدل عليه ماقبله أى فلله المنة عليكم، ولايخفى مافى سياق الآية من اللطف والرشاقة، وذلك أن الكائن من أولئك الاعراب قد سماه الله تعالى اسلاما اظهاراً لكذبهم فى قولهم: آمنا أى أحدثنا الايمان فى معرض الامتنان ونفى سبحانه أن يكون كما زعموا ايمانا فلما منوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ماكان منهم قال سبحانه لرسوله عليه الصلاة والسلام: يعتدون عليك بما ليس جديرا بالاعتداد به من حديثهم الذى حق تسميته أن يقال له اسلام فقل لهم: لاتعتدوا على اسلامكم أى حديثكم المسمى اسلاما عندى لا ايمانا، ثم قال تعالى: بل الله يعتد عليكم أن أمدكم بتوفيقه حيث هداكم للايمان على ما زعمتم، وفى قوله تعالى: (اسلامكم) بالاضافة مايدل على أن ذلك غير معتد به

وأنه شئ يليق بأمثالهم فأنى يخلق بالمنة ، وللتنبيه على أن المراد بالايمان الايمان المعتد به لم يضفه عز وجل ، ونبه سبحانه بقوله جل وعلا : (إن كنتم صادقين) على أن ذلك كذب منهم ، واللطف فى تقديم التكذيب ثم الجواب عن المن مع رعاية النكت فى كل من ذلك ، وتمـــام الحسن فى التذييل بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى ما غاب فيهما ﴿ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨ ﴾ أى فى سركم وعلانيتكم فكيف يخفى عليه سبحانه مافى ضمائركم ، وذلك ليدل على كذبهم وعلى إطلاعه عزوجل خواص عباده من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأتباعه رضى الله تعالى عنهم . وقرأ ابن كثير . وابان ، عن عاصم (يعملون) بياء الغيبة والله تعالى أعلم *

﴿ ومن باب الاشارة فى بعض الآيات ﴾ (ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) الخ اشارة إلى لزوم العمل بالشرع ورعاية الادب وترك مقتضيات الطبع ، وقوله تعالى : (ياأيهاالذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) يشير إلى أنه إن سولت النفس الامارة بالسوء وجاءت بنبأ شهوة من شهوات الدنيا ينبغى التثبت للوقوف على ربحهاوخسرانها (أن تصيبوا قوما) من القلوب وصفاتها (بجهالةفتصبحوا)صباح يوم القيامة (على مافعلتم نادمين) فان مافيه شفاء النفوس وحياتها فيه مرض القلوب ومماتها (واعلموا أن فيكم رسول الله) الخ يشير إلى رسول الالهام الربانى فى الانفس بلهم فجورها وتقواها ، ويشير قوله تعالى :(فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) إلى آن النفس إذا ظلمت القلب باستيلاء شهواتها يجب أن تقاتل حتى تثخن بالجراحة بسيوف المجاهدة فان استجابت بالطاعة عفى عنها لأنها هى المطية إلى باب الله عز وجل (إنما المؤمنون اخوةفأصلحوا بين أخويكم) اشارة إلى رعاية حق الاخوة الدينية ومنشأ نطفها صلب النبوة وحقيقتها نور الله تعالى فاصلاح ذات بينهم برفع حجب استار البشرية عن وجوه القلوب ليتصل النور بالنور من روزنة القلب فيصيروا كنفس واحدة (ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم) يشير الى ترك الاعجاب بالنفس والنظر الى أحد بعين الاحتقار فان الظاهر لا يعبأ به والباطن لايطلع عليه فرب اشعث أغبر ذى طمرين لواقسم على الله تعالى لأبره (قالت الاعراب آمنا) إلى آخره فيه اشارة إلى أنه ينبغى ترك رؤية الاعمال والعلم بأن المنة فى الهداية لله الملك المتعال . وفيه ارشاد الى كيفية مخاطبة الجاهلين والرد على المحجوبين كما سلفت الاشارة اليه ، هذا ونسأل الله تعالى التوفيق لما يرضاه يوم العرض عليه *

تفسير سورة الحجرات

مدنية بإجماع. وهي ثماني عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدي اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال العلماء: كان في العرب جَفاءٌ وسوءُ أدب في خطاب النبيّ ﷺ وتلقيبِ الناس. فالسورة في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب. وقرأ الضحاك ويعقوب الحضرميّ: ﴿لا تَقَدَّمُوا﴾ بفتح التاء والدال من التقدّم. الباقون ﴿تُقَدِّمُوا﴾ بضم التاء وكسر الدال من التقديم؛ ومعناهما ظاهر. أي لا تقدموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله وقول رسوله وفعله فيما سبيلُه أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا. ومن قدّم قولَه أو فعله على الرسول ﷺ فقد قدّمه على الله تعالى؛ لأن الرسول ﷺ إنما يأمر عن أمر الله عز وجل.

الثانية ـ واختلف في سبب نزولها على أقوال ستة:

الأول ـ ما ذكره الواحديّ من حديث ابن جُريج قال: حدّثني ابن أبي مُليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ؛ فقال أبو بكر: أمِّر القَعْقاع بن مَعْبد. وقال عمر: أَمِّرْ الأقرع بن حابس. فقال: أبو بكر: ما أردت إلا خلافي. وقال عمر: ما أردتُ خلافك. فتماديا حتى ارتفعت أصواتهما؛

فنزل في ذلك: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تُقَدِّمُوا بين يَدَيِ اللَّهِ ورسولِه ـ إلى قوله ـ ولَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾. رواه البخاري عن الحسن بن محمد بن الصباح؛ ذكره المهدَوِيّ أيضاً.

الثاني ـ ما روي أن النبيّ ﷺ أراد أن يستخلف على المدينة رجلاً إذ مضى إلى خَيْبَر؛ فأشار عليه عمر برجل آخر؛ فنزل ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُقَدِّمُوا بين يَدَيِ اللَّهِ ورسوله﴾. ذكره المهدوي أيضاً.

الثالث ـ ما ذكره الماوَرْدِيّ عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ أنفذ أربعة وعشرين رجلاً من أصحابه إلى بني عامر فقتلوهم؛ إلا ثلاثة تأخروا عنهم فسلموا وانكفئوا[١] إلى المدينة؛ فلقُوا رجلين من بني سليم فسألوهما عن نسبهما فقالا: من بني عامر، لأنهم أعز من بني سليم فقتلوهما؛ فجاء نفر من بني سليم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن بيننا وبينك عهداً، وقد قتل منا رجلان؛ فوداهما النبيّ ﷺ بمائة بعير، ونزلت عليه هذه الآية في قتلهم الرجلين. وقال قتادة: إن ناساً كانوا يقولون لو أنزل فيّ كذا، لو أنزل فيّ كذا؟ فنزلت هذه الآية. ابن عباس: نُهُوا أن يتكلموا بين يدي كلامه. مجاهد: لا تفتاتوا[٢] على الله ورسوله حتى يقضي الله على لسان رسوله؛ ذكره البخاري أيضاً. الحسن: نزلت في قوم ذَبَحُوا قبل أن يصلي رسول الله ﷺ؛ فأمرهم أن يعيدوا الذبح. ابن جُريج: لا تقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذي أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ.

قلت: هذه الأقوال الخمسة المتأخرة ذكرها القاضي أبو بكر بن العربي، وسردها قبله الماوردي. قال القاضي: وهي كلها صحيحة تدخل تحت العموم؛ فالله أعلم ما كان السبب المثير للآية منها، ولعلها نزلت دون سبب؛ والله أعلم. قال القاضي: إذا قلنا إنها نزلت في تقديم الطاعات على أوقاتها فهو صحيح؛ لأن كل عبادة مؤقتة بميقات لا يجوز تقديمها

(١) انكفأ القوم انكفاء: رجعوا وتبددوا.

(٢) افتات الكلام: ابتدعه. وافتات عليه في الأمر: حكم عليه. وافتات برأيه: استبد به.

عليه كالصلاة والصوم والحج؛ وذلك بيّن. إلا[١] أن العلماء اختلفوا في الزكاة، لما كانت عبادة مالية وكانت مطلوبة لمعنًى مفهوم، وهو سدّ خَلّة الفقير، ولأن النبيّ ﷺ استعجل من العباس صدقة عامين، ولما جاء من جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تعطى لمستحقيها يوم الوجوب وهو يوم الفطر؛ فاقتضى ذلك كله جواز تقديمها العام والاثنين. فإن جاء رأس العام والنصاب بحاله وقعت موقعها. وإن جاء رأس العام وقد تغيّر النصاب تبيّن أنها صدقة تطوّع. وقال أشهب: لا يجوز تقديمها على الحول لحظة كالصلاة؛ وكأنه طرد الأصل في العبادات فرأى أنها إحدى دعائم الإسلام فوفاها حقها في النظام وحسن الترتيب. ورأى سائر علمائنا أن التقديم اليسير فيها جائز؛ لأنه معفوٌّ عنه في الشرع بخلاف الكثير. وما قاله أشهب أصح؛ فإن مفارقة اليسير الكثير في أصول الشريعة صحيح، ولكنه لمعان تختص باليسير دون الكثير، فأما في مسألتنا فاليوم فيه كالشهر، والشهر كالسنة. فإما تقديم كلّي كما قاله أبو حنيفة والشافعيّ، وإمّا حفظ العبادة على ميقاتها كما قال أشهب.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﴾ أصل في ترك التعرّض لأقوال النبيّ ﷺ، وإيجاب اتباعه والاقتداء به، وكذلك قال النبيّ ﷺ في مرضه: «مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلّ بالناس». فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما: قولي له إن أبا بكر رجل أسِيف[٢] وإنه متى يَقُم مَقامَك لا يُسْمِع الناسَ من البكاء؛ فَمُرْ عمر فليصلّ بالناس. فقال ﷺ: «إنكنّ لأنتنّ صواحبُ يوسف[٣]. مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس». فمعنى قوله «صواحب يوسف» الفتنة بالردّ عن الجائز إلى غير الجائز.

---

(١) في «الأصول»: «وذلك أن العلماء...» والتصويب عن ابن العربي.

(٢) سريع البكاء والحزن. وقيل: هو الرقيق.

(٣) قال القسطلاني: «أي مثلهن في إظهار خلاف ما في الباطن؛ فإن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن الصديق لكونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك، وهو ألا يتشاءم الناس به. وهذا مثل زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة وغرضها أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها في محبته؛ فعبر بالجمع في قوله «إنكن» والمراد عائشة فقط. وفي قوله «صواحب» والمراد زليخا كذلك.

وربما احتج بغاث القياس بهذه الآية. وهو باطل منهم؛ فإن ما قامت دلالته فليس في فعله تقديم بين يديه. وقد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القول بالقياس في فروع الشرع؛ فليس إذاً تقدّم بين يديه. ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ يعني في التقدّم المنهي عنه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقولكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بفعلكم.

[٢] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

فيه ست مسائل؛

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أصواتكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ روى البخاريّ والترمذيّ عن ٱبن أبي مُليكة قال: حدثني عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدِم على النبيّ ﷺ؛ فقال أبو بكر: يا رسول الله استعمله على قومه؛ فقال عمر: لا تستعمله يا رسول الله؛ فتكلما عند النبيّ ﷺ حتى ارتفعت أصواتهما؛ فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي. فقال عمر: ما أردت خلافك؛ قال: فنزلت هذه الآية: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تَرْفَعُوا أصواتكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ قال: فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبيّ ﷺ لم يسمع كلامه حتى يُستفهمه. قال: وما ذكر ابن الزبير جدّه يعني أبا بكر. قال: هذا حديث غريب حسن. وقد رواه بعضهم عن ٱبن أبي مليكة مرسلاً، لم يذكر فيه عن عبد الله بن الزبير.

قلت: هو البخاري، قال: عن ٱبن أبي مُليكة كاد الخيِّران أن يهلكا أبو بكر وعمر، رفعا أصواتهما عند النبيّ ﷺ حين قَدِم عليه رَكْب بني تَميم؛ فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مُجاشِع، وأشار الآخر برجل آخر؛ فقال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي. فقال: ما أردتُ خلافك. فارتفعت أصواتهما

في ذلك؛ فأنزل الله عز وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تَرْفَعُوا أصواتكم فَوْقَ صَوْت النبي﴾ الآية. فقال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمع رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه. ولم يذكر ذلك عن أبيه[١]؛ يعني أبا بكر الصديق. وذكر المهدويّ عن عليّ رضي الله عنه: نزل قوله ﴿لا ترفعوا أصواتكم فَوْق صَوْت النبيّ﴾ فينا لما ٱرتفعت أصواتنا أنا وجعفر وزيد بن حارثة، نتنازع ٱبنة حمزة لما جاء بها زيد من مكة؛ فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر؛ لأن خالتها عنده. وقد تقدم هذا الحديث في ﴿آل عمران﴾[٢]. وفي «الصحيحين» عن أنس بن مالك أن النبيّ ﷺ افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك عِلْمَهُ؛ فأتاه فوجده جالساً في بيته مُنَكِّساً رأسه؛ فقال له: ما شأنك؟ فقال: شَرٌّ! كان[٣] يرفع صوتَه فَوْقَ صوتِ النبيّ ﷺ فقد حبِط عمله وهو من أهل النار. فأتى الرجلُ النبيّ ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا. فقال موسى[٤]؛ فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة؛ فقال: «ٱذهب إليه فقل له إنك لستَ من أهل النار ولكنك من أهل الجنة». لفظ البخاري. وثابت هذا هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي يُكْنَى أبا محمد بٱبنه محمد. وقيل: أبا عبد الرحمن. قُتِل له يوم الحَرّة[٥] ثلاثةٌ من الولد: محمد، ويحيى، وعبد الله. وكان خطيباً بليغاً معروفاً بذلك، كان يقال له خطيب رسول الله ﷺ، كما يقال لحسان شاعر رسول الله ﷺ. ولما قَدِمَ وَفْدُ تميم على رسول الله ﷺ وطلبوا المفاخرة قام خطيبهم فٱفتخر، ثم قام ثابت بن قيس فخطب خطبة بليغة جَزْلة فغلبهم، وقام شاعرهم وهو الأقرع بن حابس فأنشد:

---

(١) قوله «عن أبيه» يريد جدّه لأمه أسماء.

(٢) راجع ٤/ ٨٨.

(٣) هذا التفات من الحاضر إلى الغائب؛ والأصل: كنت أرفع صوتي.

(٤) هو ابن أنس؛ أحد رجال سند الحديث.

(٥) الحرّة: أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة، تعرف بحرة واقم، وبها كانت الوقعة في سنة ثلاث وستين من الهجرة أيام يزيد بن معاوية حين أنهب المدينة عسكره من أهل الشام الذين ندبهم لقتال أهل المدينة من الصحابة والتابعين، وأمر عليهم مسلم بن عقبة المري.

أتيناك كَيْمَا يعرف الناس فضلنا إذا خالفونا عند ذكر المكارِمِ
وإنا رؤوس الناس من كل مَعشَرٍ وأن ليس في أرض الحجاز كدارِمِ
وإنّ لنا المِرْباع في كل غارة تكون بنجد أو بأرض التهائم[١]

فقام حسّان فقال:

بَني دارمٍ لا تَفْخَرُوا إن فَخْرَكُمْ يعود وَبَالاً عند ذكر المكارم
هَبِلتم علينا تفخرون وأنتمُ لنا خَوَلٌ مِن بين ظِئر وخادِمِ[٢]

في أبيات لهما.

فقالوا: خطيبهم أخطب من خطيبنا، وشاعرهم أشعر من شاعرنا؛ فارتفعت أصواتهم فأنزل الله تعالى: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول﴾. وقال عِطاء الخراساني: حدّثتني أبنة ثابت بن قيس قالت: لما نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ﴾ الآية، دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابَه ؛ ففَقَدَه النبيّ ﷺ فأرسل إليه يسأله ما خبره؛ فقال: أنا رجل شديد الصوت ؛ أخاف أن يكون حَبِط عملي . فقال عليه السلام : « لستَ منهم بل تعيش بخير وتموت بخير». قال: ثم أنزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٣] فأغلق بابه وطَفِق يبكي؛ فَفَقده النبيّ ﷺ فأرسل إليه فأخبره ؛ فقال: يا رسول الله، إني أحب الجمال وأحب أن أسود قومي . فقال: « لست منهم بل تعيش حَمِيداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ». قالت : فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مُسَيْلِمَة فلما التقوْا انكشفوا ، فقال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ؛ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبتا وقاتلا حتى قُتلا ؛ وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة ؛ فمرّ به رجل من

---

(١) في سيرة أبن هشام: «. . . أو بأرض الأعاجم» والمرباع: ما يأخذه الرئيس وهو ربع الغنيمة.
(٢) هبلتم: فقدتم. والخول: حشم الرجل وأتباعه.
(٣) آية ١٨ سورة لقمان.

المسلمين فأخذها ؛ فبينا رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت في منامه فقال له: أوصيك بوصية، فإياك أن تقول هذا حُلْم فتضيعه ، إني لما قُتلت أمس مَرّ بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ومنزلُه في أقصى الناس ، وعند خبائه فرس يَسْتَنّ[1] في طِوَلـه، وقد كَفَأ على الدّرع بُرْمَةً ، وفوق البرمة رَحْل ؛ فَأْتِ خالـداً فمُرْه أن يبعث إلى درعي فيأخذها ، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ - يعني أبا بكر - فقل له: إن عليّ من الدَّين كذا وكذا ، وفلان من رقيقي عتيق وفلان ؛ فأتى الرجل خالداً فأخبره، فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدّث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيّتـه . قال : ولا نعلم أحداً أجيزت وصيتـه بعد موته غير ثابت ، رحمه الله ؛ ذكره أبو عمر في الاستيعاب.

الثانية - قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي لا تخاطبوه: يا محمد، ويا أحمد. ولكن: يا نبيّ الله ويا رسول الله؛ توقيراً له، وقيل: كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبيّ ﷺ؛ ليقتدي بهم ضَعَفة المسلمين فنُهِيَ المسلمون عن ذلك. وقيل: ﴿لا تجهروا له﴾ أي لا تجهروا عليه، كما يقال: سقط لِفِيه؛ أي علي فيه. ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الكاف كاف التشبيه في محل النصب؛ أي لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض. وفي هذا دليل [على] أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نُهُوا عن جهر مخصوص مقيّد بصفة؛ أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوّة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلّت عن رتبتها. ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ أي من أجل أن تحبط، أي تبطل؛ هذا قول البصريين. وقال الكوفيون: أي لئلا تحبط أعمالكم.

الثالثة - معنى الآية الأمرُ بتعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره، وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته؛ أي إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ

---

(١) استن الفرس: قمص وعدا إقبالاً وإدباراً. والطول والطيل (بالكسر): الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره والطرف الآخر في يد الفرس، ليدور فيه ويرعى ولا يذهب لوجهه.

الذي يبلغه بصوته، وأن تغضُّوا منها بحيث يكون كلامه غالباً لكلامكم، وجهرُه باهراً لجهركم؛ حتى تكون مزيّته عليكم لائحة، وسابقته واضحة، وٱمتيازه عن جمهوركم كشِيَة الأبلق. لا أن تغمروا صوته بلغطكم، وتَبْهَرُوا منطقه بصخبكم. وفي قراءة ابن مسعود ﴿لا ترفعوا بأصواتكم﴾. وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه السلام. وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفاً لهم؛ إذ هم ورثة الأنبياء.

الرابعة ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: حرمة النبيّ ﷺ ميتاً كحرمته حيًا، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثالُ كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرىء كلامه، وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يَعرض عنه؛ كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به. وقد نبه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى: ﴿وإذا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾[1]. وكلامه ﷺ من الوَحْي، وله من الحكمة مثل ما للقرآن؛ إلامعانى مستثناة، بيانها في كتب الفقه.

الخامسة ـ وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة؛ لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون. وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جَرْسه[2] غيرُ مناسب لما يهاب به العظماء ويوقّر الكبراء، فيتكلف الغض منه وردّه إلى حدٍّ يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير. ولم يتناول النهي أيضاً رفع الصوت الذي يتأذّى به رسول الله ﷺ؛ وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدوّ أو ما أشبه ذلك؛ ففي الحديث أنه قال عليه السلام للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حُنين: «اصرخ بالناس» وكان العباس أجهر الناس صوتاً؛ يروى أن غارة أتتهم يوماً فصاح العباس: يا صباحاه! فأسقطت الحوامل لشدّة صوته، وفيه يقول نابغة بني جَعْدة:

---

(١) آية ٢٠٤ سورة الأعراف.

(٢) الجرس (بفتح الجيم وكسرها): الصوت.

زَجْرُ أبي عُرْوة[١] السباعَ إذا أشفق أن يختلطن بالغنم

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع في جوفه.

السادسة ـ قال الزجاج: ﴿أنْ تَحْبَط أَعْمَالُكُمْ﴾ التقدير لأن تحبط؛ أي فتحبط أعمالكم، فاللام المقدّرة لام الصيرورة، وليس قوله: ﴿أنْ تَحْبَط أعمالُكم وأنتم لا تشعرون﴾ بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم؛ فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافراً من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بإجماع. كذلك لا يكون الكافر كافراً من حيث لا يعلم.

[٣] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أي يخفِضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالاً له، أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له. قال أبو هريرة: لما نزلت ﴿ لا ترفعوا أصواتكم ﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه: والله لا أرفع صوتي إلا كأخي السِّرَار[٢]. وذكر سنيد قال: حدّثنا عباد بن العوام عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة قال: لما نزلت ﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قال أبو بكر: والذي بعثك بالحق لا أكلمك بعد هذا إلا كأخي السِّرار. وقال عبد الله بن الزبير: لما نزلت ﴿ لا ترفعوا أصواتكم ﴾ ما حدث عمر عند النبي ﷺ بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض؛ فنزلت ﴿ إنّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أصواتَهم عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أولئك الذين ٱمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾. قال الفراء: أي أخلصها للتَّقْوَى. وقال الأخفش: أي اختصها للتقوى. وقال ابن عباس: «ٱمتحن اللَّهُ قلوبَهُمْ للتّقوَى» طهّرهم من كل قبيح، وجعل في قلوبهم الخوف من الله

---

(١) أبو عروة: كنية العباس.

(٢) السرار (بالكسر): المسارّة؛ أي كصاحب السرار، أو كمثل المساررة لخفض صوته؛ والكاف صفة لمصدر محذوف.

والتقوى . وقال عمر رضي الله عنه : أذهب عن قلوبهم الشهوات . والامتحان افتعال من مَحَنْتُ الأدِيمَ مَحْناً حتى أوسعته. فمعنى أمتحن الله قلوبهم للتقوى وسّعها وشرحها للتقوى. وعلى الأقوال المتقدمة: امتحن قلوبهم فأخلصها؛ كقولك : امتحنت الفضة أي اختبرتها حتى خلصت . ففي الكلام حذف يدل عليه الكلام ، وهو الإخلاص . وقال أبو عمرو : كل شيء جَهَدته فقد محنته. وأنشد:

أتت رذايا بادِياً كَلالها قد محنت واضطربت آطالها[1]

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

[٤] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

قال مجاهد وغيره: نزلت في أعراب بني تميم؛ قدم الوفد منهم على النبيّ ﷺ، فدخلوا المسجد ونادَوْا النبيّ ﷺ من وراء حجرته أن اخرج إلينا، فإن مَدْحَنَا زَيْنٌ وذَمَّنَا شَيْن. وكانوا سبعين رجلاً قدّموا الفداءَ ذَرَارِيَ لهم؛ وكان النبيّ ﷺ نام للقائلة. وروي أن الذي نادى الأقرع بن حابس، وأنه القائل: إن مَدْحِيَ زَيْنٌ وإنّ ذَمِّيَ شَيْن؛ فقال النبيّ ﷺ: «ذاك الله». ذكره الترمذي عن البراء بن عازب أيضاً. وروى زيد بن أرقم فقال: أتى أناس النبيّ ﷺ فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبيًّا فنحن أسعد الناس بأتباعه، وإن يكن مَلِكاً نَعِشْ في جنابه[2]. فأتُوا النبيّ ﷺ فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية. قيل: إنهم كانوا من بني تميم. قال مقاتل: كانوا تسعة عشر: قيس بن عاصم، والزِّبْرِقان بن بَدْر، والأَقْرَع بن حابس، وسُويد بن هاشم، وخالد بن مالك، وعطاء بن حابس، والقَعْقَاع بن مَعْبد، ووَكِيع بن وكيع، وعُيَيْنَة بن حِصْن

(١) الرذايا: جمع رذية، وهي الناقة المهزولة من السير. والكلال: الإعياء. والآطال: جمع إطل؛ وهو الخاصرة.

(٢) في الطبري: «في جناحه».

وهو الأحمق المطاع ، وكان من الجرّارين يجر عشرة آلاف قناة ، أي يتبعه. وكان اسمه حذيفة وسمي عُيَيْنة لَشَترٍ[١] كان في عَيْنَيه . ذكر عبد الرزاق في عُيينة هذا أنه الذي نزل فيه ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا﴾[٢] . وقد مضى في آخر ﴿الأعراف﴾ من قوله لعمر رضي الله عنه ما فيه كفاية[٣] ؛ ذكره البخاري. وروى أنهم وَفَدوا وقت الظهِيرة ورسول الله ﷺ راقد ؛ فجعلوا ينادونه : يا محمد يا محمد، أخرج إلينا؛ فاستيقظ وخرج ، ونزلت . وسئل رسول الله ﷺ فقال: «هم جُفاة بني تميم لولا أنهم من أشدّ الناس قتالاً للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم». والحُجُرات جمع حُجْرة؛ كالغُرُفات جَمع غُرْفة، والظُّلُمات جمع ظُلْمة. وقيل: الحجرات جمع الحُجَر، والحُجَر جمع حُجْرة؛ فهو جمع الجمع. وفيه لغتان: ضمّ الجيم وفتحها[٤] . قال:

ولمـا رأونـا بـاديـاً رُكَبـاتنـا على موطن لا نخلط الجِدَّ بالهَزْلِ

والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها. وحَظيرة الإبل تسمى الحجرة، وهي فُعْلة بمعنى مفعولة. وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاع ﴿الحُجرَات﴾ بفتح الجيم استثقالاً للضمتين. وقرىء ﴿الحُجْرات﴾ بسكون الجيم تخفيفاً. وأصل الكلمة المنع. وكل ما منعت أن يوصل إليه فقد حَجَرت عليه. ثم يحتمل أن يكون المنادى بعضاً من الجملة فلهذا قال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُون﴾ أي إن الذين ينادونك من جملة قوم الغالبُ عليهم الجهل.

[٥] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ .

أي لو انتظروا خروجك لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم. وكان ﷺ لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه ؛ فكان إزعاجه في تلك الحالة

---

(١) الشتر (بفتحتين): انقلاب في جفن العين.
(٢) آية ٢٨ سورة الكهف.
(٣) راجع ٧/٣٤٧.
(٤) وفيه لغة ثالثة: سكون الجيم.

من سوء الأدب. وقيل: كانوا جاءوا شفعاء في أسارى بني عنبر فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم، وفادى على النصف. ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

[٦] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط. وسبب ذلك ما رواه سعيد عن قتادة أن النبيّ ﷺ بعث الوليد بن عقبة مُصَدِّقاً إلى بني المُصْطَلِق؛ فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم ـ في رواية: لإحْنَة كانت بينه وبينهم ـ؛ فرجع إلى النبيّ ﷺ فأخبره أنهم قد ارتدّوا عن الإسلام. فبعث نبيّ الله ﷺ خالدَ بن الوليد وأمره أن يتثبّت ولا يَعْجَل؛ فانطلق خالد حتى أتاهم ليلاً؛ فبعث عُيُونَه فلما جاءوا أخبروا خالداً أنهم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم؛ فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه؛ فعاد إلى نبيّ الله ﷺ فأخبره، فنزلت هذه الآية؛ فكان يقول نبيّ الله ﷺ: «التأنّي من الله والعجلة من الشيطان». في رواية: أن النبيّ ﷺ بعثه إلى بني المُصْطَلِق بعد إسلامهم؛ فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم خافهم؛ فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره أن القوم قد هموا بقتله، ومنعوا صدقاتهم. فهمّ رسول الله ﷺ بغَزْوِهم؛ فبينما هم كذلك إذ قدم وفدهم على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدّي إليه ما قبلنا من الصدقة، فاستمر راجعاً، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله أنا خرجنا لنقاتله، والله ما خرجنا لذلك؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وسُمِّيَ الوليدُ فاسقاً أي كاذباً. قال

ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله: الفاسق الكذاب. وقال أبو الحسن[(١)] الوراق: هو المعلن بالذنب. وقال ابن طاهر: الذي لا يستحي من الله. وقرأ حمزة والكسائي ﴿فتثبتوا﴾ من التثبت. الباقون ﴿فتبينوا﴾ من التبيين ﴿أَنْ تُصِيبُوا﴾ أي لئلا تصيبوا؛ فـ ﴿أن﴾ في محل نصب بإسقاط الخافض. ﴿قَوْماً بِجَهَالَةٍ﴾ أي بخطأ. ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ على العجلة وترك التأنّي.

الثانية ـ في هذه الآية دليلٌ على قبول خبر الواحد إذا كان عَدْلاً؛ لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق. ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعاً؛ لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها. وقد استثنى الإجماع من جملة ذلك ما يتعلق بالدعوى والجحود، وإثبات حق مقصود على الغير؛ مثل أن يقول: هذا عبدي؛ فإنه يقبل قوله. وإذا قال: قد أنفذ فلان هذا لك هدية؛ فإنه يقبل ذلك. وكذلك يقبل في مثله خبر الكافر. وكذلك إذا أقَرّ لغيره بحق على نفسه فلا يبطل إجماعاً. وأما في الإنشاء على غيره فقال الشافعي وغيره: لا يكون وَلِيّا في النكاح. وقال أبو حنيفة ومالك: يكون وَلِيّا؛ لأنه يَلِي ما لها فيلي بُضْعَها. كالعدل، وهو وإن كان فاسقاً في دينه إلا أن غَيْرته موفّرة وبها يحمى الحريم، وقد يبذل المال ويصون الحرمة؛ وإذا وَلِيَ المال فالنكاح أولى.

الثالثة ـ قال ابن العربي: ومن العَجَب أن يجوّز الشافعي ونظراؤه إمامةَ الفاسق. ومن لا يؤتمن على حبة مالٍ [كيف][(٢)] يصحّ أن يؤتمن على قنطار دَيْن. وهذا إنما كان أصله أن الولاة الذين كانوا يصلّون بالناس لما فسدت أديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم، ولا اسْتُطِيعت إزالتهم صُلِّيَ معهم ووراءهم؛ كما قال عثمان: الصلاة أحسن ما يفعل الناس؛ فإذا أحسنوا فأحسن، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم، ثم كان من الناس من إذا صلى معهم تَقِيَّةً أعادوا الصلاة لله، ومنهم من كان يجعلها صلاته. وبوجوب الإعادة أقول؛

---

(١) في بعض النسخ: «أبو الحسين».

(٢) زيادة عن ابن العربي.

فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة، ولكن يعيد سِرًّا في نفسه، ولا يؤثر ذلك عند غيره.

الرابعة ـ وأما أحكامه إن كان والياً فينفذ منها ما وافق الحق ويردّ ما خالفه، ولا ينقض حكمه الذي أمضاه بحال؛ ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول من رواية [تؤثر](1) أو قول يحكى؛ فإن الكلام كثير والحق ظاهر.

الخامسة ـ لا خلاف في أنه يصح أن يكون رسولاً عن غيره في قول يبلغه أو شيء يوصله، أو إذن يعلمه؛ إذا لم يخرج عن حق المرسِل والمبلَّغ؛ فإن تعلّق به حق لغيرهما لم يقبل قوله. وهذا جائز للضرورة الداعية إليه؛ فإنه لو لم يتصرف بين الخلق في هذه المعاني إلا العدول لم يحصل منها(2) شيء لعدمهم في ذلك. والله أعلم.

السادسة ـ وفي الآية دليل على فساد قول من قال: إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجُرحة؛ لأن الله تعالى أمر بالتثبت قبل القبول، ولا معنى للتثبت بعد إنفاذ الحكم؛ فإن حَكم الحاكمُ قبل التثبت فقد أصاب المحكوم عليه بجهالة.

السابعة ـ فإن قضى بما يغلب على الظن لم يكن ذلك عملاً بجهالة؛ كالقضاء بالشاهدين العدلين، وقبول قول العالم المجتهد. وإنما العمل بالجهالة قبول قولِ من لا يحصل غلبة الظن بقبوله. ذكر هذه المسألة القُشَيْري، والذي قبلها المَهْدَوِيّ.

[٧] ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾.

[٨] ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

---

(١) زيادة عن ابن العربي.

(٢) في ابن العربي: «منهم».

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فلا تكذبوا؛ فإن الله يُعْلمه أنباءكم فتفتضحون. ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقة وإثم؛ فإنه لو قتل القومَ الذين سعى بهم الوليد بن عُقبة إليه لكان خطأً، ولَعَنَتَ مَن أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه وبينهم. ومعنى طاعة الرسول لهم: الائتمارُ بما يأمر به فيما يبلّغونه عن الناس والسماع منهم. والعَنَت الإثم؛ يقال: عَنِت الرجل. والعنت أيضاً الفجور والزنى؛ كما في سورة ﴿النساء﴾[1]. والعنت أيضاً الوقوع في أمر شاق؛ وقد مضى في آخر ﴿براءة﴾ القول في ﴿عَنِتُّم﴾ بأكثر من هذا[2]. ﴿وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ هذا خطاب للمؤمنين المخلصين الذين لا يكذّبون النبيّ ﷺ ولا يخبرون بالباطل؛ أي جعل الإيمان أحبّ الأديان إليكم. ﴿وَزَيَّنَهُ﴾ بتوفيقه. ﴿في قُلُوبِكُمْ﴾ أي حسنه إليكم حتى اخترتموه. وفي هذا ردّ على القدرية والإمامية وغيرهم؛ حسب ما تقدّم في غير موضع. فهو سبحانه المنفرد بخلق ذوات الخلق وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم؛ لا شريك له. ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ قال ابن عباس: يريد به الكذب خاصة. وقاله ابن زيد. وقيل: كل ما خرج عن الطاعة؛ مشتق من فَسَقتِ الرُّطَبةُ خرجت من قشرها. والفأرة من جُحْرها. وقد مضى في ﴿البقرة﴾ القول فيه مستوفًى[3]. والعصيان جمع المعاصي. ثم انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني هم الذين وفقهم الله فحبّب إليهم الإيمان وكرّه إليهم الكفر أي قبحه عندهم ﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[4]. قال النابغة:

يـا دارَ مَيّـةَ بـالعَلْيـاء فـالسَّنَـدِ ... أَقْوَتْ وطال عليها سالِفُ الأمَدِ

والرَّشَد الاستقامة على طريق الحق مع تَصَلُّب فيه؛ من الرَّشادة وهي الصخرة.

---

(١) راجع ٥/ ١٣٧.
(٢) راجع ٨/ ٣٠٢.
(٣) راجع ١/ ٢٤٥.
(٤) آية ٣٩ سورة الروم.

قال أبو الوازع: كل صخرة رشادة. وأنشد:

وغيـــر مُقَلَّـــد ومُـــوَشّمـــات صَلِينَ الضّوءَ من صُمِّ الرشاد(١)

﴿ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أي فعل الله ذلك بكم فضلاً ؛ أي الفضل والنعمة ، فهـو مفعـول لـه . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿ عليم ﴾ بما يصلحكم ﴿ حكِيم ﴾ فـي تدبيركـم.

[٩] ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

فيه عشر مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ روى المُعْتَمِر بن سليمان عن أنس بن مالك قال قلت: يا نبيّ الله، لو أتيتَ عبد الله بن أُبَيّ؟ فانطلق إليه النبيّ ﷺ، فركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة؛ فلما أتاه النبيّ ﷺ قال؛ إليك عني! فوالله لقد آذاني نتن حمارك. فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسولِ الله ﷺ أطيب ريحاً منك. فغضب لعبد الله رجل من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابه؛ فكان بينهم حرب بالجريد والأيدي والنعال؛ فبلغنا أنه أنزل فيهم هذه الآية. وقال مجاهد: نزلت في الأوس والخزرج. قال مجاهد: تقاتل حيّان من الأنصار بالعصي والنعال فنزلت الآية. ومثله عن سعيد بن جبير: أن الأوس والخزرج كان بينهم على عهد رسول الله ﷺ قتال

---

(١) في «شرح شواهد الكشاف» للمرحوم الأستاذ أبي عليان: «الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يبق فيها غير وتد الخباء المقلد بالحبل وغير الأثاني المغير لونها بالنار. والوشم والتوشيم تغيير اللون، أي التي احترقت بضوئها أي حرها. و«من صم الرشاد» بيان لها. والصم: جمع صماء، أي صلبة. وقيل: يصف مطايا بأنها مطبوعة على العمل غير محتاجة للزمام، وأنها غيرها أثر السير، قوية بحيث يظهر الشرر من شدّة وقع خفافها على الصخر الصلب».

بالسَّعف والنعال ونحوه؛ فأنزل الله هذه الآية فيهم. وقال قتادة: نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مداراة[١] في حق بينهما؛ فقال أحدهما: لآخذن حقي عَنوة؛ لكثرة عشيرته. ودعاه الآخر إلى أن يحاكمه إلى رسول الله ﷺ فأبى أن يتبعه؛ فلم يزل الأمر بينهما حتى تواقعا وتناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال والسيوف؛ فنزلت هذه الآية. وقال الكلبي: نزلت في حرب سُمير وحاطب[٢]، وكان سُمير قتل حاطباً؛ فاقتتل الأوس والخزرج حتى أتاهم النبيّ ﷺ؛ فنزلت. وأمر الله نبيّه ﷺ والمؤمنين أن يصلحوا بينهما. وقال السُّدّي: كانت امرأة من الأنصار يقال لها «أم زيد» تحت رجل من غير الأنصار؛ فتخاصمت مع زوجها، أرادت أن تزور قومها فحبسها زوجها وجعلها في عُلِّيّة لا يدخل عليها أحد من أهلها، وأن المرأة بعثت إلى قومها، فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها، فخرج الرجل فاستغاث أهلَه فخرج بنو عمه ليحولوا بين المرأة وأهلها؛ فتدافعوا وتجالدوا[٣] بالنعال؛ فنزلت الآية. والطائفة تتناول الرجل الواحد والجمع والاثنين؛ فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس. وفي قراءة عبد الله ﴿حتى يفيئوا إلى أمر الله فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط﴾. وقرأ ابن أبي عَبْلَة ﴿اقتتلتا﴾ على لفظ الطائفتين. وقد مضى في آخر ﴿براءة﴾ القول فيه[٤]. وقال ابن عباس في قوله عز وجل ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِن الْمُؤْمِنِينَ﴾[٥] قال: الواحد فما فوقه؛ والطائفة من الشيء القطعة منه ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بالدعاء إلى كتاب الله لهما أو عليهما. ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى﴾ تعدّت ولم تجب إلى حكم الله وكتابه. والبغي: التطاول والفساد. ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي ترجع إلى كتابه. ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ رجعت ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ أي احملوهما على الإنصاف. ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أيها الناس فلا تقتتلوا. قيل: أقسطوا أي اعدلوا. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي العادلين المحقّين.

---

(١) تدارأ القوم: تدافعوا في الخصومة ونحوها واختلفوا.

(٢) راجع خبر حربهما في كتاب «الكامل» لابن الأثير ١/ ٤٩٤ طبع أوروبا.

(٣) تجالدوا: تضاربوا. (٤) راجع ٨/ ٢٩٤.

(٥) آية ٢ سورة النور.

الثانية ـ قال العلماء: لا تخلو الفئتان من المسلمين في اقتتالهما؛ إما أن يقتتلا على سبيل البَغْي منهما جميعاً أولا. فإن كان الأوّل فالواجب في ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافّة والموادعة. فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقامتا على البغي صِير إلى مقاتلتهما. وأما إن كان الثاني وهو أن تكون إحداهما باغيةً على الأخرى؛ فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكفّ وتتوب؛ فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغيّ عليها بالقسط والعدل. فإن التحم القتال بنهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة؛ فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيّرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق. فإن ركبتا متن اللّجاج ولم تعملا على شاكلة ما هُدِيَتَا إليه ونُصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين. والله أعلم.

الثالثة ـ في هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين. وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين؛ واحتج بقوله عليه السلام: «قتال المؤمن كفر». ولو كان قتال المؤمن الباغي كفراً لكان الله تعالى قد أمر بالكفر؛ تعالى الله عن ذلك! وقد قاتل الصدّيق رضي الله عنه من تمسّك بالإسلام وامتنع من الزكاة، وأمر ألا يُتبع مُوَلٍّ، ولا يُجهز على جريح؛ ولم تحل أموالهم، بخلاف الواجب في الكفار. وقال الطبري: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الهربَ منه ولزومَ المنازل لما أقيم حدّ ولا أُبْطِل باطل، ولَوَجد أهل النفاق والفجور سبيلاً إلى استحلال كلّ ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسَبْي نسائهم وسفك دمائهم؛ بأن يتحزّبوا عليهم، ويكفّ المسلمون أيديهم عنهم؛ وذلك مخالف لقوله عليه السلام: «خذوا على أيدي سفهائكم».

الرابعة ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذه الآية أصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عوّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عنى النبي ﷺ بقوله: «تَقْتل عَمّاراً[1] الفئةُ الباغية». وقوله عليه السلام في شأن

(١) هو عمار بن ياسر: (راجع خبره في كتب الصحابة).

الخوراج: «يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة». والرواية الأولى أصح؛ لقوله عليه السلام: «تقتلهم أوْلَى الطائفتين إلى الحق». وكان الذي قتلهم عليّ بن أبي طالب ومن كان معه. فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدِّين أن عليًّا رضي الله عنه كان إماماً، وأن كل من خرج عليه باغٍ وأن قتاله واجب حتى يفيء إلى الحق وينقاد إلى الصلح. لأن عثمان رضي الله عنه قُتِل والصحابة بُرَآء من دمه؛ لأنه مَنع من قتال من ثار عليه وقال: لا أكون أوّل مَن خَلَف رسول الله ﷺ في أمته بالقتل؛ فصبر على البلاء، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة. ثم لم يمكن ترك الناس سُدًى؛ فعرضت على باقي الصحابة الذين ذكرهم [عمر][1] في الشورى؛ وتدافعوها؛ وكان عليّ كرّم الله وجهه أحق بها وأهلها؛ فقبلها حَوْطة[2] على الأمة أن تسفك دماؤها بالتهارج والباطل، أو يتخرق أمرها إلى ما لا يتحصل. فربما تغيّر الدِّين وانقض عمود الإسلام. فلما بويع له طلب أهل الشام في شرط البَيْعة التمكن من قَتَلة عثمان وأخذ القَوَد منهم؛ فقال لهم عليّ رضي الله عنه: ادخلوا في البَيْعة واطلبوا الحق تصلوا إليه. فقالوا: لا تستحق بيعة وقَتَلَةُ عثمان معك تراهم صباحاً ومَساء. فكان عليّ في ذلك أسدَّ رأياً وأصوبَ قِيلاً؛ لأن عليًّا لو تعاطى القَوَد منهم لتعصبت لهم قبائلُ وصارت حرباً ثالثةً؛ فانتظر بهم أن يستوثق الأمر وتنعقد[3] البيعة، ويقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم؛ فيجري القضاء بالحق.

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدّى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة. وكذلك جرى لطلحة والزبير؛ فإنهما ما خلعا علياً من ولاية ولا اعترضا عليه في ديانة؛ وإنمارأيا أن البُداءة بقتل أصحاب عثمان أوْلَى.

قلت: فهذا قول في سبب الحرب الواقع بينهم. وقال جِلّة من أهل العلم: إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به؛ لأن الأمر كان قد انتظم بينهم

---

(١) زيادة عن ابن العربي. (٢) الحوطة والحيطة: الاحتياط.

(٣) في ابن العربي: «الأمن».

وتم الصلح والتفرّق على الرضا. فخاف قَتَلة عثمان رضي الله عنه من التمكين منهم والإحاطة بهم، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا؛ ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين، ويبدأوا بالحرب سحرة في العسكرين، وتختلف السهام بينهم، ويصيح الفريق الذي في عسكر عليّ: غدر طلحة والزبير؛ والفريق الذي في عسكر طلحة والزبير: غدر عليّ. فتمّ لهم ذلك على ما دبّروه، ونَشِبَت الحرب؛ فكان كل فريق دافعاً لِمَكْرَته عند نفسه، ومانعاً من الإشاطة[1] بدمه. وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى؛ إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل. وهذا هو الصحيح المشهور. والله أعلم.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أمرٌ بالقتال. وهو فرضٌ على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين؛ ولذلك تخلّف قوم من الصحابة رضي الله عنهم عن هذه المقامات؛ كسعد بن أبي وَقّاص وعبد الله بن عمرو ومحمد بن مسلمة وغيرِهم. وصوّب ذلك عليّ بن أبي طالب لهم، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه. ويروى أن معاوية رضي الله عنه لما أفضى إليه الأمر، عاتب سعداً على ما فعل، وقال له: لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا، ولا ممن قاتل الفئة الباغية. فقال له سعد: ندمتُ على تركي قتالَ الفئةِ الباغية. فتبيّن أنه ليس على الكل دَرَك[2] فيما فعل، وإنما كان تصرفاً بحكم الاجتهاد وإعمالاً بمقتضى الشرع. والله أعلم.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ ومن العدل في صلحهم ألا يطالَبوا بما جرى بينهم من دمٍ ولا مال؛ فإنه تَلَف على تأويل. وفي طلبهم تنفير لهم عن الصلح واستشراء[3] في البغي. وهذا أصل في المصلحة. وقد قال لسان الأمة: إن حكمة الله تعالى في حرب الصحابة التعريفُ منهم لأحكام قتال أهل التأويل؛ إذ كان أحكام قتال أهل الشرك قد عرفت على لسان الرسول ﷺ وفعله.

---

(١) الإشاطة: الاهلاك. يقال: أشاط فلان دم فلان إذا عرضه للهلاك.
(٢) الدرك (بفتح الراء وسكونها): التبعة.
(٣) استشرى الرجل في الأمر: لج. والأمور: تفاقمت وعظمت.

السابعة ـ إذا خرجت على الإمام العدل خارجةٌ باغيةٌ ولا حجة لها، قاتلهم الإمام بالمسلمين كافّة أو بمن فيه كفاية، ويدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول في الجماعة، فإن أَبَوْا من الرجوع والصلح قوتلوا. ولا يُقتل أسيرهم ولا يتبع مُدْبِرهم ولا يُذَفَّف[1] على جريحهم، ولا تُسْبَى ذراريهم ولا أموالهم. وإذا قتل العادلُ الباغي أو الباغي العادلَ وهو وليّه لم يتوارثا. ولا يرث قاتلٌ عمداً على حال. وقيل: إن العادل يرث الباغي، قياساً على القصاص.

الثامنة ـ وما استهلكه البُغاة والخوارج من دم أو مال ثم تابوا لم يؤاخَذوا به وقال أبو حنيفة: يضمنون. وللشافعي قولان. وجه قول أبي حنيفة أنه إتلاف بُعُدْوان فيلزم الضمان. والمعوّل في ذلك عندنا أن الصحابة رضي الله عنهم في حروبهم لم يتبعوا مُدْبِرا ولا ذفَّفُوا على جريح ولا قتلوا أسيراً ولا ضمنوا نفساً ولا مالاً؛ وهم القُدْوة. وقال ابن عمر قال النبيّ ﷺ: «يا عبد الله أتدري كيف حكم الله فيمن بَغَى من هذه الأمة»؟ قال: الله ورسوله أعلم. فقال: «لا يجهز على جريحها ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيئها». فأما ما كان قائماً ردّ بعينه. هذا كله فيمن خرج بتأويل يسوغ له. وذكر الزَّمَخْشَرِي في «تفسيره»: إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منَعَة لها ضَمِنت بعد الفيئة ما جَنَت، وإن كانت كثيرةً ذات منعة وشَوكة لم تضمن؛ إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله فإنّه كان يُفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت. وأما قبل التجمّع والتجنّد أو حين تتفرّق عند وضع الحرب أوزارها، فما جنته ضمنته عند الجميع. فحَمْلُ الإصلاح بالعدل في قوله ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهما بِالعدلِ﴾ على مذهب محمد واضحٌ منطبق على لفظ التنزيل. وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة الباغية قليلة العدد. والذي ذكروا أن الغرض إماتة لضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات، ليس بحسن الطباق المأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط. قال الزمخشري: فإن قلت: لم قُرن بالإصلاح الثاني العدلُ دون الأوّل؟ قلت: لأن المراد بالاقتتال في أوّل الآية أن يقتتلا باغيتين أو راكبتي شبهة، وأيتهما كانت

(١) تذفيف الجريح: الإجهاز عليه وتحرير قتله.

فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما إصلاحُ ذات البَيْن وتسكينُ الدهماء بإراءة الحق والمواعظ الشافية ونفي الشبهة؛ إلا إذا أصرّتا فحينئذ تجب المقاتلة؛ وأما الضمان فلا يتجه. وليس كذلك إذا بغت إحداهما؛ فإن الضمان متّجه على الوجهين المذكورين.

التاسعة ـ ولو تغلّبوا على بلد فأخذوا الصدقات وأقاموا الحدود وحكموا فيهم بالأحكام، لم تُثَنّ عليهم الصدقات ولا الحدود، ولا ينقض من أحكامهم إلا ما كان خلافاً للكتاب أو السنة أو الإجماع؛ كما تنقض أحكام أهل العدل والسنة؛ قاله مُطَرّف وابن الماجِشون. وقال ابن القاسم: لا تجوز بحال. وروي عن أَصْبَغ أنه جائز. وروي عنه أيضاً أنه لا يجوز كقول ابن القاسم. وبه قال أبو حنيفة؛ لأنه عمل بغير حق ممن لا تجوز تَوْليته. فلم يجز كما لو لم يكونوا بغاة. والعمدة لنا ما قدمناه من أن الصحابة رضي الله عنهم، لما انجلت الفتنة وارتفع الخلاف بالهدنة والصلح، لم يعرضوا لأحد منهم في حكم. قال ابن العربيّ: الذي عندي أن ذلك لا يصلح؛ لأن الفتنة لما انجلت كان الإمام هو الباغي، ولم يكن هناك من يعترضه. والله أعلم.

العاشرة ـ لا يجوز أن يُنسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع بـه، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبّدنا بالكف عما شَجَر بينهم ، وألاّ نذكرهم إلا بأحسن الذكر ؛ لحرمة الصحبة ولنهي النبيّ ﷺ عن سَبّهم ، وأن الله غفر لهم ، وأخبر بالرضا عنهم. هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عـن النبيّ ﷺ أن طلحة شهيد يمشي علـى وجـه الأرض؛ فلو كان ما خرج إليه مـن الحرب عصيانا لم يكن بالقتل فيه شهيـداً . وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأ في التأويل وتقصيراً في الواجب عليه ؛ لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل في طاعة ، فوجب حمل أمرهم على ما بيناه . ومما يدل على ذلك ما قد صح وانتشر من أخبار علـيّ بأن قاتل الزبيـر في النار . وقولـه : سمعت رسول الله ﷺ يقـول : « بَشّر قاتل آبن صفية بالنار » . وإذا كان كذلك فقـد ثبت أن طلحـة والزبير

غير عاصيين ولا آثمين بالقتال؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبيّ ﷺ في طلحة: «شهيد». ولم يخبر أن قاتل الزبير في النار. وكذلك من قعد غير مخطىء في التأويل. بل صواب أراهم الله الاجتهاد. وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقَهم، وإبطالَ فضائلهم وجهادهم، وعَظيمَ غنائهم في الدِّين، رضي الله عنهم. وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُوْنَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١). وسئل بعضعم عنها أيضاً فقال: تلك دماء قد طَهّر الله منها يدي؛ فلا أخْضِب بها لساني. يعني في التحرز من الوقوع في خطأ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيباً فيه. قال ابن فُورَك: ومن أصحابنا من قال إن سبيل ما جرت بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين إخوة يوسف مع يوسف؛ ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حدّ الولاية والنبوّة؛ فكذلك الأمر فيما جرى بين الصحابة، وقال المحاسبي: فأما الدماء فقد أشكل علينا القول فيها باختلافهم. وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم فقال: قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغِبْنا وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا. قال المحاسبي: فنحن نقول كما قال الحسن؛ ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منّا، ونتبع ما اجتمعوا عليه، ونقف عندما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأياً منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل؛ إذ كانوا غير متّهمين في الدِّين، ونسأل الله التوفيق.

[١٠] ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي في الدِّين والحُرْمة لا في النسب؛ ولهذا قيل: أخوّة الدين أثبت من أخوّة النسب؛ فإن أخوّة النسب تنقطع بمخالفة الدين،

(١) آية ١٣٤ سورة البقرة.

وأخوّة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب. وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسّسُوا ولا تحسّسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخواناً[١]». وفي رواية: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابَروا ولا يَبِعْ بعضُكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً. المسلِمُ أخو المسلم لا يَظْلِمه ولا يَخْذُله ولا يَحْقِره. التقوى ها هنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحَسْبِ أمرىء من الشرِّ أن يَحْقِر أخاه المسلم. كلُّ المسلِم على المسلم حرامٌ دَمُه ومالُه وعِرْضُه» لفظ مسلم. وفي غير الصحيحين عن أبي هريرة قال النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يَظْلمه ولا يَعِيبه ولا يَخْذله ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقُتار قِدْره إلا أن يغرف له غرفة ولا يشتري لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها». ثم قال النبي ﷺ: «احفظوا ولا يَحفظ منكم إلا قليل».

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ أي بين كل مسلمين تخاصما. وقيل: بين الأوس والخزرج؛ على ما تقدّم. وقال أبو عليّ: أراد بالأخوين الطائفتين؛ لأن لفظ التثنية يرد والمراد به الكثرة؛ كقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٢]. وقال أبو عبيدة: أي أصلحوا بين كل أخوين؛ فهو آت على الجميع. وقرأ ابن سِيرين ونصر بن عاصم وأبو العالية والجَحْدَرِيّ ويعقوب «بين إخوتكم» بالتاء على الجمع. وقرأ الحسن ﴿ إخوانكم ﴾. الباقون ﴿ أخويكم﴾ بالياء على التثنية.

الثالثة ـ في هذه الآية والتي قبلها دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان. لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين. قال الحارث الأعور: سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو القدوة عن قتال أهل البغي من أهل الجَمَل وصِفِّين: أمشركون هم؟

---

(١) التحسس (بالحاء): الاستماع لحديث القوم. والتناجش: أن تزيد في ثمن سلعة ولا رغبة لك في شرائها. وقيل: هو تحريض الغير على الشراء. (٢) آية ٦٤ سورة المائدة.

قال: لا، من الشِّرك فرّوا. فقيل: أمنافقون؟ قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قيل له: فما حالهم؟ قال: إخواننا بَغَوْا علينا.

[١١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ﴾ قيل عند الله. وقيل ﴿خيراً منهم﴾ أي معتقداً وأسلم باطناً. والسُّخْرِية الاستهزاء. سَخِرت منه أسْخَر سَخَراً (بالتحريك) ومَسْخَراً وسُخْراً (بالضم). وحكى أبو زيد سَخِرت به؛ وهو أردأ اللغتين. وقال الأخفش: سَخِرْت منه وسَخِرت به، وضَحِكت منه وضَحِكت به، وهَزِئت منه وهَزِئت به؛ كلٌّ يقال. والاسم السُّخْرِية والسُّخْرِي؛ وقرىء بهما قوله تعالى: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾ وقد تقدّم[١]. وفلان سُخْرَة؛ يتسخر في العمل. يقال: خادم سخرة. ورجل سخرة أيضاً يسخر منه. وسُخَرة (بفتح الخاء) يسخر من الناس.

الثانية ـ واختلف في سبب نزولها؛ فقال ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وَقْر؛ فإذا سبقوه إلى مجلس النبيّ ﷺ أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول؛ فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبيّ ﷺ، فلما انصرف النبيّ ﷺ أخذ أصحابه مجالسهم منه؛

---

(١) آية ٣٢ سورة الزخرف. راجع ص ٨٣ من هذا الجزء. و ١٢/ ١٥٤ و ١٥/ ٢٢٥.

فَرَفَض كل رجل منهم بمجلسه، وعَضُّوا[١] فيه فلا يكاد يوسع أحد لأحد حتى يظل الرجل لا يجد مجلساً فيظل قائماً؛ فلما انصرف ثابت من الصلاة تخطى رقاب الناس ويقول: تفسّحوا تفسحوا، ففسحوا له حتى انتهى إلى النبيّ ﷺ وبينه وبينه رجل فقال له: تفسح. فقال له الرجل: قد وجدتَ مجلساً فاجلس! فجلس ثابت من خلفه مُغْضَباً، ثم قال: من هذا؟ قالوا فلان؛ فقال ثابت: ابن فلانة! يعيره بها؛ يعني أُمًّا له في الجاهلية؛ فاستحيا الرجل، فنزلت. وقال الضحاك: نزلت في وفد بني تميم الذي تقدّم ذكرهم في أوّل السورة آستهزءوا بفقراء الصحابة؛ مثل عَمّار وخَبّاب وابن فُهيرة وبِلال وصُهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم؛ لما رأوا من رثاثة حالهم فنزلت في الذين آمنوا منهم. وقال مجاهد: هو سخرية الغني من الفقير. وقال ابن زيد: لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله؛ فلعل إظهار ذنوبه في الدنيا خير له في الآخرة. وقيل: نزلت في عِكْرمة بن أبي جهل حين قدم المدينة مسلماً؛ وكان المسلمون إذا رأوه قالوا ابن فرعون هذه الأمة. فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت. وبالجملة فينبغي ألا يجترىء أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رَثّ الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبيق[٢] في محادثته؛ فلعله أخلص ضميراً وأنقى قلباً ممن هو على ضدّ صفته؛ فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله، والاستهزاء بمن عظمه الله. ولقد بلغ بالسّلف إفراط توقيهم وتصوّنهم من ذلك أن قال عمرو بن شَرَحْبِيل: لو رأيت رجلاً يرضع عنزاً فضحكت منه لخشيت أصنع مثل الذي صنع. وعن عبد الله بن مسعود: البلاء مُوَكّل بالقول؛ لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلباً. و ﴿قوم﴾ في اللغة للمذكّرين خاصة. قال زهير:

وما أدري وسوف إخال أدري ... أقــوم آل حِصْــن أم نســاء

وسُمُّوا قوماً لأنهم يقومون مع داعيهم في الشدائد. وقيل: إنه جمع قائم، ثم استعمل في كل جماعة وإن لم يكونوا قائمين. وقد يدخل في القوم النساء مجازاً، وقد مضى في ﴿البقرة﴾[٣] بيانه.

---

(١) عض فلان الشيء: لزمه واستمسك به.

(٢) رجل لبق ولبيق: حاذق رفيق بكل عمل.

(٣) راجع ١/ ٤٠٠ طبعة ثانية أو ثالثة.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِساءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾ أفرد النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾[١] فشمل الجميع. قال المفسرون: نزلت في امرأتين من أزواج النبيّ ﷺ سَخِرتا من أمّ سلمة، وذلك أنها ربطت خَصْرَيْها بسَبِيبة ـ وهو ثوب أبيض، ومثلها السِّبّ ـ وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرّها؛ فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما: انظري! ما تجرّ خلفها كأنه لسان كلب. فهذه كانت سخريتهما. وقال أنس وابن زيد: نزلت في نساء النبيّ ﷺ، عَيّرن أمّ سَلمة بالقِصَر. وقيل: نزلت في عائشة، أشارت بيدها إلى أم سلمة، يا نبيّ الله إنها لقصيرة. وقال عكرمة عن ابن عباس: إن صفية بنت حُيَيّ بن أخْطب أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن النساء يُعَيِّرْنَنِي، ويقلن لي يا يهودية بنت يهوديّين! فقال رسول الله ﷺ: «هَلاّ قلت إن أبي هارون وإن عمي موسى وإن زوجي محمد». فأنزل الله هذه الآية.

الرابعة ـ في «صحيح الترمذي» عن عائشة قالت: حَكَيت للنبيّ ﷺ رجلاً[٢]؛ فقال: «ما يسرني أني حَكَيت رجلاً وأن لي كذا وكذا». قالت فقلت: يا رسول الله، إن صفية امرأة ـ وقالت بيدها[٣] ـ هكذا؛ يعني أنها قصيرة. فقال: «لقد مزجت بكلمةٍ لو مُزِج بها البحر لمزج». وفي البُخاريّ عن عبد الله بن زَمْعة قال: نهى النبيّ ﷺ أن يضحك الرجل مما يخرج من الأَنْفس. وقال: «لِمَ يضربُ أحدكم امرأته ضَرْبَ الفَحْل ثم لعله يعانقها». وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صُوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وهذاحديث عظيم يترتب عليه ألا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة؛ فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وَصْفاً مذموماً لا تصح

---

(١) أول سورة نوح.

(٢) حكيت فلاناً وحاكيته: فعلت مثل فعله.

(٣) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان على المجاز والاتساع.

معه تلك الأعمال. ولعل من رأينا عليه تفريطاً أو معصيةً يعلم الله من قلبه وَصْفاً محموداً يغفر له بسببه. فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية. ويترتب عليها عدم الغلوّ في تعظيم من رأينا عليه أفعالاً صالحة، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالاً سيئة. بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة، لا تلك الذات المسيئة. فتدبر هذا، فإنه نظر دقيق، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ اللَّمْزُ: العَيْب؛ وقد مضى في ﴿براءة﴾ عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾[١]. وقال الطبري: اللَّمْزُ باليد والعين واللسان والإشارة. والْهَمْزُ لا يكون إلا باللسان. وهذه الآية مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[٢] أي لا يقتل بعضكم بعضاً؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، فكأنه بقتل أخيه قاتلُ نفسه. وكقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾[٣] يعني يسلّم بعضكم على بعض. والمعنى: لا يَعِبْ بعضكم بعضاً. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير: لا يَطْعَن بعضكم على بعض. وقال الضحاك: لا يَلْعَن بعضكم بعضاً. وقرىء: ﴿ولا تَلْمُزُوا﴾ بالضم. وفي قوله ﴿أنفسكم﴾ تنبيه على أن العاقل لا يعيب نفسه، فلا ينبغي أن يعيب غيره لأنه كنفسه؛ قال ﷺ: «المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعَى له سائرُ الجسد بالسَّهَر والحُمَّى». وقال بكر بن عبد الله المزني: إذا أردت أن تنظر العيوب جَمَّةً فتأمّل عَيّاباً؛ فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب. وقال ﷺ: «يبصر أحدُكم القَذاة[٤] في عَيْن أخيه ويدع الجِذع في عينه». وقيل: من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره. قال الشاعر:

المـرء إن كـان عـاقـلاً وَرِعـاً ... أشْغَلَـه عـن عيـوبـه وَرَعُـهْ
كمـا السقيـم المـريـض يشغلـه ... عـن وجـع النـاس كلهـم وجعـه

(١) راجع ٨/١٦٦. (٢) آية ٢٩ سورة النساء. (٣) آية ٦١ سورة النور.
(٤) القذاة: هو ما يقع في العين والماء والتراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك.

وقال آخر:

لا تكشفن[١] مساوي الناسِ ما ستروا ... فيهتك الله ستراً عن مَساوِيكَا
وٱذكر محاسن ما فيهم إذا ذُكروا ... ولا تعب أحداً منهم بما فيكا

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ النَّبَزُ (بالتحريك) اللقب؛ والجمع الأنباز. والنبز (بالتسكين) المصدر؛ تقول: نَبَزَه يَنْبِزُه نَبْزاً؛ أي لَقّبه. وفلان يُنَبِّزُ بالصبيان أي يلقبهم؛ شُدد للكثرة. ويقال النَّبَزُ والنَّزَب لَقَبُ السوء. وتنابزوا بالألقاب: أي لَقّب بعضُهم بعضاً. وفي الترمذي عن أبي جُبيرة بن الضحاك قال: كان الرجل منا يكون له الاسمين والثلاثة فيُدعَى ببعضها فعسى أن يكره؛ فنزلت هذه الآية ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾. قال: هذا حديث حسن. وأبو جُبيرة هذا هو أخو ثابت بن الضحاك بن خليفة الأنصاري. وأبو زيد[٢] سعيدُ بن الربيع صاحب الهَرَوِيّ ثِقة. وفي مُصَنّف أبي داود عنه قال: فينا نزلت هذه الآية، في بني سلمة ﴿ولا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ قال: قَدِم رسول الله ﷺ وليس منا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة؛ فجعل رسول الله ﷺ يقول يا فلان فيقولون مَهْ يا رسول الله، إنه يغضب من هذا الاسم؛ فنزلت هذه الآية ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾. فهذا قول. وقولٌ ثانٍ ـ قال الحسن ومجاهد: كان الرجل يُعَيَّر بعد إسلامه بكفره يا يهوديّ يا نصراني؛ فنزلت. وروي عن قَتادة وأبي العالية وعِكْرمة. وقال قتادة: هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق. وقاله مجاهد والحسن أيضاً. ﴿بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ﴾ أي بئس أن يُسَمَّى الرجلُ كافراً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته؛ قاله ابن زيد. وقيل: المعنى أن مَن لَقّب أخاه أو سخِر منه فهو فاسق. وفي «الصحيح» «من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه». فمن فعل ما نهى الله عنه من السُّخرية والهَمْز والنّبز فذلك فسوق، وذلك لا يجوز. وقد روي أن أبا ذَرّ رضي الله عنه كان عند النبيّ ﷺ فنازعه

---

(١) في أدب الدنيا والدين: «لا تلمس من مساوي».
(٢) أبو زيد من رجال سند هذا الحديث.

رجل فقال له أبو ذرٍّ: يابن اليهودية! فقال النبيّ ﷺ: «ما ترى هاهنا أحمر وأسود ما أنت بأفضل منه» يعني بالتقوى، ونزلت ﴿ولا تَنَابَزُوا بِالألقابِ﴾. وقال ابن عباس: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب؛ فنهى الله أن يُعَيَّر بما سلف. يدلّ عليه ما روي أن النبيّ ﷺ قال: «من عَيَّر مؤمناً بذنب تاب منه كان حَقًّا على الله أن يَبْتَلِيه به ويَفْضَحَه فيه في الدنيا والآخرة».

الثالثة ـ وقع من ذلك مستثنًى من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب ولم يكن له فيه كسب يجد في نفسه منه عليه، فجوّزته الأمة وٱتفق على قوله أهل المِلّة. قال ابن العربيّ: وقد ورد لَعَمْرُ الله من ذلك في كتبهم ما لا أرضاه في صالح[1] جَزَرة؛ لأنه صَحّف «خرزة» فلُقّب بها. وكذلك قولهم في محمد بن سليمان الحضرمي: مُطَيَّن؛ لأنه وقع في طين. ونحو ذلك مما غلب على المتأخرين، ولا أراه سائغاً في الدِّين. وقد كان موسى بن عُلَيّ بن رَباح المصريّ يقول: لا أجعل أحداً صغّر ٱسم أبي [في حلّ]، وكان الغالب على اسمه التصغير بضم العين، والذي يضبط هذا كُلَّه؛ أن كلّ ما يكرهه الإنسان إذا نودي به فلا يجوز لأجل الإذاية. والله أعلم.

قلت ـ وعلى هذا المعنى ترجم البخاريّ رحمه الله في «كتاب الأدب» من الجامع الصحيح. في «باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير لا يراد به شَيْن الرجل» قال: وقال النبيّ ﷺ: «ما يقول ذو اليَدَيْن» قال أبو عبد الله بن خُوَيْزِ مَنْداد: تضمنت الآية المنع من تلقيب الإنسان بما يكره، ويجوز تلقيبه بما يحب؛ ألا ترى أن النبيّ ﷺ لَقّب عمر بالفاروق، وأبا بكر بالصدّيق، وعثمان بذي النُّورين، وخزيمة بذي الشهادتين، وأبا هريرة بذي الشّمالين وبذي اليدين؛ في أشباه ذلك.

---

(١) هو صالح بن محمد بن عمرو بن حبيب أبو علي البغدادي الحافظ. روى الخطيب البغدادي بسنده... سمعت صالحاً ـ يعني جزرة ـ يقول: قدم علينا بعض الشيوخ من الشام؛ فقرأت أنا عليه: حدثكم جرير بن عثمان قال: كان لأبي أمامة خرزة يرقي بها المريض؛ فصحفت «الخرزة» فقلت: كان لأبي أمامة «جزرة» وإنما هي «خرزة». راجع تاريخ بغداد في المجلد التاسع ص ٣٢٢ في ترجمة صالح هذا.

الزَّمَخْشَرِيّ: «روي عن النبيّ ﷺ «من حق المؤمن على المؤمن أن يُسَمِّيَه بأحبّ أسمائه إليه». ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن؛ قال عمر رضي الله عنه: أشيعوا الكُنى فإنها منبّهة، ولقد لُقّب أبو بكر بالعتيق والصدّيق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله. وقلّ من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لَقَب. ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها ـ من العرب والعجم ـ تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير». قال الماورديّ: فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فلا يكره. وقد وصف رسولُ الله ﷺ عدداً من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجل الألقاب.

قلت ـ فأما ما يكون ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصفة لا العيب فذلك كثير. وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول: حُميد الطويل، وسليمان الأعمش، وحُميد الأعرج، ومروان الأصغر، فقال: إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به. وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن سَرْجِس قال: رأيت الأصلع ـ يعني عمر ـ يقبّل الحجر. في رواية الأُصَيْلِع.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ ﴾ أي عن هذه الألقاب الذي يتأذّى بها السامعون. ﴿ فَأولئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ لأنفسهم بارتكاب هذه المناهي.

[١٢] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

فيه عشر مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ ﴾ قيل: إنها نزلت في رجلين من أصحاب النبيّ ﷺ اغتابا رفيقهما. وذلك أنّ النبيّ

ﷺ كان إذا سافر ضم الرجلَ المحتاج إلى الرجلين الموسِرَيْن فيخدمهما. فضم سلمان إلى رجلين، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ولم يهيىء لهما شيئاً، فجاءا فلم يجدا طعاماً وإداماً، فقالا له: انطلق فاطلب لنا من النبي ﷺ طعاماً وإداماً؛ فذهب فقال له النبيّ ﷺ: «اذهب إلى أسامة بن زيد فقل له إن كان عندك فضل من طعام فليعطك» وكان أسامة خازن النبيّ ﷺ، فذهب إليه، فقال أسامة: ما عندي شيء؛ فرجع إليهما فأخبرهما؛ فقالا: قد كان عنده ولكنه بخل. ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً؛ فقالا: لو بعثنا سلمان إلى بئر سُمَيحة[1] لغار ماؤها. ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شيء؛ فرآهما النبيّ ﷺ فقال: «ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما» فقالا: يا نبي الله، والله ما أكلنا في يومنا هذا لحماً ولا غيره. فقال: «ولكنكما ظلتما تأكلان لحم سلمان وأسامة» فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ ذكره الثعلبيّ. أي لا تظنوا بأهل الخير سوءاً إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير.

الثانية ـ ثبت في «الصحيحين عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظنّ أكذب الحديث ولا تحسّسوا ولا تجسسوا ولا تَناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً» لفظ البخاري. قال علماؤنا: فالظن هنا وفي الآية هو التُّهمَة. ومحل التحذير والنهي إنما هو تُهَمَة لا سبب لها يوجبها؛ كمن يُتّهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلاً ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك. ودليل كون الظن هنا بمعنى التُّهمَة قوله تعالى: ﴿ولا تجسسوا﴾ وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه، ويتبصّر ويستمع لتحقق ما وقع له من تلك التهمة. فنهى النبيّ ﷺ عن ذلك. وإن شئت قلت: والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراماً واجب الاجتناب.

---

(١) بئر قديمة بالمدينة غزيرة الماء.

وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأُونست منه الأمانة في الظاهر، فظَنُّ الفساد به والخيانة محرم؛ بخلاف من ٱشتهره الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث. وعن النبيّ ﷺ «أن الله حَرّم من المسلم دَمَه وعِرْضَه وأن يُظَن به ظنّ السوء». وعن الحسن: كنا في زمنِ الظنُّ بالناس فيه حرام، وأنت اليوم في زمن اعمل وٱسكُتْ وظُنّ في الناس ما شئت.

الثالثة ـ للظن حالتان: حالة تعرف وتَقْوَى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن؛ كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قِيَم المتلفات وأروش الجنايات. **والحالة الثانية** ـ أن يقع في النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده، فهذا هو الشك، فلا يجوز الحكم به، وهو المنهيُّ عنه على ما قررناه آنفاً. وقد أنكرت جماعة من المبتدِعة تعبد الله بالظن وجواز العمل به؛ تحكّماً في الدين ودعوى في المعقول. وليس في ذلك أصل يعوّل عليه؛ فإن الباريء تعالى لم يذمّ جميعه، وإنما أورد الذمّ في بعضه. وربما تعلّقوا بحديث أبي هريرة «إياكم والظن» فإن هذا لا حجة فيه؛ لأن الظن في الشريعة قسمان: محمود ومذموم؛ فالمحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه. والمذموم ضدّه؛ بدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وقوله: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً﴾[١]، وقوله: ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾[٢] وقال النبيّ ﷺ: «إذا كان أحدكم مادحاً أخاه فليقل أحسب كذا ولا أزكّي على الله أحداً». وقال: «إذا ظننت فلا تَحقّق وإذا حسدت فلا تبغ وإذا تطيّرت فٱمض» خرّجه أبو داود. وأكثر العلماء على أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج في الظن القبيح بمن ظاهره القبح؛ قاله المَهْدَوِيّ.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾ وقرأ أبو رجاء والحسن بٱختلاف وغيرهما ﴿ولا تحسسوا﴾ بالحاء. واختلِف هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين؛ فقال الأخفش: ليس

---

(١) آية ١٢ سورة النور.

(٢) آية ١٢ سورة الفتح.

تبعد إحداهما من الأخرى؛ لأن التجسّس البحثُ عما يُكتم عنك. والتحسس (بالحاء) طلب الأخبار والبحث عنها. وقيل: إن التجسس (بالجيم) هو البحث؛ ومنه قيل: رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور. وبالحاء: هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه. وقولٌ ثانٍ في الفرق: أنه بالحاء تطلّبه لنفسه، وبالجيم أن يكون رسولاً لغيره؛ قاله ثعلب. والأوّل أعرف. جَسَست الأخبار وتجسّستها أي تفحّصْت عنها؛ ومنه الجاسوس. ومعنى الآية: خذوا ما ظهر ولا تَتَّبعوا عورات المسلمين؛ أي لا يبحث أحدكم عن عَيب أخيه حتى يطّلع عليه بعد أن ستره الله. وفي كتاب أبي داود عن معاوية قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن ٱتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم» فقال أبو الدرداء: كلمةٌ سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها. وعن المِقدام بن مَعْدِي كَرِب عن أبي أُمامة عن النبيّ ﷺ قال: «إن الأمير إذا ٱبتغى الريبة في الناس أفسدهم». وعن زيد بن وهب قال : أُتِيَ ابن مسعود فقيل: هذا فلان تقطر لحيته خمراً . فقال عبد الله : إنا قد نُهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به . وعن أبي بَرْزة الأسلمي قال قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم. فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يَفْضَحه في بيته ». وقال عبد الرحمن بن عَوْف : حَرَست ليلةً مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة إذ تبيّن لنا سراج في بيت بابُه مُجافٍ على قوم لهم أصوات مرتفعة ولَغَط ؛ فقال عمر : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف ، وهم الآن شُرّب فما ترى !؟ قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال الله تعالى: ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وقد تجسسنا؛ فانصرف عمر وتركهم . وقال أبو قِلابة : حُدِّث عمر بن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثَّقَفِي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته ؛ فانطلق عمر حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلا رجل ؛ فقال أبو مِحْجن : إن هذا لا يحلّ لك ! قد نهاك الله عن التجسس؛ فخرج عمر وتركه. وقال زيد بن أسلم: خرج عمر وعبد الرحمن يَعُسّان،

إذ تبيّنت لهما نار فاستأذنا ففتح الباب؛ فإذا رجل وامرأة تغنّي وعلى يد الرجل قدح؛ فقال عمر: وأنت بهذا يا فلان؟ فقال: وأنت بهذا يا أمير المؤمنين! قال عمر؛ فمن هذه منك؟ قال امرأتي؛ قال فما في هذا القدح؟ قال ماء زُلال؛ فقال للمرأة: وما الذي تُغَنّين؟ فقالت:

تطاول هذا الليل وٱسْودّ جانِبُه ... وأرّقنـي أن لا خليـلَ أُلاَعِبُـهْ

فـوالله لـولا اللّـهُ أنـي أراقبـه ... لزُعْزِع من هذا السرير جوانبه

ولكـنّ عقلـي والحيـاء يَكُفُّنِـي ... وأُكْـرِم بَعْلِـي أنْ تُنـال مَـرَاكِبُـهْ

ثـم قـال الـرجـل: مـا بهـذا أُمِـرْنـا يـا أميـر المـؤمنيـن! قـال الله تعـالـى: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾. قال صدقت.

قلت: لا يفهم من هذا الخبر أن المرأة كانت غير زوجة الرجل؛ لأن عمر لا يقرّ على الزنى، وإنما غنّت بتلك الأبيات تذكاراً لزوجها، وأنها قالتها في مَغِيبه عنها[1]. والله أعلم. وقال عمرو بن دينار: كان رجل من أهل المدينة له أخت فاشتكت، فكان يعودها فماتت فدفنها. فكان هو الذي نزل في قبرها، فسقط من كُمه كيس فيه دنانير، فاستعان ببعض أهله فنبشوا قبرها فأخذ الكيس ثم قال: لأكشفنّ حتى أنظر ما آل حال أختي إليه؛ فكشف عنها فإذا القبر مشتعل ناراً، فجاء إلى أمه فقال: أخبريني ما كان عمل أختي؟ فقالت: قد ماتت أختك فما سؤالك عن عملها! فلم يزل بها حتى قالت له: كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها، وكانت إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم فألقمت أذنها أبوابَهم، فَتَجَسّس عليهم وتُخرج أسرارهم؛ فقال: بهذا هلكت!

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَغْتَبْ بعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ نهى عز وجل عن الغِيبة، وهي أن تذكر الرجل بما فيه، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان. ثبت معناه في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغِيبة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟

---

(١) راجع هذه القصة في ٣/١٠٨ من هذا الكتاب.

قال: «إن كان فيه ما تقول فقد أغتبته وإن لم يكن فيه فقد بَهَتّه». يقال: اغتابه أغتيابا إذا وقع فيه؛ والاسم الغِيبة، وهي ذكر العَيْب بظهر الغَيْب[1]. قال الحسن: الغِيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى: الغِيبة والإفك والبهتان. فأما الغِيبة فهو أن تقول في أخيك ما هو فيه. وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه. وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه. وعن شعبة قال قال لي معاوية ـ يعني ابن قُرّة ـ: لو مَرّ بك رجل أقطع؛ فقلت هذا أقطع كان غِيبة. قال شعبة: فذكرته لأبي إسحاق فقال صدق. وروى أبو هريرة أن الأسلمي ماعزاً جاء إلى النبيّ ﷺ فشهد على نفسه بالزنى فرجمه رسول الله ﷺ. فسمع نبيّ الله ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجِم رَجْمَ الكلب؛ فسكت عنهما. ثم سار ساعة حتى مرّ بجِيفة حمار شائل برجله فقال: «أين فلان وفلان»؟ فقالا: نحن ذا يا رسول الله؛ قال «انزلا فكُلاَ من جِيفة هذا الحمار» فقالا: يا نبيّ الله ومن يأكل من هذا! قال: «فما نلتما من عرض أخيكما أشدّ من الأكل منه والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها».

السادسة ـ قولـه تعالى: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ مَثّل الله الغِيبة بأكل الميتـة؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحي لا يعلم بغِيبة من أغتابـه. وقال ابن عباس: إنما ضرب الله هذا المثل للغِيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر، وكذا الغِيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس. وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً كذلك يجب أن يمتنع من غِيبته حيًّا. واستعمِل أكل اللحم مكان الغِيبة لأن عادة العرب بذلك جارية. قال الشاعر:

فإن أكلوا لحمي وفَرت لحومهم وإن هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لهم مَجْدا[2]

(١) الظهر ما غاب عنك.

(٢) البيت للمقنع الكندي، واسمه محمد بن عميرة.

﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي ما اشتهوا. وهذا التزيين من جهة الله خلقاً. ويجوز أن يكون من الشيطان دعاء ووسوسة. ويجوز أن يكون من الكافر؛ أي زيّن لنفسه سوء عمله وأصرّ على الكفر. وقال ﴿سُوء﴾ على لفظ ﴿مَن﴾ ﴿واتبعوا﴾ على معناه.

[١٥] ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ لما قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ وصف تلك الجنات؛ أي صفة الجنة المعدّة للمتقين. وقد مضى الكلام في هذا في ﴿الرعد﴾[١]. وقرأ عليّ بن أبي طالب ﴿مِثال الجنةِ التي وعِد المتقون﴾. ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي غير متغيّر الرائحة. والآسِن من الماء مثلُ الآجِن. وقد أسَن الماء يأسُن ويأسِن [أسْناً و] أُسُونا إذا تغيّرت رائحته. وكذلك أجَن الماء يأجُن ويأجِن أجْناً وأُجُوناً. ويقال بالكسر فيهما: أجِن وأسِن يأسَن ويأجَن أسْناً وأجْناً؛ قاله اليزيدي. وأسِن الرجل أيضاً يأسَن (بالكسر لا غير)[٢] إذا دخل البئر فأصابته ريح منتِنة من ريح البئر أو غير ذلك فغُشِي عليه أو دار رأسُه. قال زُهير:

قد أترك[٣] القِرن مُصْفَرًّا أنامله   يَميد في الرُّمح مَيد المائح الأسِنِ

ويروى ﴿الوسن﴾. وتأسّن الماء تغيّر. أبو زيد: تأسّن عليّ تأسُّنا اعتلّ وأبطأ. أبو عمرو: تأسّن الرجل أباه أخذ أخلاقه. وقال اللّحياني: إذا نزع إليه في الشبه. وقراءة العامة ﴿آسن﴾ بالمدّ. وقرأ ابن كثير وحُميد ﴿أسن﴾ بالقصر، وهما لغتان؛ مثل حاذر وحذر. وقال الأخفش: أسن للحال، وآسن (مثل فاعل) يراد به الاستقبال. ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ

---

(١) راجع ٩/٣٢٤.
(٢) أي في الماضي.
(٣) وفيه رواية أخرى: «يغادر القرن».

السابعة ـ ذهب قوم إلى أن الغِيبة لا تكون إلا في الدين ولا تكون في الخِلقة والحسب. وقالوا: ذلك فعل الله به. وذهب آخرون إلى عكس هذا فقالوا: لا تكون الغِيبة إلا في الخَلْق والخُلُق والحسب. والغِيبة في الخَلْق أشدّ؛ لأن من عَيّب صنعة فإنما عيّب صانعها. وهذا كله مردود. أما الأوّل فيردّه حديث عائشة حين قالت في صفية: إنها امرأة قصيرة؛ فقال لها النبيّ ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مُزج بها البحر لمزجته». خرجه أبو داود. وقال فيه الترمذي: حديث حسن صحيح، وما كان في معناه حسب ما تقدّم. وإجماع العلماء قديماً على أن ذلك غِيبة إذا أريد به العيب. وأما الثاني فمردود أيضاً عند جميع العلماء؛ لأن العلماء من أوّل الدهر من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين بعدهم لم تكن الغيبة عندهم في شيء أعظم من الغيبة في الدين؛ لأن عيب الدين أعظم العيب؛ فكل مؤمن يكره أن يذكر في دينه أشد مما يكره في بدنه. وكفى رداً لمن قال هذا القول قولُه عليه السلام: «إذا قلت في أخيك مايكره فقد اغتبته. . . » الحديث. فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة فقد ردّ ما قال النبيّ ﷺ نصًّا. وكفى بعموم قول النبيّ ﷺ: «دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام» وذلك عام للدين والدنيا. وقول النبيّ ﷺ: «من كانت عنده لأخيه مَظْلَمَة في عِرضه أو ماله فليتحلله منه». فعمّ كل عرض؛ فمن خص من ذلك شيئاً دون شيء فقد عارض ما قال النبي ﷺ.

الثامنة ـ لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحداً عليه أن يتوب إلى الله عز وجل. وهل يستحلّ المغتاب؟ اختلف فيه؛ فقالت فرقة: ليس عليه استحلاله، وإنما هي خطيئة بينه وبين ربه. واحتجت بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه، فليس ذلك بمظْلَمَة يستحلها منه، وإنما المظلمة ما يكون منه البدل والعِوَض في المال والبدن. وقالت فرقة: هي مظلمة، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذي اغتابه. واحتجت بحديث يروى عن الحسن قال: كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته. وقالت فرقة: هي مظلمة وعليه الاستحلال منها. واحتجت بقول النبيّ ﷺ: «من كانت لأخيه عنده مَظْلِمَة في عِرْض أو مال فليتحلله منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيد على سيئاته». خرّجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

[١٦] ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ .

[١٧] ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي من هؤلاء الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، وزُين لهم سوء عملهم قوم يستمعون إليك وهم المنافقون: عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول ورفاعة بن التابوت وزيد بن الصليت(١) والحارث بن عمرو ومالك بن دُخْشم، كانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه؛ قاله الكلبي ومقاتل. وقيل: كانوا يحضرون عند رسول الله ﷺ مع المؤمنين؛ فيستمعون منه ما يقول، فيعيه المؤمن ولا يعيه الكافر. ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي إذا فارقوا مجلسك. ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قال عكرمة: هو عبد الله بن العباس. قال ابن عباس: كنت ممن يُسأل، أي كنت من الذين أوتوا العلم. وفي رواية عن ابن عباس: أنه يريد عبد الله بن مسعود. وكذا قال عبد الله بن بريدة: هو عبد الله بن مسعود. وقال القاسم بن عبد الرحمن: هو أبو الدرداء. وقال ابن زيد: إنهم الصحابة. ﴿مَاذَا قَالَ آنِفاً﴾ أي الآن؛ على جهة الاستهزاء. أي أنا لم ألتفت إلى قوله. و ﴿آنفاً﴾ يراد به الساعة التي هي أقرب الأوقات إليك؛ من قولك: استأنفت الشيء إذا ابتدأت به. ومنه أَمْرٌ أُنُف، ورَوْضة أُنف؛ أي لم يرعها أحد. وكأس أنف: إذا لم يُشرب منها شيء؛ كأنه استؤنف شربها مثل روضة أنف. قال الشاعر(٢):

ويَحْـرُم سِـرُّ جـارتهـم عليهـم ... ويـأكـل جـارهـم أنـفَ القِصـاع

---

(١) كذا في «الأصول». وفي سيرة ابن هشام وابن الأثير طبع أوروبا: «اللُّصَيت» بالتاء المثناة من فوق. وفي تاريخ الطبري (طبع أوروبا قسم أوّل ص ١٦٩٩ : «اللصيب» بالباء الموحدة.

(٢) هو الحطيئة.

سألك أن تحلله من مظلمة هي لك عنده؛ فقال: إني لم أحرمها عليه فأحلّها، إن الله حرّم الغيبة عليه، وما كنت لأحلّ ما حرّم الله عليه أبداً. وخبر النبيّ ﷺ يدل على التحليل، وهو الحجة والمبيِّن. والتحليل يدل على الرحمة وهو من وجه العفو؛ وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[1].

التاسعة ـ ليس من هذا الباب غِيبة الفاسق المعلن به المجاهر؛ فإن في الخبر «من ألقى جِلْباب الحياء فلا غِيبة له». وقال ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس». فالغيبة إذاً في المرء الذي يستر نفسه. وروي عن الحسن أنه قال: ثلاثة ليست لهم حرمة: صاحب الهوى، والفاسق المعلن، والإمام الجائر. وقال الحسن لما مات الحجاج: اللهم أنت أَمَتّه فاقطع عنا سنته ـ وفي رواية شَيْنه ـ فإنه أتانا أُخَيْفِش أُعَيْمِش، يمدّ بيد قصيرة البنان، والله ما عَرِق فيها غبار في سبيل الله، يُرَجِّلُ جُمّته ويَخْطِر في مِشْيته، ويَصْعَد المنبر فيَهْذِر حتى تفوته الصلاة. لا من الله يَتَّقِي، ولا من الناس يستحي؛ فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون، لا يقول له قائل: الصلاةَ أيها الرجل. ثم يقول الحسن: هيهات! حال دون ذلك السيف والسَّوْط. وروى الربيع بن صبيح عن الحسن قال: ليس لأهل البدع غِيبة. وكذلك قولك للقاضي تستعين به على أخذ حقك ممن ظلمك فتقول: فلان ظلمني أو غصبني أو خانني أو ضربني أو قذفني أو أساء إليّ؛ ليس بغيبة. وعلماء الأمة على ذلك مجمعة. وقال النبيّ ﷺ في ذلك: «لصاحب الحق مقال». وقال: «مَطْلُ الغنِيّ ظلم» وقال: «لَيّ الواجد[2] يُحِلّ عِرْضَه وعقُوبته». ومن ذلك الاستفتاء؛ كقول هند للنبيّ ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، فآخذ من غير علمه؟ فقال النبيّ ﷺ: «نعم فخذي». فذكرته بالشُّح والظلم لها ولولدها، ولم يرها مغتابة؛ لأنه لم يغيّر عليها، بل أجابها عليه الصلاة والسلام بالفُتْيَا لها. وكذلك إذا كان في ذكره بالسوء فائدة؛ كقوله ﷺ:

---

(١) آية ٤٠ سورة الشورى.

(٢) الواجد: القادر على قضاء دينه.

«أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو جهم[(١)] فلا يضع عصاه عن عاتقه». فهذا جائز، وكان مقصوده ألا تغتر فاطمة بنت قيس[(٢)] بهما. قال جميعه المحاسبي رحمه الله.

العاشرة - قوله تعالى: ﴿مَيْتاً﴾ وقرىء ﴿ميّتاً﴾ وهو نصب على الحال من اللحم. ويجوز أن ينصب على الأخ، ولما قررهم عز وجل بأن أحداً منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عَقّب ذلك بقوله تعالى: ﴿فكَرِهْتُمُوهُ﴾. وفيه وجهان: **أحدهما** - فكرهتم أكل الميتة فكذلك فاكرهوا الغِيبة؛ رُوي معناه عن مجاهد. **الثاني** - فكرهتم أن يغتابكم الناس فاكرهوا غيبة الناس. وقال الفراء: أي فقد كرهتموه فلا تفعلوه. وقيل: لفظه خبر ومعناه أمر؛ أي اكرهوه. ﴿وَاتقُوا اللَّهَ﴾ عطف عليه. وقيل: عطف على قوله: ﴿اجتنبوا. ولا تجسسوا﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

[١٣] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ يعني آدم وحواء. ونزلت الآية في أبي هند؛ ذكره أبو داود في (المراسيل)؛ حدّثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا حدّثنا بقيّة بن الوليد قال حدثني الزهري قال: أمر رسول الله ﷺ بني بَياضة أن يزوّجوا أبا هند امرأة منهم؛ فقالوا لرسول الله ﷺ: نزوّج

---

(١) هو ابن حذيفة بن غانم القرشي. وقوله: «لا يضع عصاه» أي أنه ضراب للنساء. وقيل: هو كناية عن كثرة أسفاره؛ لأن المسافر يحمل عصاه في سفره.

(٢) هي أخت الضحاك بن قيس، كانت من المهاجرات الأول، وكانت ذات جمال وعقل وكمال، وكانت عند أبي عمرو بن حفص بن المغيرة فطلقها فخطبها معاوية وأبو جهم، فاستشارت النبيّ ﷺ فيهما فأشار عليها بأسامة بن زيد فتزوجته.

بناتِنا موالينا؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً﴾ الآية. قال الزهري: نزلت في أبي هند خاصّة. وقيل: إنها نزلت في ثابت بن قيس بن شَمّاس. وقوله في الرجل الذي لم يتفسح له: ٱبن فلانة؛ فقال النبيّ ﷺ: «من الذاكر فلانة»؟ قال ثابت: أنا يا رسول الله؛ فقال النبي ﷺ: «انظر في وجوه القوم» فنظر؛ فقال: «ما رأيت»؟ قال: رأيت أبيض وأسود وأحمر؛ فقال: «فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى» فنزلت في ثابت هذه الآية. ونزلت في الرجل الذي لم يتفسح له: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾[1] الآية. قال ٱبن عباس: لما كان يوم فتح مكة أمر النبي ﷺ بلالاً حتى علا على ظهر الكعبة فأذّن؛ فقال عَتّاب بن أَسِيد بن أبي العِيص: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم. وقال الحارث بن هشام: ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً. وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيّره. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء؛ فأتى جبريل النبي ﷺ وأخبره بما قالوا؛ فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية. زجرهم عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء؛ فإن المدار على التقوى. أي الجميع من آدم وحواء، إنما الفضل بالتقوى. وفي الترمذي عن ٱبن عمر أن رسول الله ﷺ خطب بمكة فقال: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عَيْبَة الجاهلية وتعاظمها بآبائها. فالناس رجلان: رجل بَرّ تَقِيّ كريم على الله، وفاجر شقيّ هيّن على الله. والناس بنو آدم وخَلَق الله آدم من تراب قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾». خرّجه من حديث عبد الله بن جعفر والد علي بن المديني وهو ضعيف، ضعفه يحيى بن مَعِين وغيره. وقد خرّج الطبري في كتاب «آداب النفوس» وحدّثني يعقوب بن إبراهيم قال حدّثنا إسماعيل قال حدّثنا سعيد الجُرَيري عن أبي نضرة قال: حدّثني أو حدّثنا من

(١) آية ١١ سورة المجادلة.

شهد خطب رسول الله ﷺ بمنًى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألاَ لا فضل لعربيّ على عجميّ ولا عجمي على عربيّ ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بَلّغت؟ قالوا نعم؛ قال ـ ليبلّغ الشاهدُ الغائب». وفيه عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم». ولعليّ رضي الله عنه في هذا المعنى وهو مشهور من شعره:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهمُ آدمُ والأمّ حواء
نفسٌ كنفس وأرواحٌ مشاكلة ... وأعظمٌ خُلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهُم من أصلهم حسبٌ ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهُدَى لمن استَهْدَى أدِلاّء
وقَدْرُ كلِّ امرىء ما كان يحسنه ... وللرجال على الأفعال سيماء
وضد كل امرىء ما كان يجهله ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

الثانية ـ بيّن الله تعالى في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذّكر والأنثى، وكذلك في أوّل سورة ﴿النساء﴾[1]. ولو شاء لخلقه دونهما كخلقه لآدم، أو دون ذَكَر كخلقه لعيسى عليه السلام، أو دون أنثى كخلقه حواء من إحدى الجهتين. وهذا الجائز في القدرة لم يرد به الوجود. وقد جاء أن آدم خلق الله منه حوّاء من ضلع انتزعها من أضلاعه؛ فلعله هذا القسم؛ قاله ٱبن العربي.

الثالثة ـ خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنساباً وأصهاراً وقبائل وشعوباً، وخلق لهم منها التعارف، وجعل لهم بها التواصل للحكمة التي قدّرها وهو أعلم بها؛ فصار كل أحد يحوز نسبه؛ فإذا نفاه رجل عنه ٱستوجب الحدّ بقذفه؛ مثل أن ينفيه عن رهطه وحسبه،

(١) راجع ١/٥ وما بعدها.

بقوله للعربي: يا عجمي، وللعجمي: يا عربي؛ ونحو ذلك مما يقع به النفي حقيقة. انتهى.

الرابعة ـ ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده، ويتربى في رحم الأم، ويستمد من الدم الذي يكون فيه. واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاء مَهِينٍ ﴾[٢]. وقوله: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾[٣]. فدلّ على أن الخلق من ماء واحد. والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية؛ فإنها نص لا يحتمل التأويل. وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَاء دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾[٤] والمراد منه أصلاب الرجال وترائب النساء؛ على ما يأتي بيانه. وأما ما احتجوا به فليس فيه أكثر من أن الله تعالى ذكر خَلْق الإنسان من الماء والسُّلالةِ والنطفةِ ولم يضفها إلى أحد الأبوين دون الآخر. فدل على أن الماء والسلالة لهما والنطفة منهما بدلالة ما ذكرنا. وبأن المرأة تمني كما يمني الرجل، وعن ذلك يكون الشبه؛ حسب ما تقدّم بيانه في آخر ﴿الشورى﴾[٥]. وقد قال في قصة نوح ﴿فَٱلْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[٦] وإنما أراد ماء السماء وماء الأرض؛ لأن الالتقاء لا يكون إلا من اثنين، فلا ينكر أن يكون ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاء مَهِينٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ ويريد ماءين. والله أعلم.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ الشعوب رؤوس القبائل؛ مثل ربيعة ومُضَر والأوْس والخَزْرَج؛ واحدها ﴿شَعْب﴾ بفتح الشين؛ سُمُّوا به

---

(١) آية ٢٠، ٢١ سورة المرسلات.
(٢) آية ٨ سورة السجدة.
(٣) آية ٣٧ سورة القيامة.
(٤) آية ٦، ٧ سورة الطارق.
(٥) راجع ص ٥٠ من هذا الجزء.
(٦) آية ١٢ سورة القمر.

لتشعّبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة. والشَّعْب من الأضداد؛ يقال شعبته إذا جمعته؛ ومنه المِشْعَب (بكسر الميم)، وهو الإشْفَى؛ لأنه يجمع به ويشعب. قال:

فكَابٍ على حُرّ الجبين ومُتّقٍ ... بمَدْرِيَةٍ كأنه ذَلْقُ مِشْعَبِ[١]

وشَعَبته إذا فرّقته؛ ومنه سميت المنية شَعُوباً لأنها مفرّقة. فأما الشِّعب (بالكسر) فهو الطريق في الجبل؛ والجمع الشعاب. قال الجوهري: الشَّعب: ما تشعب من قبائل العرب والعجم؛ والجمع الشعوب. والشُّعُوبية: فرقة لا تفضّل العرب على العجم. وأما الذي في الحديث أن رجلاً من الشعوب أسلم[٢]؛ فإنه يعني من العجم. والشَّعْب: القبيلة العظيمة، وهو أبو القبائل الذي ينسبون إليه؛ أي يجمعهم ويضمهم. قال ابن عباس: الشعوب الجمهور[٣]؛ مثل مضر. والقبائل الأفخاذ. وقال مجاهد: الشعوب البعيد من النسب؛ والقبائل دون ذلك. وعنه أيضاً أن الشعوب النسب الأقرب. وقاله قتادة. ذكر الأوّل عنه المَهْدَوِيّ، والثاني الماوردي. قال الشاعر[٤]:

رأيت سعوداً من شعوب كثيرة ... فلم أرَ سعداً مثل سعدِ بن مالك

وقال آخر:

قبائل من شعوب ليس فيهم ... كريم قد يعدّ ولا نجيب

وقيل: إن الشعوب عَرَب اليمن من قَحْطان، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان. وقيل: إن الشعوب بطون العجم، والقبائل بطون العرب. وقال ابن عباس في رواية: إن الشعوب الموالي، والقبائل العرب. قال القُشَيْرِيّ: وعلى هذا فالشعوب من لا يعرف لهم أصل نسب كالهند والجبل[٥] والترك؛ والقبائل من العرب. الماوردي: ويحتمل أن

---

(١) قوله: «فكاب على حر الجبين» أي خار على وجهه. و«المدرية»: القرن؛ وهي المدرى والمدراة، والجمع مدارٍ ومدارَى. و«ذلق» ذلق كل شيء: حدّه. و«مشعب» مثقب.

(٢) تمام الحديث كما في «اللسان»: «فكانت تؤخذ منه الجزية؛ فأمر عمر ألا تؤخذ منه».

(٣) هذا القول منسوب إلى ابن جبير. والمأثور عن ابن عباس أن «الشعوب الجماع» والجماع (بضم الجيم وتشديد الميم): مجتمع أصل كل شيء. أراد: منشأ النسب وأصل المولد. وقيل: أراد به الفرق المختلفة من الناس. (٤) هو طرفة بن العبد. (٥) الجبل: الأمة من الخلق والجماعة من الناس؛ وفيه لغات كثيرة. راجع ١٥/ ٤٧ من هذا التفسير.

الشعوب هم المضافون إلى النواحي والشعاب؛ والقبائل هم المشتركون في الأنساب. قال الشاعر:

وتفرّقوا شُعَباً فكل جزيرة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه: الشعب أكبر من القبيلة ثم الفصيلة ثم العِمارة ثم البطن ثم الفَخِذ. وقيل: الشعب ثم القبِيلة ثم العِمارة ثم البطن ثم الفَخِذ ثم الفَصِيلة ثم العَشيرة؛ وقد نظمها بعض الأدباء فقال:

اقصد الشَّعب فهو أكثر حَيٍّ ... عدداً في الحواء ثم القبِيلة

ثم تتلوها العِمار ثم الـ ... ـبطن والفخذ بعدها والفصيلة

ثم من بعدها العشِيرة لكن ... هي في جنب ما ذكرناه قليله

وقال آخر:

قبِيلة قبلها شَعْب وبعدهما ... عِمارة ثم بَطْنٌ تِلْوُه فَخِذُ

وليس يؤوي الفتى إلا فصيلته ... ولا سداد لِسَهْم ماله قُذَذُ[1]

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وقد تقدّم في سورة ﴿الزخرف﴾ عند قوله تعالى: ﴿وإنّهُ لَذِكْرٌ لَكَ ولِقَوْمِك﴾[2]. وفي هذه الآية ما يدلك على أن التقوى هي المراعى عند الله تعالى وعند رسوله دون الحسب والنسب. وقرىء ﴿أنّ﴾ بالفتح. كأنه قيل: لم لا يتفاخر بالأنساب؟ قيل: لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم. وفي الترمذي عن سَمُرَة عن النبيّ ﷺ قال: «الحسب المالُ والكرمُ التقوى». قال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وذلك يرجع إلى قوله تعالى: ﴿إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وقد جاء منصوصاً عنه عليه السلام: «من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله». والتقوى معناها مراعاة حدود الله تعالى أمراً ونهياً، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به، والتنزه عما نهاك عنه. وقد مضى هذا في غير موضع. وفي الخبر من رواية أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة إني جعلت نَسَباً وجعلتم

(١) القذذ (جمع قذة): ريش السهم. (٢) راجع ص ٩٣ من هذا الجزء.

نسَباً فجعلتُ أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون». وروى الطبريّ من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أوليائي المتقون يوم القيامة وإن كان نسب أقرب من نسب يأتي الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد فأقول هكذا وهكذا». وأعْرَض في كُلِّ عِطْفَيْه وفي «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ جهاراً غير سِرٍّ يقول: «إن آلَ أبِي ليسوا لي بأولياء إنما وَلِيِّ الله وصالح المؤمنين». وعن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ سئل: من أكرم الناس؟ فقال «يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» قالوا: ليس عن هذا نسألك؛ قال: فأكرمهم عند الله أتقاهم» فقالوا: ليس عن هذا نسألك؛ فقال: «عن معادن العرب؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» وأنشدوا في ذلك:

ما يصنع العبد بعزّ الغنى ... والعزُّ كلّ العِزّ للمُتّقِي

من عرف الله فلم تغنه ... معرفةُ الله فذاك الشَّقِي

السابعة ـ ذكر الطبري حدّثني عمر[(١)] بن محمد قال حدّثنا عبيد بن إسحاق العطار قال حدّثنا مندل بن علي عن ثور بن يزيد عن سالم بن أبي الجعد قال: تزوّج رجل من الأنصار آمرأة فطُعِن عليها في حسبها؛ فقال الرجل: إني لم أتزوجها لحسبها إنما تزوّجتها لدينها وخُلُقها؛ فقال النبيّ ﷺ: «ما يضرّك ألا تكون من آل حاجب بن زُرارة». ثم قال النبي ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى جاء بالإسلام فرفع به الخسيسة وأتم به الناقصة وأذهب به اللوم فلا لَوْم على مسلم إنما اللّوْم لَوْمُ الجاهلية». وقال النبيّ ﷺ: «إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي» ولذلك كان أكرمَ البشر على الله تعالى. قال آبن العربي: وهذا الذي لحظ مالك في الكفاءة في النكاح. روى عبد الله عن مالك يتزوّج المَوْلَى العربيةَ؛ واحتج بهذه الآية. وقال أبو حنيفة والشافعي:

---

(١) في بعض النسخ: «عمرو».

يراعى الحسب والمال. وفي «الصحيح» عن عائشة أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة ـ وكان ممن شهد بدراً مع النبي ﷺ ـ تبنّى سالماً وأنكحه هنداً[١] بنت أخيه الوليد بن عتبة بن ربيعة؛ وهو مولًى لامرأة من الأنصار. وضُباعة بنت الزبير كانت تحت المِقداد بن الأسود.

قلت: وأخت عبد الرحمن بن عوف كانت تحت بلال. وزينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة. فدلّ على جواز نكاح الموالي العربية؛ وإنما تراعى الكفاءة في الدِّين. والدليل عليه أيضاً ما روى سهل بن سعد في «صحيح البخاري» أن النبيّ ﷺ مَرّ عليه رجل فقال: «ما تقولون في هذا»؟ فقالوا: حَرِيٌّ إن خطب أن يُنْكَح، وإن شَفَعَ أن يُشَفَّع وإن قال أن يُسْمَع. قال: ثم سكت؛ فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: «ما تقولون في هذا» قالوا: حَرِيٌّ إن خطب ألا يُنْكَح، وإن شَفَع ألا يُشَفَّع، وإن قال ألا يُسْمع. فقال رسول الله ﷺ: « هذا خير من مِلء الأرض مثل هذا». وقال ﷺ: « تُنْكَح المرأة لمالها وجمالها ودينها ـ وفي رواية ـ ولحسبِها فعليك بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك ». وقد خطب سلمان إلى أبي بكر ابنته فأجابه ، وخطب إلى عمر ابنته فالتوَى عليه ، ثم سأله أن ينكحها فلم يفعل سلمان . وخطب بلال بنت البكير فأبى إخوتها ؛ فقال بلال : يا رسول الله، ماذا لقيت من بني البكير ! خطبت إليهم أختهم فمنعوني وآذوني ؛ فغضب رسول الله ﷺ من أجل بلال ؛ فبلغهم الخبر فأتوا أختهم فقالوا : ماذا لقينا من سببك ؟ فقالت أختهم: أمري بيد رسول الله ﷺ؛ فزوّجوها. وقال النبيّ ﷺ في أبي هند حين حجمه: «أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه». وهو مولى بني بياضة. وروى الدَّارَقُطْنِيّ من حديث الزُّهْرِيّ عن عُرْوَة عن عائشة أن أبا هند مولى بني بياضة كان حجاماً فحجم النبيّ ﷺ؛ فقال النبيّ ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى من صوّر الله الإيمان في قلبه فلينظر إلى أبي هند». وقال رسول الله ﷺ: «أنكحوه وأنكحوا إليه». وقال القشيري أبو نصر:

---

(١) وتسمى فاطمة.

وقد يعتبر النسب في الكفاءة في النكاح وهو الاتصال بشجرة النبوّة أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو بالمرموقين في الزهد والصلاح. والتقيّ المؤمن أفضل من الفاجر النسيب؛ فإن كانا تَقِيَّيْنِ فحينئذ يقدّم النسيب منهما؛ كما يقدّم الشاب على الشيخ في الصلاة إذا استويا في التقوى.

[١٤] ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

نزلت في أعراب من بني أسد بن خُزيمة قدموا على رسول الله ﷺ في سنةٍ جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السرّ. وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة؛ وجعلوا يَمُنُّون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. وقال ابن عباس: نزلت في أعراب أرادوا أن يَتَسَمَّوْا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا؛ فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين. وقال السدّي: نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح: أعراب مُزَيْنة وجُهَيْنَة وأَسْلَم وغِفَار والدِّيل وأشجع؛ قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم؛ فلما استنفروا إلى المدينة تخلّفوا؛ فنزلت. وبالجملة فالآية خاصة لبعض الأعراب؛ لأن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى. ومعنى ﴿وَلَكِنْ قُوْلُوْا أَسْلَمْنَا﴾ أي استسلمنا خوف القتل والسبي، وهذه صفة المنافقين؛ لأنهم أسلموا في ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهم؛ وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب. وأما الإسلام فقبول ما أتى به النبيّ ﷺ في الظاهر، وذلك يَحْقِن الدّم. ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني إن تخلصوا الإيمان ﴿لاَ يِلِتْكُم﴾ أي لا ينقصكم. ﴿مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ لاته يِلِيته ويَلُوته: نقصه. وقرأ أبو عمرو ﴿لا يألِتكم﴾ بالهمزة، من أَلَت يَأْلت

أَلْتاً؛ وهو اختيار أبي حاتم؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾(١) قال الشاعر:

أبلِـغْ بنـي ثُعَـلٍ عَنّـي مُغَلْغَلَـةً ... جَهْدَ الرِّسَالة لا أَلْتاً ولا كَذِبَا

واختار الأولى أبو عبيد. قال رُؤْبَة:

وليلـةٍ ذاتِ نَـدًى سَـرَيْـتُ ... ولـم يَلِتْنِـي عـن سُـرَاهـا لَيْـتُ

أي لم يمنعني عن سُراها مانع؛ وكذلك ألاته عن وجهه: فَعَل وأفْعَل بمعنًى. ويقال أيضاً: ما ألاته من عمله شيئاً؛ أي ما نقصه؛ مثل أَلَته؛ قاله الفرّاء. وأنشد:

ويأكلن ما أعْنَى الوَلِيّ فلم يَلِتْ ... كأن بحافات النِّهاء المَزَارعا(٢)

قوله: فلم ﴿يَلِتْ﴾ أي لم ينقص منه شيئاً. و ﴿أَعْنَى﴾ بمعنى أنبت؛ يقال: ما أعْنَت الأرض شيئاً؛ أي ما أنبتت. و ﴿الوَلِيّ﴾ المطر بعد الوَسْمِيّ(٣)؛ سُمِّيَ وَلِيًّا لأنه يلِي الوسمِيّ. ولم يقل: لا يألتاكم؛ لأن طاعة الله تعالى طاعة الرسول.

[١٥] ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي صدّقوا ولم يشكّوا وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم؛ لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب. فلما نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون في السر

---

(١) آية ٢١ سورة الطور.

(٢) البيت لعدي بن زيد.

(٣) الوسمي: مطر الربيع الأوّل؛ سمي به لأنه يسم الأرض بالنبات.

والعلانية وكذبوا؛ فنزلت. ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الذي أنتم عليه. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

[١٧] ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

[١٨] ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ إشارة إلي قولهم: جئناك بالأثقال والعيال. و ﴿أن﴾ في موضع نصب على تقدير لأن أسلموا. ﴿قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ﴾ أي بإسلامكم. ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ﴾ ﴿أن﴾ موضع نصب، تقديره بأن. وقيل: لأن. وفي مصحف عبد الله ﴿إذ هداكم﴾. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنكم مؤمنين. وقرأ عاصم ﴿إن هداكم﴾ بالكسر؛ وفيه بُعْدٌ؛ لقوله ﴿إن كنتم صادقين﴾. ولا يقال: يمن عليكم أن يهديكم إن صدقتم. والقراءة الظاهرة ﴿أن هداكم﴾. وهذا لا يدل على أنهم كانوا مؤمنين؛ لأن تقدير الكلام: إن آمنتم فذلك مِنَّة الله عليكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو بالياء على الخبر؛ ردّاً على قوله: ﴿قالت الأعراب﴾. الباقون بالتاء على الخطاب.

* * *

تم بعون الله تعالى الجزء السادس عشر من تفسير القرطبي،

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السابع عشر، وأوله:

﴿سورة قٓ﴾